جامعة الانبار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

القسم العلمي: التاريخ

المرحلة الدراسية: الثانية

المادة: تاريخ البلاد العربية الحديث

المحاضرة الاولى : نشأة الدولة العثمانية

ـ نشأة الدولة العثمانية :

لا يزال موضوع نشأة الدولة العثمانية يثير جدلا ونقاشا بين المؤرخين المختصين بالتاريخ العثماني ، وسبب ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين يتعلق أولهما بفقدان المصادر والمواد الأولية التي تعود لتلك الفترة ، وثانيهما كثرة ما علق بهذا التاريخ من أساطير وخرافات ، لذلك فقد تعددت الروايات في هذا الشأن وأبرزها هي الرواية التقليدية التي تتلخص بان جد العثمانيين الأعلى وهو سليمان شاه ينتمي إلى عشيرة تركمانية اسمها قايي ، وكان يحكم منطقة ماهان شمال إيران في أواخر القرن الثاني عشر ، وقد فر أمام المغولي في مطلع القرن الثالث عشر ، متجها مع جماعة من أتباعه نحو الأناضول ، وتشير هذه الرواية إلى أن سليمان شاه غرق أثناء عبوره نهر الفرات عند قلعة جعبر فانقسمت إلى قسمين فضل أحدهما ، وكان بقيادة كندبار أحد أبنائه ، العودة من حيث اتى ، أما القسم الآخر فكان بقيادة ارطغرل الذي قرر الاستمرار في الاتجاه نحو الاناضول ، وبهذا يعد ارطغرل مؤسسة الأسرة العثمانية في الأناضول ، ومما جاء في الرواية أن ارطغرل شاهد في طريقه جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى العشائر البدوية آنذاك ، ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق من انكساره وخذلانه إن لم يمد إليه يد المساعدة دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو و فرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين و هاجم الجيش الغالب ، وكان فرقة مغولية من جيش الخان اوكتاي بن جينكيز خان حتى هزمه ن ولم يكن الجانب الضعيف سوى جيش سلطان قونية السلجوقي علاء الدين الأول (1219 – 1235 م) فكافأه علاء الدين على مساعدته له فإقطاعه بقعة من دولته في غرب الاناضول وهي سهول

سكود والمنحدرات الشرقية من جبال ظومانيج على الحدود البيزنطية ، كما منحه لقب (أوج بكي) أي حارس الحدود جريا على التقاليد التي كانت سائدة في دولة الاتراك السلاجقة .

وتقول الرواية أن عثمان الابن الأكبر لارطغرل تزوج من مال خاتون وهي ابنة رجل صالح متصوف اسمه ادة بالي ، كان يسكن في قرية مجاورة لمدينة اسكي شهر حين قص عليه حلما رآه وفيه أن القمر يصعد من صدر الشيخ وبعد أن يصبح بدرا ينزل في صدر عثمان ، ثم تخرج من صلبه شجرة تغطي الكون بظلها ، وتصبح كل الجبال تحتها ويخرج النيل ودجلة والفرات والدانوب من جذعها وتتوجه أوراق هذه الشجرة كالسيوف نحو مدينة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية آنذاك.

ولما توفي ارطغرل سنة 1288م أصبح عثمان أكبر أولاده مكانه ولم يلبث هذا أن حصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة قرية حصار ، سنة 1289 فمنحه السلطان علاء الدين لقب (بك) وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي استولى عليها وأجاز له ضرب العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة ، وفي سنة 1300 توفي علاء الدين فاستأثر عثمان بجميع الأراضي المقطعة له ولقب نفسه باديشاه آل عثمان ، وجعل مقره مدينة يكي شهر ، وأخذ في تحصينها ، ثم احتل نيقيا ، ولكنه فشل في احتلال نيقوميديا فعاد إلى عاصمته الأولى ليعمل في تنظيم سلطنته .

لقد وردت الراوية التقليدية تلك في الحوليات العثمانية الرسمية وتناقلتها مصادر عديدة ولكن ببعض الاختلافات القليلة ومن ذلك أن لعثمان اثنين وخمسين جدا ينتهون بنوح ، ومنهم أوغوزخان الذي عرف قومه بالغز ، وهم قبائل تركية اشتهرت ببأسها في آسيا الغربية في القرن العاشر ، وردد كتاب عرب الرواية الرسمية وأضافوا إليها بعامل الزمن كثيرا من الإضافات التي تعكس ازدياد قوة العثمانيين ، وكمثال على ذلك إلى رواية تطرق فيها علي بن حسن الشهالي الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى خبر يتعلق بانتساب العثمانيين إلى عرب الحجاز .

ويتضح من الرواية العربية أنها تهمل ذكر الغز سبب وثنيتهم ولا يعني هذا النيل من العثمانيين وإنما إضافة أمجاد مهمة لهم حين تنسب إلى الأصل العربي ، ومهما يكن من أمر فالنظرية الرسمية وانعكاساتها تدل على أنها محض أساطير وضعت وشاعت في وقت متأخر من قيام الدولة العثمانية وهي تعود غالبا إلى القرن الخامس عشر حين شعر الكتاب الأتراك بأن دولة عظيمة مثل الدولة العثمانية ، وخاصة بعد استيلائها على القسطنطينية سنة 1453م ، تحتاج إلى تاريخ عظيم يتفق والحاضر المجيد الذي وصلت إليه .

لقد توصل الباحثون في السنوات القليلة الماضية إلى حقيقة تاريخية جديدة وهي ان الجد الأعلى للعثمانيين لم يدخل الأناضول في القرن الثالث عشر ، وإنما في القرن الحادي عشر مع جموع من التركمان الذين انتشروا في هذه المنطقة في اعقاب معركة ملاذ كرد صيف 1071 بين السلطان السلجوقي الب ارسلان والامبراطور البيزنطي رومان الرابع ديوجين التي انحسمت بهزيمة البيزنطيين وأسر الامبراطور ، واستنادا لهذه المعلومات ، فالعثمانيون الأوائل لم يكونوا أكثر من قبائل بدوية ارتبطت بالسلاجقة الأتراك بشكل أو بآخر ، لذلك وبعد أن بنى العثمانيون دولتهم نشروا الفكرة القائلة بأن جدودهم الأوائل دخلوا الأناضول قادة عسكريين في خدمة السلاجقة وهذا بدون شك يعزز طموحاتهم إلى السلطة وانفرادهم بها خاصة بعد انقراض دولة السلاجقة الروم العظام .

لقد كان موضوع نشأة الدولة العثمانية والروايات المتعلقة به مثار نقد وتمحيص عدد من المؤرخين منهم المؤرخ الانكليزي كيبونز والمؤرخ التركي محمد فؤاد كوبرلي ، والمؤرخ الانكليزي بول ويتك والذين وضعوا نظريات حديثة تجاوزت الرواية التقليدية ذات الأسس الواهية وتبنوا أفكارا جديدة تتوافق مع المنطق العلمي والسياق التاريخية أو ضمن رؤية يقررها المنهج لذي يعتمده المؤرخ في دراسة التاريخ :

<u>نظرية كيبونز :</u>

إن المؤرخ الانكليزي كيبونز من أوائل الذين تصدروا لموضوع نشأة الدولة العثمانية ، وقد اورد آراءه وأفكاره في هذا الشأن ضمن كتابه الذي صدر سنة 1916 ، وتتلخص نظريته بما يلي :

1. **كان ارطغرل ابو عثمان رئيس عشيرة صغيرة اسمها قايي وفدت على الاناضول في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين الأول فرارا من الغزو والمغولي لخوارزم .**
2. **استقرت هذه العشيرة في سكود شمال غرب الأناضول وهي مقاطعة تابعة لدولة سلاجقة الروم ، وتولى عثمان رئاسة هذه العشيرة بعد وفاة والده ارطغرل .**

3- كان عثمان وعشيرته أتراكا كفارا يزاولون الرعي ، فلما عاشوا في بيئة إسلامية دخلوا الاسلام شأنهم في ذلك شأن أبناء جلدتهم من السلاجقة . وقد اثار فيهم الدين الجديد رغبة في إدخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الإغريق الذين كانوا يعيشون معهم في وفاق على الدخول في حوزة الإسلام كذلك .

4- لم يكن تحت قيادة عثمان قبل دخول الإسلام غير أربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة بسيطة ، لكن عدهم سرعان ما تضاعف بين سنتي 1290 و 1300 وامتدت حدودهم حتى صاقبت حدود البيزنطيين ، وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديد انتسب إلى رئيسه عثمان ، ذلك هو الجنس العثماني ، ولم يكن هذا الجنس تركيا خالصا منذ بداية أمره ولكنه كان جنا مختلطا ناشئا من ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والإغريق المسيحيين .

5- وزاد عدد العثمانيين بنسبة كبيرة في وقت قصير ، ومن الخطأ تعليل ذلك بالإمدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق ، لأن أراضي العثمانيين كانت تقع غرب الأناضول ، وكان لا بد للكتل البشرية لكي تبلغ ذلك المكان من الالتحاق بخدمة حكام آخرين في شرق الأناضول أولا ، وأن تأخذ منهم أراضي ، ومن هنا لا يمكن تعليل الزيادة الا بذوبان العنصر المحلي المكون من الإغريق .

6- ولا يمكن كذلك تفسير سرعة تأصل الدولة العثمانية في البلقان بهذه الأسباب المذكورة وحدها فقد ساعدت على ذلك الأوضاع المتدهورة لبيزنطة والبلقان وكل العالم العربي . والى جانب هذه العوامل الخارجية تنبغي الاشارة إلى قوة شخصية السلاطين العثمانيين الأوائل .

7- ولما كان نصارى البلقان الذين دخلوا في حوزة الحكم العثماني لم يعيشوا مثل نصارى الأناضول قرونا طويلة في جواز المسلمين ، فقد ابتدعت في عهد مراد الأول 1359 – 1389 طرق جديدة لإدخالهم في الإسلام ، ومن ذلك عتق الأسرى في حالة دخولهم الإسلام ، ولكن هذه الطريقة لا تطبق إلا في دائرة محددة ، فقد كانت نتائجها كذلك محدودة وظهرت عندئذ الضرورة لتأسيس جيش جديد (يني جريه) أو الجيش الانكشاري من أبناء النصارى ولوضع نظام الدوشيرمة (المقطوعين) الذين تتم عملية إدخالهم في الدين الإسلامي لذلك كانت العناصر اليونانية والسلافية في البلقان تفضل دخول الإسلام على تسليم أبنائها للعثمانيين ، فإن أدخلنا في اعتبارنا أن الجيش الانكشاري لم يكن له حتى في

القرن الخامس عشر أهمية عددية ، ولم يكن هو العنصر الأساسي في الجيش رجحنا أنه لم يكن تشكيلا يراد به تقوية الجيش وإنما كان وسيلة لنشر الإسلام .

نظرية كوبرلي :

بالرغم من أن آراء كيبونز في موضـــوع نشـــأة الدولة العثمانية تعد ذات قيمة كبيرة بين المؤرخين المهتمين بالدراســـات العثمانية ، وذلك لما عرف عن هذا المؤرخ من مكانة متميزة في حقل اختصاصه ، وللجهد الواضح في كتابه ، إلا ان نظريته واجهت بعد سنوات قليلة من نشها نقدا شـديدا من البروفسـور محمد فؤاد كوبرلي ، وهو مؤرخ تركي معاصـر ألقى في سـنة 1934 ثلاث محاضــرات في مركز الدراســات التركية في جامعة الســوربون بفرنســا ، دارت حول قيام الدولة العثمانية ، وأشـــار كوبرلي في تلك المحاضـــران إلى أن نظرية كيبونز تبدو له واهية من حيث أساسها العلمي وخاصة في محاولة اعتماد العامل الديني في تفسير نشأة الدولة العثمانية .

ولقد قدم كوبرلي لنظريته بدراســـة ببليوغرافية نقدية تناول فيها ما رجع إليه مؤرخو هذه المشكلة من مصادر وما غفلوا عنه أو جهلوه وتتلخص نظريته بما يلي :

1- كان قسـم صـغير من الغزو المعروفين بعشـيرة قايي ، قد وفد على الأناضـول أيام الحروب السلجوقية ، وسكن أماكن مختلفة منه ، وظل يعيش في اواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الأناضول على الحدود التركية – البيزنطية ، ويمكن الظن بأن هذا القسم كان يحارب جيرانه من البيزنطيين تحت قيادة أحد الأمراء الأقوياء .
2- أخذ عثمان وهو رئيس عشيرة ذكي وقوي الإرادة يوسع أراضيه بالتدريج مستغلا الفوضى والإهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول وكان أول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذي كان يتهدد منطقة نيقيا هو المعركة التي خاضها البيزنطيون في قوين حصار سنة 1301 .
3- وكان من حسن حظ العثمانيين أن بيزنطة قد شغلت بكثير من القلاقل والفتن في العاصمة ، وفي البلقان وبالصـــدام المســـتمر مع أعدائها من إمارات الثغور الإســـلامية الواقعة على حدودها أمثال إمارة كرميان وصـاروخان ومنتشـا وقره سـي ، لذا لم يسـتطع التحرك ضـد عثمان وســـقطت في يد العثمانيين أماكن كثيرة وكان عليها أن تدافع عن نفســـها بقوات محلية ومن تلك بورصـة التي سـقطت سـنة 1326 ونيقيا سـنة 1331 وفي سـنة 1337 استولى العثمانيون على نيقوميديا وابتداء من حوالي 1360 حكموا أراضي إمارة قرة سي التي تمكنوا من تمزيقها .

4- ولما كانت بيزنطة قد شـــغلت بكثير من الفتن بعد وفاة اموربك حاكم ولاية أيدين فقد عنيت كثيرا بأن تضـمن لنفسـها مسـاعدة أورخان بن عثمان 1326 – 1359 الذي صـار يتدخل بقواته في أمور بيزنطة .

5- ولما لبث العثمانيون الذين اجتازوا البحر ســـنة 1345 أن أفادوا من زلزال دمر أســـوار غاليبولي (جناق قلعة) فدخلوها واستوفد اورخان كثيرا من أتراك الأناضـول وخاصـة من ولاية قره سي وكذلك بعض العشائر التركية فوطنهم هناك .

6- ولما كان قســـم من أهل تراقيا قد فروا أمام الزحف العثماني فقد كان الأتراك القادمون من الأناضـــول يعمرون أماكنهم الخالية ، ولم يكن هذه الحركة التي بدأت ســـنة 1359 مثل حركات العثمانيين ومن سبقهم من إمارات الساحل القوية استيلاء مؤقتا ولكنها كانت حركة من حركات الاستيطان الحقيقي .

7- أما بيزنطة التي احتفظت بمركزها عاصـمة قرونا عديدة ، فقد بدأت تحس بالخطر العثماني بأوســـع معانيه ، ولما ولي مراد الأول 1359 – 1389 العرش كان الأتراك قد اســـتقروا نهائيا على ســـاحل أوربا متخذين من غاليبولي نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية التي اسـتطاعوا دفعها حتى تراقيا ، وقد اسـتولى الأتراك من قادة أورخان ومن أولي الخبرة في غزواتهم سنة 1360 – 1361 على أهم الأماكن السـتراتيجية في تراقيا وقد وفق مراد في مدة سلطنته في تحقيق غايته وهي بسط سلطان العثمانيين على البلقان ، ثم نقل العثمانيون عاصـمتهم إلى أردنه واسـتولوا على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وملأوها بجماعات كثيفة من الأتراك المهاجرين ، وما لبثوا بعد ذلك في معركة قوصـوه التي حدثت في سـنة 1389 أن دكوا بلاد الصـرب دكا ، ولما عظمت قوتهم بانتصـاراتهم في البلقان اسـتطاعوا توسـيع حدودهم داخل الأناضـول فاسـتولوا على انقرة وأطرافها وعلى قسـم كبيرة من الأراضـي التابعة لإمارات كرميان وحميد وقهروا إمارة قرمان .

8- وفي عهد الســـلطان با يزيد الأول 1389 – 1402 صـــارت الدولة العثمانية امبراطورية راسية القواعد في كل من الأناضـول والبلقان ، إلا إنها سرعان ما تعرضت لهزيمة منكرة أمام القائد المغولي تيمورلنك الذي حقق انتصـــارا ســـاحقا في معركة أنقرة 1402 على با يزيد واوقعه في الأســـر أثر هذه المعركة تنازع أبناء الســـلطان المذكور على الســـلطنة ، فاســـتقل كل واحد منهم في قطر من أقطار الدولة ، غير أنه بعد انتهاء هذه الفترة ، التي أسـماها المؤرخون العثمانيون باسـم " فاصـلة السـلطنة " بانتصـار السـلطان محمد الأول

1402 – 1421 بدأت مرحلة جديدة من مراحل التوسع العثماني وذلك أثر سقوط القسطنطينية بأيديهم سنة 1453 والقضاء على الامبراطورية البيزنطية بصورة نهائية وذلك في عهد السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح 1451 – 1481 .

نظرية ويتك :

في البدء نقول ان بول ويتك يعد رائدا في الدراسات العثمانية من خلال سلسلة محاضرات ألقاها في جامعة لندن سنة 1937 ونشرتها الجمعية الآسيوية الملكية سنة 1938 بعنوان " قيام الدولة العثمانية " وقد حاول :

نقد الرواية التقليدية الرسمية والاتيان بنظرية جديدة تعد الأول من أحدث وأوثق النظريات المعتمدة في هذا المجال ، ومع أنه أفاد كثيرا من نظرية كوبرلي إلا إن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى ان كوبرلي صدق الاسطورة التي تقول بانتماء العثمانيين إلى قايي ، وقال ويتك ان الإمارة العثمانية لم يكن سوى واحدة من بضعة إمارات إسلامية تشكلت في القرن الثالث عشر على حدود الدولة البيزنطية ، وعاشت على غزو الأرضي البيزنطية والسعي الحثيث لنشر الإسلام ، أما سكان هذه الإمارات فكانوا خليطاً من عناصر مختلفة يجمعهم الدين الإسلامي والحماس في محاربة البيزنطيين .

ولقد ورد ذكر العثمانيين لأول مرة بهذا المعنى في قصيدة الشاعر أحمدي نظمها بالفارسي حوالي سنة 1400 ، أما سليمان شاه ، الذي تقول الرواية الرسمية أنه جد عثمان فهو ليس إلا شخصية خرافية وإن اسمه وذهابه إلى بلاد الروم استعير من رواية حقيقية عرفت آنذاك عن احتلال التركمان " الغزاة " المجاهدين " للأناضلو في القرن الحادي عشر وارتبط ذاك باسم الأمير السلجوقي سليمان بن قتلمش الذي أرسله السلاجقة الحاكمون في بغداد في الربع الأخير من القرن الحادي عشر لينظم عمليات أولئك الغزاة ، فتمركز في نيقية ثم عاد بعد احتلال نيقيا من قبل الصليبيين في سنة 1097 باتجاه بغداد بقصد الاستيلاء عليها وطرد اقربائه السلاجقة منها ن فقتل في طريق عودته وغرق ابنه قليج أرسلان في نهر الخابور .

ولما كانت الامارة العثمانية مواجهة للأراضي البيزنطية فضلا عن وقوعها على الطرق الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية والمدن العربية الكبرى في بلاد الشام والعراق فقد استطاعت أن تتفوق على الإمارات المجاورة لها وتزداد قوة وتوسعا لأسباب متعددة ، فوقوعها قرب البيزنطيين جعل المجاهدين ويسمون الغزاة ، وهم الذين يحمون الثغور الإسلامية لا يجدون عملا

في الإمارات الضعيفة الأخرى التي قامت في النصف الغربي من الأناضول ومنها إمارة منتشا على الساحل الغربي وإمارة تكة على ساحل الأناضول الجنوبي وإمارة سينوب على البحر الأسود ، فهرعوا إلى الإمارة العثمانية وزادوا قوتها ، كما إن موقعها الستراتيجي سهل مجيء العلماء والعناصر المنظمة ، كالتجار والصناع من داخل العالم الإسلامي إليها وحلت تبعا لذلك مشكلة موارد الإمارة وقد نشط العلماء المدارس الإسلامية وطبقوا تعاليم الدين في نظم الإمارة وأخذوا الجزية وكان التجار والصناع منظمين في ما يشبه نقابات تسمى الأخية أو الاخوان يتعاون فيها أصحاب كل مهنة وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم .

واتخذت هذه الرابطة مظهرا عسكريا وقد سادت بين الغزاة وبين الحاكمين منهم ومنظمات الأخية مجموعة من التقاليد في الأخلاق والسلوك مبينة في الغالب على التقى مع مزيج من التصوف وقد استفادت إمارة عثمان من هذه الخصائص ومن كثرة العنصر المحارب فيها وعلى صغرها فقد اخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين وكان كل انتصار يجلب إليها غزاة أكثر ، وهكذا ازدادت إمكاناتها العسكرية وتحتم عليها متابعة الغزو في كل من الأناضول وشبه جزيرة البلقان .

المحاضرة الثانية : السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن

الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر :

قد سبق البرتغاليون غيرهم من الأوربيين في المجال الاستعماري ، فبعد اكتشافهم لطريق رجاء الصالح سنة 1498 تمكنوا من الوصول إلى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحرالاحمر والبحر العربي ، وقد احتلوا أغلب موانئ الخليج العربي المهمة وجزيرة وبنو قلاعا دفاعية حصينة في هرمز ومسقط وعمان والقطيف وصحار والبحرين ، وقد جاءوا إلى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفنا كبيرة ذات أسلحة نارية فتاكة لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبل بها فعجزوا عن مقاومتها في بادئ الامر ، كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري .

كان لظهور البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي وأقطاره ، فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج من مصدر أساس من مصادر ثروتها ، وكانوا بالإضافة إلى ذلك مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية وكانت غاياتهم واضحة ومحددة أولها الالتفاف حول العرب وشن الحرب عليهم وتوجيه ضربة قاضية للتجار العرب الذين يعملون منذ العصور الوسطى في نقل التجارة الشرقية من الهند والشرق الأقصى إلى موانئ البحر الاحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها من السويس عبر الأراضي المصرية إلى القاهرة

فالاسكندرية أو من البصرة عبر العراق وبادية الشام إلى موانئ البحر المتوسط لتنتطرها سفن المدن الإيطالية ومنها جنوه والبندقية وتحملها إلى أوربا .

كان الوطن العربي عندما بدأت هجمات البرتغاليين على البحر الاحمر في أوائل القرن السادس عشر يمر في دور انحلال سياسي وعسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية قد وصلت الذروة في قوتها السياسية والعسكرية ، لذلك اتجهت أنظار بعض العرب إلى الدولة العثمانية كي تعينهم ضد الخطر البرتغالي وعلى سبيل المثال اقترح شريف مكة سنة 1516 إرسال وفد إلى السلطان سليم طلبا للمساعدة العسكرية غير ان السلطان المملوكي قانصوه الغوري 1500 – 1517 منع سفر ذلك الوفد .

وسرعان ما أدرك المماليك خطر البرتغاليين الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية إلى الهند ، كما يهدد المراكز الإسلامية في الجزيرة العربية خاصة بعد ان اتضحت أهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين ، يتجلى ذلك في رغبة القائد البرتغالي الفونسو الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق أهداف البرتغاليين الاستعمارية ورغم أن هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن سيتجلى مغزاها في أنها تظهر لنا ان أعظم قادة البرتغال لم ينشر الثل الصليبية العليا هذا ومن جهة أخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من أن رد الفعل لغزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين يحتمل أن يجيئوا لمساعدة أبناء دينهم ، في الخلي العربي ، وعلى الرغم من اختلاف الأ هداف السياسية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الأقطار العربية ، غير ا المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع أثناء الربع الأول من القرن السادس عشر ، خاصة بعد فشل المماليك في محاولتهم حماية الجنوبية وإبعاد الخطر البرتغالي أثناء السنوات الممتدة ين سنتي 1506 – 1509 من جهة ، واندحار الصفويين الفرس أمام العثمانيين في معركة جالديران سنة 1514 من جهة أخرى ، فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك بهزيمة الصفويين كتب إلى الملك البرتغالي عمانوئيل الأول السماح له بتجهيز الشاه إسماعيل الصفوي بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويين من إضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

لقد دفعت الضرورة السلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد أن حطم البرتغاليون أسطوله في جوال سنة 1509 قرب ميناء ديوا إلى طلب المساعدة البحرية من السلطان العثماني ، فأسرع العثمانيون في إرسال مواد بناء السفن مع الفنيين المختصين إلى ميناء السويس في كانون الثاني 1511م في هذه الأثناء لم تتوقف فعاليات البرتغاليين في المياه العربية فرغم فشل القائد البوكيرك

في احتلال عدن سنة 1513 بسبب المقاومة العربية الباسلة غير أنه استطاع الدخول إلى البحر الاحمر واحتلال جزيرة قمران ، فأصبح ميناء جدة معرضا لخطر مدفعية البرتغاليين وعندما كمل بناء الاسطول المملوكي عين السلطان الغوري سليمان ريس ، وهو قائد بحري عثماني رئيسا له فأبحر من السويس سنة 1515 مستهدفا الدفاع عن البحر الأحمر وطرد البرتغاليين منه وإبعاد خطرهم عن مكة المكرمة ، واستطاع في سنة 1517 وسنة 1525 إحباط الهجمات البرتغالية على جدة ونجح العثمانيون في اثناء هذه الفترة في التمركز في زبيد لكنهم فشلوا في تثبيت سيطرتهم على ميناء عدن ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد احتلال العراق .

1- السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن :

ان المماليك كانوا يحكمون الجزء الغربي من الشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن ، وذلك منذ ان انتزع المماليك السيطرة من الأيوبيين القرن الثالث عشر ، وبعد تغير طرق التجارة واكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة أوربا مع الشرق إلى هذا الطريق الجديد بدلا من مرورها بمصر ، عانت الدولة المملوكية تدهورا في اوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، إذ فقد المماليك موردا ماليا كبيرا كانوا يحصلون عليه من الضرائب المفروضة على البضائع التي كانت تنقلها القوافل عبر أراضيهم ، وقد وقع عبء هذا التدهور الاقتصادي على عاتق الطبقات الشعبية الكادحة من أصحاب حرف ومزارعين ، إذ فرضت السلطة المملوكية الضرائب الفادحة التي كانت موضع استياء الشعب آنذاك .

هذا في الوقت الذي أصبحت فيه النظم المملوكية في الإدارة والجيش متخلفة عما كانت عليه النظم العثمانية ، إذ كان المماليك يعتمدون نظام الفرسان ، أما العثمانيون فقد طوروا نظامهم العسكري ، فصار مؤلفا من المشاة والمدفعية ، وهذا يفسر لنا سبب فشل المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي خاصة إذا ما علمنا أن البرتغاليين امتلكوا أساطيل كبيرة ولم يكن للمماليك قبل بها .

إن علاقة الدولة العثمانية المملوكية بقيت حتى أواخر القرن الخامس عشر علاقة مجاملة ومؤازرة عن طريق المراسلات وتبادل الوفود والهدايا . فعندما سقطت القسطنطينية بعث السلطان المملوكي حينذاك الأشرف اينال رسولا إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بهذا الانتصار ، وقد أشرنا فيما سبق إلى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية في عهد با يزيد الثاني لدولة المماليك حين تفاقم الخطر البرتغالي ، ولكن العثمانيين سرعان ما أدركوا بعد هزيمة المماليك في معركة ديوا أوائل سنة 1509 أنهم القوة الوحيدة القادرة على انقاذ العالم الإسلامي ، واعتقدوا أن وضع دمشق

والقاهرة ومكة والمدينة تحت سيطرتهم يتيح لهم إمكانات اقتصادية وستراتيجية ومعنوية لا حد لها ، وقد منحتهم الانتصارات التي احرزوها ضد إيران والقوى الأوربية ثقة عالية بأنفسهم .

لقد اتجه العثمانيون بعد انتصارهم على الدولة الفارسية في موقعة جالديران سنة 1514 للتوسع على حساب دولة المماليك في بلاد الشام ودخلت العلاقات المملوكية – العثمانية مرحلة سلبية وصلت إلى حد الحرب بين الدولتين ، أما السبب المباشر للاحتلال العثماني لبلاد الشام فكان تهديد الدولة العثمانية لحدود الدولة المملوكية وذلك عندما هاجمت إمارة ذو القدر ، وهي إمارة تركمانية صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من الأناضول على الحدود الشامية وعاصمتها مرعش ، وقد تأسست في منتصف القرن الرابع عشر وكان أميرها متحالفا مع المماليك معترفا بتبعيتهم لهم ، وضمتها إليها بحجة عرقلتها سير جيوشها أثناء تقدمها لمحاربة الإيرانيين متعاونة في ذلك مع دولة المماليك نفسها .

وهكذا قامت الحرب بين الدولتين ، وجرت معركتها الحاسمة على أض سوريا في سهل " مرج دابق " في 24 آب سنة 1516 بالقرب من مدينة حلب ، وكان السلطان سليم الأول يقود الجيش العثماني ، أما الجيش المملوك فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (1500 – 1517) ووضح منذ اللحظة الأولى للمعركة أنه ليس ثمة تكافؤ بين الطرفين وخاصة في مجال التنظيم وإدارة الحرب ونوعية الأسلحة المعتمدة ، فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطع مقاومة القوات العثمانية بتنظيمها المتقن واستعمالها المدفعية وأساليب القتال الحديثة ، كما كان لخيانة قائدين مملوكين للسلطان الغوري وهما خاير بيك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب دمشق وتبادلهما الرسائل سرا مع السلطان سليم أثر كبير في هزيمة المماليك ومقتل السلطان الغوري وانسحاب بقية القوات المملوكية المنهزمة إلى مصر ، وعلى حد تعبير ابن زنبل وهو مؤرخ معاصر فإنهم تركوا أثقالهم وأموالهم واختاروا سلامة الروح .

دخل السلطان سليم مدينة حلب في 28 آب 1516 وقد قرئت الخطبة في مسجد الملك الظاهر باسمه ووصفه الخطيب بأنه مالك الحرمين الشريفين ، فنهض من مكانه وقال بل أنا خادم الحرمين الشريفين ، وقد بقي في حلب قرابة ثمانية عشر يوما ، نظم فيها أمور المدينة وما حولها كملاطية وبهنسي وعينتاب ، ثم توجه نحو دمشق فوصلها في 27 أيلول وظل فيها ما يقارب شهور ، وقد أبقى السلطان سليم النظام الإداري في الشام على ما كان عليه أيام المماليك ، إذ وجد بلاد الشام مقسمة إلى ست مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسم (نيابة) وهي نيابات حلب ودمشق وحماة وطرابلس وصفد والكرك ، وقد عين عليها بكوات من الأتراك العثمانيين الذين يثق بهم .

إلا إنه أجرى تعديلا لهذا الوضع قبل عودته إلى العاصمة وذلك بأن رفع من شأن بعض المدن وحولها إلى مراكز إدارية رئيسة متخذا الوحدة الإدارية العثمانية وهي السنجق " اللواء " أساسا للتقسيم بدلا من النيابة ، كما عين جان بردى الغزالي واليا على دمشق ، ومد نفوذه على القسم الجنوبي من سوريا وحتى العريش ، ويشرف عليه حاكم حلب وثانيهما جنوبها ويشرف عليه حاكم دمشق ، وقد شمل التنظيم الإداري للسلطان سليم كذلك المدن الصغرى والقرى الكبيرة فعين على كل واحدة منها " صوبا شيا " يمثل السلطة العسكرية ويحفظ الأمن والنظام .

وكما اهتم السلطان بتركيز السلطة الإدارية العسكرية فإنه أظهر عناية كبيرة في تنظيم الخدمة القضائية ، وأبقى على نظام الحسبة وأوصى المحتسبين والبكوات والصوباشية بتنفيذ أحكام القضاة وقراراتهم ، ثم عين في كل سنجق مسؤولا عن تنظيم أمر المالية " الدفتر دار " .

هذا وقد ووزع السلطان سليم الحاميات التركية على السناجق وسعى لتثبيت هذه الحامية بربطها بأرض البلاد عن طريق إقطاع الخيالة " السباهين " تلك الأرض وشدهم إليها ، لكنه لم يحاول إدخال أنماط التنظيم الإداري العثماني بكل تفاصيله في منطقتين جبليتين من مناطق بلاد الشام أحدهما ، المنطقة الشمالية وتضم ملاطية وبهنسي وعينتاب وقلعة الروم وتسكنها قبائل تركية وتركمانية لها عاداتها الخاصة وتنظيمها العشائري الذي ينسجم مع طبيعة المنطقة الجبلية ، وثانيهما منطقة جبل لبنان التي كان لها كذلك أمراؤها الاقطاعيون من المارونيين والدروز ، وكانوا يعيشون أيام الحكم المملوكي متنافسين متناحرين ويتمتعون بأوضاع شبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة ، لذلك رأى السلطان سليم ضرورة إبقاء المنطقتين بأيدي رؤسائها الوارثين يحكمونها وفقا لعاداتهم الخاصة ويرتبطون بالسلطان العثماني بروابط التبعية ويقدمون له ما عليهم من خراج الأرض ، وساعده على ذلك أن كثيرا منهم قد وفد إليه مقدما فروض الطاعة والولاء بعد انتصاره في معركة مرج دابق ، ولعل من أبرز الذين وفدوا عليه فخر الدين المعنى الذين اعتراف السلطان به أميرا على جبل لبنان .

بينما كان السلطان العثماني سليم الأول يدعم سيطرته على الشام اجتمع في القاهرة قادة المماليك العائدون من القتال ، وانتخبوا نائب السلطان الغوري " طومان باي " سلطانا جديدا عليهم ، وقد كان على طومان باي توحيد صفوف المماليك ، وإعادة بناء الجيش المملوكي بعد هزيمة مرج دابق وسقوط الشام بما يكفل الصمود في وجه الجيش العثماني ومما زاد في صعوبة هذه المهمة أن الوقت لم يعد كافيا للقيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، بعد ان قرر السلطان سليم مواصلة زحفه نحو مصر وإسقاط دولة المماليك .

عندما سقطت دولة المماليك في يد العثمانيين كان من الطبيعي أن يتبع ذلك سقوط الحجاز ، وذلك لأن المماليك كانوا أصحاب السيادة عليه ، وقد أعلن زين الدين بركات شريف مكة 1497 – 1525 ولاءه للسلطان العثماني بعد ان وصله فرمان منح الأمان ، وقد أرسل الشريف بركات وفده إلى القاهرة برئاســـة ابنه الكبير ابو نمي ، ليقدم فروض الولاء في 3 تموز 1517 ويلقي بين يدي السلطان سليم بمفاتيح الكعبة وبعض الاثار النبوية الشريفة إقرارا له بالسيادة على الحجاز ، وقد استقبل السلطان سليم أبي نمي بحفاوة بالغة وأعطاه تفويضا بحكم والده وأعلن السلطان سليم نفسه خادما للحرمين الشريفين ، وقد ساعد هذا التفويض الشريف بركات في تقوية مركزه أمام خصومه في الشرافة ، وهكذا دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولا سليما ، وقد احتفظ العثمانيون بنظام الشرافة كما كان عليه أيام المماليك مع إنشاء متصرفية في جدة باسم متصرفية الحيش ، واوفقت الدولة أوقافا كثيرة على الأماكن المقدســـة ، وكانت إيراداتها تصـــب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف " حرمين دولابي " .

أما علاقة العثمانيين باليمن فقد بدت واضحة بعد سقوط الدولة المملوكية ودخول السلطان سـليم القاهرة ، فقد أرسـل الاسـكندر الحركسـي حاكم اليمن المملوكي وفدا ليقدم فروض الولاء للسلطان العثماني الذي وافق على إبقائه في منصبه ، إلا ان الصراعات الداخلية بين القادة المماليك انفســـهم من جهة وازدياد نفوذ الامامة الزيدية بين قبائل الجبال من جهة أخرى جعلت الســـيطرة العثمانية في اليمن ضـعيفة ، هذا بالإضـافة إلى الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السـواحل اليمنية مباشرة لذلك فقد بعث العثمانيون قوة عسكرية إلى اليمن لم تستطع إقرار الأمن والدفاع عن السفن الإسلامية التي كانت تتعرض لمدفعية البرتغاليين وذلك بسبب النزاع الذي نشب بين قائدها حسين الرومي متصرف جدة والريس سلمان أحد قادة البحر العثمانيين .

إن موقع اليمن إلى الجنوب الغربي لشـــبه الجزيرة العربيـة لـه أهميـة كبيرة في اقتنـاع العثمانيين بأن سـيطرتهم المباشـرة عليه تجعلهم يضـمنون سـلامة الأماكن المقدسـة في الحجاز ، والتحكم في البحرين الاحمر والعربي وامتلاك موطئ صـالح للوثوب على الأسـطول البرتغالي في المياه العربية .

تعد حملة سليمان باشا الأرناؤوطي سنة 1538 أول حملة منظمة إلى اليمن فقد ضمت 20 ألف شخص مع 74 سفينة بحرية ، مجهزة بالمدافع ، وكان من أهداف الحملة أن يحتل العثمانيون اليمن ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن ثم غلق مضيق باب المندب في وجه الأساطيل الأجنبية ، وف 1539 بدأ العثمانيون بعمليات توطيد السـيطرة مما أدى إلى وقوع الصـدام بينهم وبين الأئمة

الزيدية ، وقد احتل العثمانيون عدن سنة 1538 وتعز سنة 1545 كما سقطت صنعاء في قبضتهم سنة 1547 .

لقد أصبحت اليمن بعد الاحتلال العثماني تضم تسعة ألوية " سناجق " وهي صنعاء ، مخا ، زبيد ، صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، عدن ، ومن ناحية أخرى تحرك سليمان باشا بأسطوله ليستولي على بعض الموانئ العربية في حضر موت ومنا الشحر والمكلأ واجتاح ساحل الحبشة وعاد إلى السويس واكتفت الدولة العثماني في تلك المرحلة باحتلال ساوكن ومصبوغ على الجانب الغربي من البحر الأحمر سنة 1557 ولم تستطع الحبشة التدخل ضد العثمانيين آنذاك بقوة لأنها كانت تعاني من ظروف الانقسام بين مؤيدي الكنيسة الشرقية ومؤيدي الكنيسة الغربية ، وذلك قبل دخولهما في حرب أهلية طويلة استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر ، وقد استفاد العثمانيون من هذه الظروف فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج العربي بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي وقد مهد لهم ذلك السيطرة على العراق .

هذا وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني الأول 1538 – 1635 تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية .فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركات المقاومة التي ستواجههم .

المحاضرة الثالثة

السيطرة العثمانية على العراق والخليج العربي وأسباب انهيار البرتغاليين

لقد أبقى السلطان سليم بعد انتصاره في موقعة جالديران سنة 1514 فرهاد باشا أحد قواده لإكمال احتلال الولايات المتاخمة للحدود العثمانية ، وقد أمر فرهاد باشا بيقلي محمد باشا بالسيطرة على ماردين والرها والرقة والموصل وسنجار وتلعفر وجيزرة ابن عمر والعمادية وأربيل وكركوك ، وقد تم احتلالها سنة 1515 غير ان الحكم العثماني في هذه المناطق ظل قلقا بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السكان من العثمانيين آنذاك .

أما العراق الأوسط والجنوبي فقد بقي تحت الاحتلال الفارسي ، وقد تدهورت اوضاع سكانه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية نتيجة لسياسة الاهمال التي اتبعها الفرس ، فقد كثرت الأوبئة وأهلمت مشاريع الري وظل نظام الأراضي يعاني كثيرا من الفوضى .

قام السلطان سليم الأول بإعداد حملة لاحتلال العراق وطرد الفرس ولكن المنية عاجلته سنة 1520 ، وعندما تبوأ السلطان سليمان القانوني العرش 1520 – 1566 وضع في منهاجه توجيه

ضــربة قوية إلى الدولة الصــفوية عن طريق الســيطرة على العراق والذي يمكن أن تتخذه الدولة العثمانية فيما بعد كقاعدة للانطلاق نحو الخليج العربي تعزيزا لجهودها في مواجهة البرتغاليين في البحرين الاحمر والعربي .

لقد حاول الســلطان ســليمان القانوني في بداية الامر تنفيذ احتلال العراق باســتمالة بعض حكامه المحليين ، ولكن هذه الخطوة كانت سببا في جعل العراق ساحة للصراع العثماني الفارسي وكاد السلطان سليمان القانوني يحقق هدفه بالسيطرة على العراق حين أعلن ذو الفقار بيك بن علي بيك نفســه حاكما على بغداد وعزل عمه إبراهيم خان موصــلو وتقرب من العثمانيين وأظهر الولاء لهم بعد أن بعث برسالة السلطان بذلك .

إلا ان الشاه طهماسب الأول الذي تولى الحكم بعد أبيه إسماعيل سنة 1524 قام بهجوم كبير على بغداد ســنة 1530 وتمكن من قتل ذو الفقار وإخماد حركته وإعادة العراق إلى الحكم الفارســي ثانية .

شــجعت هذه الأحداث العثمانيين على أن يتولوا بأنفســهم الســيطرة على العراق ففي ســنة 1534 تحرك ا السلطان سليمان القانوني بجيش كبير متجها نحو تبريز ، فوصل إلى سلطانية في 13 تشــرين الأول وكانت الجيوش الفارســية تنســحب من أمامه مرحلة بعد اخرى حتى وصــل إلى همدان ، وعبر جبال زاكروس وتوجه غربا نحو بغداد ، أما الحامية الفارسية فيها فقد انسحبت عند ســماعها بأنباء وصــول الجيش العثماني ، وهكذا دخل الســلطان ســليمان القانوني بغداد في 30 كانون الأول 1534 دون أن يواجه مقاومة تذكر .

أُقام الســلطان ســليمان القانوني في بغداد أربعة أشــهر عمل خلالها على طمأنينة الســكان وتحقيق الاســتقرار وتنظيم الإدارة والضــرائب ، فقد أرســل محمد باشــا إلى الموصــل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها ووافق على تعيين الشيخ راشد بن مغامس أمير البصرة العربي واليا عليها شريطة أن يكون تابعا لباشا بغداد ، ثم عين حاكم ديار بكر السابق سليمان الطويل اول والٍ عثماني في بغداد .

أصــبح العراق في عهد الســلطان ســليمان القانوني مقســما إلى خمس مناطق إدارية عرفت بالإيالات وهي إيالة البصــرة وإيالة الموصــل وإيالة شــهرزور ، وقد أعقب احتلال العراق امتداد النفوذ العثماني إلى منطقة الخليج العربي إذ صــارت البصــرة بعد تأكيد الســيطرة العثمانية الفعلية عليها سنة 1546 القاعدة الثانية بعد السويس لإرسال الحملات البحرية ضد البرتغاليين .

السيطرة العثمانية على الخليج العربي :

وقد بدأ الصراع السافر بين العثمانيين والبرتغاليين حوالي سنة 1550 . عندما أعلن أهالي القطيف أنهم لا يدينون بالولاء لحاكم هرمز حليف البرتغاليين ، وأنهم يفضلون الدخول في حماية العثمانيين وقد أسرع البرتغاليون لإفشال مطمح سكان القطيف وإعادة الأوضاع إلى سابق عهدها ، ولقد أرسل السلطان العثماني سنة 1551 قائد البحر بيري بك على رأس اسطول يتألف من ثلاثين سفينة لتهدئة أوضاع عدن الثائرة ضد العثمانيين ولكسر الطوق البرتغالي على التجارة في الخليج العربي .

حاصر بيري بك هرمز مدة شهر كامل ، إلا ان تحصيناتها القوية التي أنشأها البرتغاليون خلال وجودهم منذ أربعين سنة حالت دون سقوطها فاضطر إلى التراجع نحو البصرة بثلاث سفن فقط تاركا بقية أسطوله في مضيق هرمز خوفا من تقدم الأسطول البرتغالي قوي نحوه واحتمال غلق المضيق بوجهه ، وقد أعدم بيري بك في استانبول بعد ان وجهت إليه تهمة الفشل في تحقيق أهداف العثمانيين في الخليج العربي وتشويه سمعة البحرية العثمانية ، وقد واصل العثمانيون جهودهم ضد البرتغاليين في الخليج العربي فأسندت قيادة الأسطول البحري في مصر سنة 1553 إلى سيدي علي الذي كانت له سمعة طيبة بسبب جهوده في البحر المتوسط ، وقد وصل سيدي علي البصرة وتسلم من الوالي العثماني هناك خمسة عشرة سفينة وأقلع سنة 1554 متوجها إلى هرمز وهناك اصطدم بأسطول برتغالي قوي يتألف من أربع وثلاثية سفينة ، وبسبب إطلاقات مدافع البرتغاليين والرياح المعاكسة القوية اندفع الاسطول دون خطة باتجاه السواحل الهندية ، وفي ميناء مورات تفرق أعوان سيدي علي وتركوا ما لديهم من سفن وساروا في الطريق البري عائدين إلى البصرة ، فاضطر سيدي علي إلى بيع السفن وإرسال أثمانها إلى استانبول .

وبعد حملة سيدي علي أرسلت إلى الخليج العربي بضع حملات عثمانية إلا انها لم تنجز أكثر من احتلال مؤقت للبحرين سنة 1559 ولمسقط سنة 1581 وفي كلتا الحالتين أجبرتها الأساطيل البرتغالية على الانسحاب .

إن الحملات العثمانية المتوالية بالرغم من عدم تكللها بالنجاح التام الا انها ساهمت بشكل أو بآخر في إضعاف شوكة البرتغاليين في الخليج العربي ، ولم يعد الطوق الذي فرضوه محكما ، على أنه لم يتحقق التخلص من النفوذ البرتغالي نهائيا الا على يد عرب الخليج أنفسهم ، ولقد ساعد خضوع البرتغال إلى العرش الاسباني بين سنتي 1580 – 1640 ووصل الانكليز والهولنديين إلى الخليج العربي على اضعاف البرتغاليين وتقليص نفوذهم في الخليج العربي ، لكن نمو قوة عرب عمان كانت العامل الحاسم في طرد البرتغاليين من المنطقة ، لقد ظهرت دولة اليعاربة في عمان

سنة 1624 وتولت مسؤولية الصراع ضد البرتغاليين ونجحت في عهد حكامها الأوائل وخاصة ناصر بن مرشد 1624 – 1649 وسلطان بن سيف 1649 – 1668 في القيام بحركة تحريرية كبرى لم تقتصر على مناطق النفوذ البرتغالي في الخليج أو سواحل الجزيرة العربية ، وإنما امتدت إلى قواعد البرتغاليين وقلاعهم في الهند وفي سواحل شرق إفريقيا فتحررت صحار ومسقط ، وكان ميناء كنجان الصغير على الشاطئ الشرقي للخليج العربي آخر معقل للبرتغاليين دمره العمانيون سنة 1695 .

إن أسباب عدم نجاح العثمانيين نجاحا تاما في كفاحهم ضد البرتغاليين يمكن ان يعزى إلى عدم كفاءة بعض قادتهم البحريين وقيامهم بأعمال تعسفية إزاء السكان العرب بالرغم من تعاونهم مع العثمانيين في جهودهم الحربية المناهضة للبرتغاليين ، بالإضافة إلى ذلك فإن الاسطول العثماني في القرن السادس عشر كان مؤلفا من سفن صغيرة غير قادرة على التاثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة ، يضاف إلى ذلك صعوبة تجهيز وإدامة أسطول عثماني تكفي قوته لمواجهة الأساطيل الأوربية في البحر المتوسط والمحيط الهندي في الوقت نفسه ، وذلك لانشغال الدولة العثمانية في هذه الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة وضد الصفويين .

ومهما يكن من أمر فإن من نتائج الصراع العثماني – البرتغالي قدرة العثمانيين في المحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية وطريق الحج وكذلك حماية الحدود الإسلامية البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر ، كما إن البرتغاليين برغم ما بذلوه من جهود لم يستطيعوا قطع الطرق التجارية التي تربط الهند و اندنوسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر ، فقد استمرت عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوربيين في أسواق حلب والقاهرة واستانبول وبورصة ، وفي سنة 1554 على سبيل المثال اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار – القنطار يساوي 100 كغم – من التوابل في الإسكندرية وفي الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدة في كل سنة حوالي عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية كالتوابل والأصباغ والأنسجة .

كما إن مشتريات البندقيين السنوية من التوابل البالغة 12 ألف قنطار بين سنتي 1560 – 1564 هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل اكتشاف فاسكودي غاما للطريق البحري الجديد المؤدي إلى الهند .

المحاضرة الرابعة : نظم الحكم والإدارة العثمانية في المشرق العربي والمؤسسات العسكرية

التنظيم السياسي والإداري :

اهتم العثمانيون منذ بدء سيطرتهم على الوطن العربي في القرن السادس عشر والتي استمرت قرابة أربعة قرون بتثبيت دعائم حكمهم وتنظيم الإدارة والمجتمع مستندين في ذلك إلى مصدرين أساسيين ، أولهما : النظم التي كانت متبعة في مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، وثانيهما : النظم التي كانت سائدة في الأقطار العربية قبل احتلالهم لها ، وسنلقي فيما نستقبل نظرة على التنظيم العثماني في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

1- التنظيم السياسي والاداري :

أ- الخليفة : كانت الخلافة إحدى الأسس التي ارتكزت إليها فلسفة الحكم العثماني ، فقد عد العثمانيون دولتهم استمرارا للدولة العربية الإسلامية التي سقطت سنة 1258 وادعوا أنهم أصحاب رسالة تدعوهم إلى تحقيق أهداف الإسلام الكبرى ومنها مد حدود الإسلام وتوسيعها وحمايتها من الأطماع الأجنبية والمحافظة على العقيدة الإسلامية القويمة ، وحين احتل السلطان سليم الأول مصر سنة 1517 حرص على مقابلة محمد المتوكل آخر الخلفاء العباسيين ، وكان يعيش في القاهرة آنذاك وعامله بما يستحقه من تبجيل واحترام ثم اصطحبه إلى استانبول .

تداول المؤرخون رواية تنازل الخليفة العباسي المتوكل عن الخلافة للسلطان سليم الأول وتسليمه الآثار النبوية الشريفة المؤلفة من بيرق – علم – الرسول الكريم وبردته انتقلت ، وكأن الخلافة انتقلت إلى آل عثمان الذين تورثوها حتى ألغيت سنة 1924 ، ومن الذين ذكروا هذه الرواية المؤرخ دوسون في كتابه " لمحة عامة للامبراطورية العثمانية " بيد أنه لم يشر إلى المصدر الذي استند إليه ، ومن المؤرخين الذين أشاروا إلى الرواية نفسها محمد فريد ولين بول ومارك سايكس ووليم موير ،وآخرون ، ويستند يؤيدون قضية التنازل إلى بعض الادلة ، ومنها إن الاثار الخاصة بشعائر الخلافة ما تزال محفوظة في مسجد أبي أيوب الانصاري باستانبول وهي نفس الاثار التي تسلمها السلطان سليم في مصر ، كما إن بعض المرتبطين بالسلطان سليم كانوا يطلقون عليه لقب الخليفة ، ومن هؤلاء معاصره المؤرخ ابن زنبل ، وقد لقب بركات شريف مكة السلطان سليمان سنة 1520 بلقب " خليفة الله " .

لا تؤيد المصادر الحديثة الراي الذي يقول بحدوث تنازل خاصة وإن العثمانيين لم يكونوا يملكون الشرط الواجب توفره في خليفة المسلمين وهو الانتماء بالنسب إلى قريش ، كما إن الخليفة المتوكل سرعان ما عاد إلى القاهرة ليواصل مهامه الدينية حتى وفاته 1543 ، يضاف إلى هذا أن

العثمانيين لم يستعملوا لقب خليفة بعد إخضاعهم الوطن العربي وإنما اكتفوا بقلب " السلطان " الذي لم تكن سلطته في منشئها مستندة إلى اختيار إلهي ، وإنما كانت بفضل السيف وضمن حدود الشرع ، ومن هنا فقد كانوا يفضلون كثيرا لقب " خادم الحرمين الشريفين " .

إن المؤرخين الذين ينكرون حادثة التناول يشيرون إلى عدد من الأدلة التي تؤيد وجهة نظرهم ، ومنها :

1- **لم يرد في كتابات المؤرخين الرسميين الذين اصطحبهم السلطان سليم معه إلى مصر ما يدل على أن الخليفة المتوكل على الله تنازل عن الخلافة للسلطان سليم ، فكتابات المؤرخ التركي أحمد فريدون وهي نوع من اليوميات التي تسجل ما فعله السلطان سليم في مصر حتى عودته لا تشير إلى هذه الحادثة مع أنها ذكرت تفصيلات دقيقة وتصف هذه اليوميات الخليفة العباسي بأنه الخليفة المتوكل على الله مولانا محيي الدين من آل العباس الذي هو بقية الخلافة العباسية في المحروسة المصرية .**
2- **إن ابن اياس المؤخر المصري المعاصر إلى عهد السلطان سليم إلى مصر قد دون الكثير من الوقائع العثمانية دون أن يذكر شيئا عن التنازل .**
3- **إن أقرب المؤلفات التاريخية إلى عهد السلطان سليم وهو المعروف باسم " تاج التواريخ " لمؤلفه سعد الدين ابن شيخ الإسلام الذي صاحبه سليم أثناء غزوه لمصر لا يذكر شيئا عن الخلافة .**
4- **أن نقود السلطان سليم لا تحمل لقب خليفة .**
5- **إن خطباء في مصر ذكروا سليما بلقب سلطان .**
6- **السلطان سليم كان يبعث الرسائل إلى ابنه ونائبه في استانبول الأمير سليمان يخبره فيها بتفاصيل الأحداث ولم يرد في رسائله خبر تنازل المتوكل عن الخلافة له .**
7- **إن لقب الخليفة فقد أهميته منذ زمن طويل ، وإن أمراء ضعفاء من السلاجقة والموحدين والهنود والجلائريين قد تلقبوا به ، لذلك فالسلاطين العثمانيون كما يشير إلى ذلك توماس آرنولد لم يكونوا بحاجة إلى اللقب . ويبدو أن السلطان سليم نفسه لم يكن ليهيم به لأن الخليفة المتوكل وقع في أسره وكان يستطيع إرغامه على التنازل عن الخلافة ولكنه لم يفعل ذلك .**

8- إن من الوثائق المهمة التي تدعم الرأي القائل بعدم التنازل وثيقة رستم باشا عبد الكريم وكان وزيرا في عهد السلطان سليمان بين سنتي 1544 – 1552 وهي مؤرخة في سنة 1557 تشير إلى ألقاب السلطان سليم جميعها دون ان يكون من بينها لقب خليفة .

لعل أول نص رسمي ورد فيه لقب الخليفة هو معاهدة كوجك كينارجي التي وقعت سنة 1774 بين السلطان عبد الحميد الأول 1774 – 1789 وامبراطورة روسيا كاترينا الثانية ، وبموجب هذه المعاهدة وافقت روسيا أن يكون للسلطان العثماني كخليفة للمسلمين الحق في حماية المسلمين في شبه جزيرة القرم ، وهذا ينسجم مع السياسة الإسلامية التي تبنتها الدولة لمواجهة الحركات القومية .

ومهما يكن من أمر فإن الرواية الشائعة عن التنازل لا تستند إلى أساس تاريخي ، إذ اختلقت بعد عهد السلطان سليم واستفاد منها السلاطين العثمانيون وساعدتهم في استسلام المسلمين من العرب والعناصر الأخرى واخرت كثيرا نشوء الوعي القومي عندهم ، إن لقب الخليفة سرعان ما بدا يحتل اهمية كبيرة عند السلاطين العثمانيين في القرن الثامن عشر وذلك حين بدت علامات تدهور الدولة وانحطاطها .

وفي القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وحين بدأت الدعوة إلى وجوب قيام خلافة عربية محل السلطنة العثمانية على المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي وحين اشتدت المنافسة بين الدول الاستعمارية لتمرين الدولة العثمانية أبرز السلاطين العثمانيين لقب الخليفة لإخافة الدول الأوربية وخاصة بريطانيا التي كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند .

ب- السلطان والحكومة :

كان السلطان العثماني يعرف بلقب " خنكار " أو " باديشاه " ومعنى ذلك السلطان الأعظم أو الرئيس الأعلى للدولة والجيش ويشترط فيه أن يكون تركي الأصل ، لذلك تركز الولاء في الدولة لآل عثمان " عثمانلر " وحدهم وهم كما أشرنا من قبل أسرة تركية تدعي الانتماء في الاصل (ولو بدون مبرر كبير) إلى قبيلة اوغوز التي انحدر منها السلاجقة كذلك من قبل ، وقد تشبثت الأسرة العثماني بأصلها العرقي هذا لتستهوي به رجال القبائل التركية ، وكانت الدولة العثمانية في جميع أدوارها التاريخية تستعمل بعض الرموز والأساليب المستمدة من أصول قبلية تركية كأذناب الخيل " الطوغ " التي كانت علامة على الرتبة في الحكومة ، وكانت التركية لغة البلاط والقيادة في الجيش ودوائر الحكومة ولكن هذا لا يعني ، وخاصة في المراحل الأولى أن هناك تركيزا على عرق أو جنس معين ، فالموظف في خدمة السلطان العثماني لم يكن يعد نفسه بحكم الضرورة تركيا في

اصـــله ولو أنه كان يســـتعمل اللغة التركية ، وقد تمســـك العثمانيون منذ البدء بكلمة " عثماني " تعبيرا عن الاعتزاز بالانتساب إلى عثمان من جهة واستعلاء على أجناس تركية متخلفة في نظرهم ، كانت تقطن في آســـيا من جهة أخرى ، وكثيرا ما اســـتخدم العثمانيون حتى أوائل القرن التاســـع عشر كلمة تركي بمعنى الفلاح الجاهل تهكما به أو تحقيرا له .

عد احد المؤرخين وهو الدكتور عبد العزيز الشـــناوي الحرب العثمانية اليونانية التي نشـــبت سنة 1897 تاريخا تغير فيه تغيرا تاما مدلول كلمة أتراك وتركي للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي ، ويستند في رأيه إلى قصيدة نظمها الشاعر العثماني محمد أمين بك خلال تلك الحرب جاء فيها : ((بن برتوركم جنسم اولودر : ومعناها : أنا تركي ديني وجنسي من أعظم الأديان والأجناس)) .

لقد عرفت الدولة العثمانية في التاريخ بعدة أســـماء ، ففي عصـــورها الأولى أطلق عليها " دولت علية " أي الدولة العلية ، ثم سميت بسلطنة سنية أي السلطنة السنية ، كما أطلق عليها بعد اتســـاع ممتلكاتها في أوربا وآســـيا وافريقيا امبراطور لق عثمانلي أي الإمبراطورية العثمانية ، وعرفت كذلك باســـم دولت عثمانلي ، أي الدولة العثمانية ، وارتاح العثمانيون للاســـمين الاخيرين لاحتواء كل منهما على لقب عثمانلي ، إذ كانوا يعتزون بانتسابهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة يرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم .

تمتع الســلطان العثماني بســلطة عســكرية ومدنية مطلقة ، فالأمر الذي يصــد منه كان يكفي لإعدام الاشخاص ومصادرة أموالهم دون محاكمة أو سؤال ومع عن صلاحياته كانت تبدو مفيدة ، بصورة نظرية بحكام الشريعة الإسلامية ، إلا ان العلماء أي رجال الدين كانوا لا يتأخرون عن إيجاد الأحكام وإصــدار الفتاوى التي تخدم مآرب الســلاطين وتضــفي على أوامرهم وتصــرفاتهم صــفة شــرعية ، ويلي الســلطان شــيخ الإســلام وهو الرئيس الاعلى للعلماء ، وهناك الصــدر الاعظم أي رئيس الوزراء وكان يقوم بإعانة الســلطان في إصــدار القوانين وإدارة البلاد ويطلق على الحكومة المركزية للدولة اســـم الباب العالي ، ويتولى الشـــؤون الخارجية ريس افندي ، وهو بمثابة وزير الخارجية ، وكان ثمة ديوان مركزي يترأسه السلطان ويضم كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين ورجال الدين .

وهذا الديوان لا يحكم وإنما كان يناقش المســـائل ويخطط الســـياســـة العامة للدولة ، وكان السلطان يواظب على حضور جلساته ، ولكن بعد عهد السلطان سليمان القانوني تلكأ السلاطين في

حضور جلساته واكتفوا بالسماع إلى ما كان يدور فيه من مناقشات ، فكان ذلك من أسباب تدهور الدولة العثمانية .

تألفت الدولة العثمانية من وحدات إدارية وعسكرية عرفت بالايالات ، والايالات تنقسم إلى سناجق أي ألوية وكان يعهد بشؤون الايالة إلى باشا يسمى بكلر بكي ، بمعنى بك البكوات ، ويعتبر برتبة مير ميران ، بمعنى أمير الأمراء ، ويعهد بشؤون اللواء إلى بك يسمى سنجق بكي ، بمعنى بك اللواء ، ويعتبر مير لوا ، بمعنى أمير اللواء ، وقد بلغ عدد الايالات التي تألفت منها الدولة العثمانية في أوائل القرن السابع عشر 32 ايالة منها 15 ايالة كانت عربية ، وفي الواقع هذه التقسيمات الادارية لم تجر على أساس تمييز الأقطار العربية عن غيرها ، ولذلك نجد أن بعض المدن العربية كانت تتبع ايالات غير عربية ، أما الايالات العربية فكانت على التوالي ايالة الشام ، ايالة طرابلس الشام ، ايالة حلب ، ايالة الرقة ، ايالة الموصل ، ايالة شهر زور ، ايالة بغداد ، ايالة البصرة ، ايالة الاحساء ، ايالة اليمن ، ايالة مصر ، ايالة الحبش ، ايالة تونس ، ايالة طرابلس الغرب ، ايالة الجزائر .

أما في القرن التاسع عشر فقد أصبحت الدولة العثمانية وحدات إدارية سميت بالولايات ، وتنقسم الولاية إلى سناجق (الوية) الألوية إلى أقضية ، والأقضية إلى نواحٍ ، وكان على رأس الإدارة في الولاية الوالي ، وفي كل لواء متصرف ، وفي كل قضاء قائمقام ، وفي كل ناحية مدير ناحية ، وقد بلغ مجموع الولايات العربية خلال الفترة المذكورة 12 ولاية و 4 متصرفيات مستقلة ، وهذه الولايات هي : ولاية الحجاز ، ولاية بيروت ، ولاية اليمن ، ولاية البصرة ، ولاية بغداد ، ولاية الموصل ، ولاية حلب ، ولاية سوريا ، ولاية الجزائر ، ولاية طرابلس الغرب ، ولاية تونس ، ولاية مصر .

أما المتصرفات فهي متصرفية القدس ، متصرفية بنغازي ، متصرفية دير الزور ، متصرفية جبل لبنان ، وترتبط هذه الولايات والمتصرفيات بالعاصمة استانبول .

ولم يكن للعرب طيلة الفترة العثمانية كيان سياسي خاص بهم ، ولم يمارسوا بصورة عامة اية سلطة سياسية مباشرة ولكن هذا لم يمنع العثمانيين من مراعاة الفوارق الدينية والمذهبية والعرقية ، إذ لم يحاولوا في بداية الامر التغلغل في حياة السكان طالما حافظوا على ولائهم للحكم العثماني ، وكان المجتمع مقسما إلى طبقتين الأولى وهي الأكثرية وتضم المنتجين للثروة من العمال والفلاحين والحرفيين وهم يدفعون الضرائب للحكام ، أما الطبقة الثانية فهم الحكام ويمثلون الأقلية ولا يدفعون الضرائب ولا يقومون بأي عمل إنتاجي وإنما ينصرفون لجمع الأموال

ويستخدمونها في دعم سلطتهم ، ومن هنا يمكن القول إن السطحية كانت من أبرز خصائص الحكم العثماني ، وإن هذه الحكومة العثمانية ومن مسؤوليات السكان ، أما واجبات الدولة العثمانية فكانت مقتصرة على ما يلي :

1- **تنظيم استثمار الثروة التي تعود إلى السلطان .**
2- **اتخاذ الإجراءات اللازمة لزيادة هذه الثروة وحمايتها .**
3- **حفظ النظام وحماية الدولة من الخطر الخارجي وذلك بواسطة الجيش الذي يقوم بمهمة زيادة الثروة وحمايتها مثلما يحافظ على السلطان والدولة .**

يلحظ في التاريخ العثماني أن أركان الدولة كما يقول كاتب جلبي المشهور بمؤلفه كشف الظنون أربعة وهم : العسكر والعلماء والتجار والرعية ، وه يقصد بالعلماء رجال الدين ، كما كان متعارفا عليه بين جميع الكتاب والمفكرين آنذاك ، أما الرعية فهم عوام الناس .

ج- الوالي

كان السلطان العثماني هو الذي يعين الولاة ، ومعظمهم أتراك ومن حاشيته الخاصة ، ويلقب الوالي رسميا بالباشا وله سلطة واسعة قد تصل إلى حق الاعدام ومصادرة الاموال ، ولم يكن في استطاعة الوالي التمادي في استغلال سلطته تلك ، لأن الشعب يحاول اللجوء إلى القاضي ورجال الدين إذا ما طغى ، واستبد دون وجه حق ، وكانوا يرفعون الشكاوى إلى السلطان مباشرة ، وقد يثورون على الوالي أحيانا بل ويطردونه أحيانا من البلاد ، ويلعب قادة الحامية العثمانية الاوجاق دورا في تقييد سلطة الوالي بحكم ما كان تحت أمرتهم من قوة مسلحة .

لم تكن مدة الوالي طويلة فالقاعدة العامة هي أن يتولى الوالي لمدة سنة ويجدد تعيينه إلى ثلاث سنوات في الغالب وقد تطول مدته ، ومما يلحظ أن مدة حكم الوالي كانت قصيرة بحيث لا تمكنه عن القيام بمشاريع طويلة الأمد ، وقد يعود الوالي احيانا إلى ولايته أكثر من مرة أو يعين في ولاية ثم يتولى إدارة ولاية أخرى ، فيكون من ذلك من الأسباب التي تكسبه خبرة دقيقة بأمور البلاد ، إلا ان همهم الرئيس يبقى في المحافظة على الوضع القائم وتزويد نفسه وحكمه بأسباب الحماية .

كان الوالي في الولايات العربية يتسلم مرتبا سنويا يسمى بساليانه يقتطعه من الموال التي يجمعها من ولايته . ويجمع الوالي بين السلطتين المدنية والعسكرية وقد يتولى الوالي أحيانا جباية

الضرائب والرسوم في ولايته ، ويعمل إلى جانب الوالي عدد من الموظفين يسمون بأركان الولاية وأبرزهم : نائبه الكتخدا أو الكهية ويكون مسؤولا عن الأمن والدفتر دار ، وهو المسؤول عن الامور المالية في الولاية ، ويعينه السلطان وله حق محاسبة الوالي ومصادرة امواله ، وإرسال قدر مناسب من الأموال إلى خزينة السلطان وهناك المكتوبجي ، وهو المسؤول عن تحريرات الولاية والخزنة دار ، أي : أمين الخزنة الخاصة ، وتسند الامور القضائية في الولاية إلى القاضي الذي كان يعين باقتراح من شيخ الإسلام وبفرمان سلطاني وتلحق به دار الافتاء ويرأسها مفتي المدينة وكان للقاضي نواب في سائر انحاء الولاية .

وهناك نقباء الأشراف في عواصم الولايات والمدن العربية الكبيرة ، والأشراف هم الذين يعودون بنسبهم إلى الرسول محمد (ص) ومعظمهم من الأسر العربية العريقة الشريفة التي اشتهرت بالعلم والسيادة والزعامة طيلة العصور الإسلامية السالفة ، ومن هؤلاء الاشراف في مكة وآل البكري في القاهرة ، وآل الخالدي والعلمي في القدس ، وآل الجابري في حلب ، وآل النقيب في البصرة ، وآل الكيلاني في بغداد ، وآل النقيب في الموصل ، وكان الأشراف في العهد العثماني وقلبه يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين من عامة الناس ، وكانوا في أهم الأمور موالين للسلطان مخلصين له ، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدنهم ، وقد حاول الأشراف في بعض الأحيان أن يحدوا من جماح السلطة العثمانية ، وكانت وسائل القيام بهذا العمل متاحة لهم ، لأنهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأي العام وتجنيده عن طريق استخدامهم الوعاظ ومشايخ الحارات وزعماء الطوائف الحرفية ، بالاضافة إلى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين أصحاب الوظائف الدينية على اختلاف درجاتهم في جميع أنحاء الدولة العثمانية وفي مقدمتهم العلماء في استانبول .

لقد انتظم نائب الوالي وأغا الانكشارية والدفتر دار والقاضي في مجلس استشاري يرأسه الوالي ويطلق عليه الديوان ، ومع انه انشئ ليكون الهيئة العليا القادرة على محاسبة الوالي ، إلا انه أهمل إهمالا تاما ، ولم يعد أداة من أدوات الحكم ، وأصبح مجرد هيئة استشارية تجتمع في المناسبات الرسمية لاستقبال كبار الزوار .

اما التنظيم الإداري خارج الولاية فكان محدودا فلكل سنجق حاكم مسوؤل عنه من جيمع النواحي العسكرية والاقتصادية ويعين حسب رغبة الوالي .

كما تركت إدارة العشائر لشيوخها حسب عرفها وما تتبعه من قوانين وتقاليد عشائرية وقد يرجع ذلك بدون شك إلى عجز الدولة بأنظمتها وأدواتها المعروفة حتى القرن التاسع عشر عن أن تبسط الحكم الفعال القوي في ولاياتها .

المؤسسة العسكرية العثمانية :

إن الدولة العثمانية تميزت منذ نشأتها الأولى بالطابع العسكري الصرف ، ولقد كان سر اهتمامها بالجيش وقوعها على حدود الإمبراطورية التي كانت تعاني من سكرات الموت ، كما امدتهم النظرة الإسلامية في الجهاد تلك التي تقسم العالم إلى دار حرب " دار الكفر " ودار السلام " دار الإسلام " بالتبرير النظري لتوسعاتهم في الأقاليم المسيحية البيزنطية .

ولقد رفعت توسعاتهم تلك في دار الحرب من مكانتهم في نظر المسلمين الأمر الذي قوى تيار انضمام المتطوعين اليهم ـــــ ولم يكن العثمانيون في بدء امرهم مهتمين بوجود جماعة متخصصة بأمور القتال ، بل إن أمراءهم الأوائل تمكنوا من الاستفادة من تشكيلات العثمانيين العشائرية في إحراز الانتصارات .

وفي عهد عثمان الأول تطور الأمر فكانت هناك فرقة من الفرسان تعرف باسم " اقنجي " سرعان ما يعود أفرادها إلى بيوتهم حال انتهاء الحرب ، هذا بالاضافة إلى ان عثمان كان يرسل المنادين إلى القرى لدعوة من يرغب في القتال من أي جهة ومن أي جنسية ، وكثيرا من الناس كان يهرع إلى الانضمام طمعا في الأجر والأجرة .

أما اورخان 1326 – 1359 فقد انشأ فرقة مشاة عرفت باسم البادة أو البابا وكانت تستلم أجورا وتسكن الثكنات في بادئ الامر ولكن فيما بعد اتخذت هذه القوات طابعا إقطاعيا ين منح أفرادها إقطاعات لقاء خدمتهم وذلك لعدم قدرة السلاطين على توفير المواد الضرورية لإعالة هذه القوات الكبيرة ، فما هي القوات الإقطاعية وكيف نشأت ؟

المحاضرة السادسة : القوات الإقطاعية :

تبنت الدولة العثمانية منذ فترة مبكرة من قيامها النظام الإقطاعي ، وقد هدف العثمانيون من هذا النظام تحقيق أمرين اثنين ، أولهما : تأمين الرزق لفئات متعددة من الجند بدلا من تخصيص رواتب لهم ، فقد كانوا يجهزون أنفسهم ويتقدمون إلى ميادين القتال ، أما الأمر الثاني ، فهو ان هذا النظام ساعدهم على تهيئة ما يحتاجونه من الجند في حركات التوسع العثمانية ، وقد شكلت قوات الفرسان الإقطاعية نواة الجيش العثماني .

قامت النظرة العثمانية في مجال ملكية الأرض على الأسس الآتية :

1- **الأرض المفتوحة ملك للدولة وليس جميع الأراضـــي ، إذ إن هناك اراضـــي مملوكة للأفراد في الدولة الإسلامية .**
2- **ليس للسلطان أن يكون مالكا وإنما له حق الاشراف بحكم وظيفته على رأس الدولة .**
3- **من هنا له حق الاقطاع كما تقرره مصـــلحته التي تفترض أن تكون متطابقة مع مصـــلحة الدولة .**
4- **اعتبر العثمانيون كافة الأراضي مفتوحة بما فيها أراضي الأقطار العربية وجرى اخضاعها الاقطاعي وفقا لمقتضـــيات الحاجة ولم تســـتثنِ من ذلك غير الولايات البعيدة ذات الطابع القبلي حيث لم تسمح ظروفها بتطبيق النظام الاقطاعي فيها .**

وهكذا أقطع السلطان العثماني الأراضي للقادة العسكريين والإداريين وهؤلاء هم الذين عرفوا بأصحاب التيمار والزعامات والخاص ، بشر أن يكونوا على استعداد للسير تحت راية السلطان في أية لحظة وأن يتولوا إعداد عدد من الخيالة والفرســـان المحاربين ، وأن يجهزوا بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة وخيول ، بنسبة فارس واحد عن الخمسـة آلاف أقجة الأولى للإيراد المقدر للإقطاع وفارس واحد عن كل ثلاثة آلاف أقجة تلي الخمســـة الآلاف الأولى من الايراد المقدر للإقطاع ، والاقجة عملة فضية عثمانية كانت تبادل في القرن السادس عشر نصف درهم ، فإذا سجل حاصل المقاطعة بأربعمائة الف أقجة مثلا كان على من أقطع له الاقطاع أن يجهز 118 فارســـا محاربا ، وهذا يقودنا إلى معرفة أنواع الأراضي حتى نستطيع تحديد المقصود بالتيمار وغيره .

عمد العثمانيون إلى تطبيق قواعدهم في الفتح ، وكانت شـائعة آنذاك ، وهي إحصـاء السـكان ومسح الاراضي التي يحتلونها وتقسيمها إلى مقاطعات بعضها كبيرة وبعضها صغيرة ، ويمنحون المقاطعات الصـــغيرة إلى الجنود المحاربين والكبيرة إلى الأمراء والقواد وذلك بعد تخصـــيص عدد من المقاطعات الكبيرة للسلطان ويسجلون ذلك في سجلات تسمى دفاتر ويحتفظ بها عند الدفتر دار .

إن إقطاع الأرض لم يكن يعني تمليكها ، بل تفويض صـاحبها حق جباية الأعشـار والرسـوم والضرائب المترتبة عليها ، فكانت تبقى بأيدي زراعها على ان يدفعوا الضرائب التي تفرض عليها إلى التيمارجي والزعيم ، أو من يوكله لتسلمها .

تندرج تلك الإقطاعات تحت اسـم " ديريلكات " جمع ديرلك بمعنى رزق وتنصـف إلى ثلاثة أنواع :

أ- التيمار : وهي مقاطعات زراعية يتصـرف بإيرادها شـخص يسـمى تيمارجي ، ومسـاحتها تتراوح بين 300 – 500 فدان وتدر سـنويا دخلا يتراوح بين 3000-10000 أقجة .

ب- زعامت : وكانت الخدمة الشخصية هي التي تؤهل البكوات والزعماء للحصول على إقطاع أكبر من التيمار ، ويسـمى زعامت ، تزيد مسـاحته عن 500 فدان ، ويدر دخلا يتراوح بين عشرة آلاف اقجة إلى 100000 أقجة .

أما الاقطاعات الكبيرة التي يزيد واردها على 100000 أقجة تسمى (خاصلر أو خواصي أي خاص) وهي في الغالب تقطع للولاة وامراء السـناجق وهناك في الولايات أراض خاصـة للسـلطان باسم (خواصي همايون) .

لعبت الخيالة (السـباهية) التي تكونت بهذه الصـورة ، في مختلف أنحاء الدولة دورا مهما في حروب التوسـع العثماني ،و كان عدد فرسـان التيمار أو الزعامت مثلا يزداد كلما اتسـعت الدولة العثمانية ، لذلك وصـف الفرسـان الاقطاعيون بأنهم القوة الجسـيمة للدولة ، فقد بلغ عددهم إبان ازدهار هذا الاسلوب 200000 خيال ، ومما لا شك فيه أن أكثر الانتصارات التي حققها العثمانيون يمكن ان تعزى إلى هذا الأسلوب الذي هيأ للدولة جيشا كامل الاستعداد دائما .

كانت الاقطاعات العسكرية تدخل ضـمن الإيالات وتنقسـم الايالات كما أشـرنا إلى ذلك من قبل إلى سـناجق ويضـم كل سـنجق عدد من التيمارات ، والزعامات ويرأس الايالة حاكم يمى بكلربكي بمعنى " بك البكوات " وهو برتبة مير ميران أي أمير الأمراء ، ويعهد بشـؤون السـنجق إلى بك يسمى سنجق بكي بمعنى اللواء ويحمل رتبة ميرلو ا أي أمير اللواء .

لقد تألفت الدولة العثمانية في أيامها المبكرة من قسـمين رئيسـين هما : الأناضـول " آسـيا الصغرى " والروم أيلي أي بلاد الروم " البلقان " وكان لكل قسم حاكم يدعى بكلر بكي ويحمل لقب باشا ، وكان بكلر بكي الروم أيلي أرفع مرتبة من زميله ، إذ حفل لواؤه بثلاثة من أذيال " أطواغ " الفرس ، بينما حفل لواء زميله بطوغين اثنين فقط ، وكان يخصص لمنصب كل إيالة من الايالات ، وكل لواء من الألوية مقاطعة بدرجة " خاص " ويعد السـنجق بكي أمرا ومرجعا لجميع التيمارات والزعامات الداخلة في حدود لوائه ، أما البكلر بكي فيأمر ويوجه الخيالة الذين يجهزهم أمراء الألوية وأصـحاب التيمارات والزعامات التابعة لجميع ألوية الايالة ، ومن هذ يلحظ بأن أمراء

الايالات والالوية يجمعون بين أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية فكانوا بمثابة ولاة حكم وقواد جيش .

لم يعد لسلاح الفرسان بعد ذلك تلك المكانة التي كانت له وتفوق عليه المشاة والمدفعية كما إن الفارس الذي كان يعيش في بادئ الأمر ضمن إقطاعه صار يتركه في عهدة الملتزم في مقابل مبلغ من المال يدفعه الملتزم سنويا له وبدأ بذلك نظام الالتزام الذي لم يقتصر على المجالات الإقطاعية العسكرية وإنما شمل المجالات الأخرى فشيخ العشيرة يلتزم ضرائب عشيرته ، وقد يلتزم إقليما كاملا بأسره كما كان رئيس الطائفة يلتزم الضرائب المفروضة على طائفته ، ومع أن هذا النظام خفف من أعباء الدولة في جمع الضرائب لكنه أدى إلى ظهور طبقة من الملتزمين يستغلون الناس ويحولون بينهم وبين الحكومة الأمر الذي أدى إلى شيوع ظاهرة الظلم والاستغلال .

المؤسسة العسكرية العثمانية :

المحاضرة السابعة : القوات الانكشارية

أما النوع الثاني من القوت التي اعتمد عليها العثمانيون في إدارة عملياتهم التوسعية فهي القوات الانكشارية ، وقد ظهرت الحاجة إلى هذا النوع من القوات بعد ان فقدت القوات الإقطاعية أهميتها وصار من الصعب جدا الاعتماد عليها في أماكن بعيدة عن مواضع إقطاعاتها ومما ساعد العثمانيين على إنشاء الجيش الجديد " يني جرى) ثم طور بعدئذ يكون الانكشارية ، تلك الاعداد الكبيرة من الأسرى المسيحيين الذين حصلوا عليها خلال عمليات توسعهم في أوربا ، فقد كانت العادة المتبعة هي تخصيص خمس الأسرى للدولة وتحويلهم إلى جنود يعملون في بناء الإمبراطورية .

اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه فرق الانكشارية ونكاد نلتمس آثار نظريتين في هذا المجال ترجع أولاهما ذلك إلى زمن أورخان 1326 – 1359 وتشير إلى عهد مراد الأول 1359 – 1389 ومهما تعددت الآراء في هذا المجال يمكن القول بأن أورخان هو صاحب فكرة تأسيس الجيش الانكشاري بينما كان مراد الأول هو الذي وضع أسسه الراسخة وتنظيماته المعقدة القائمة على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان ، بحيث لم يكن من الممكن ظهور مثل تلك القوة التي تعد من أبرز ما تميزت به الدولة العثمانية عسكريا مرة واحدة وبمثل تلك الفترة الزمنية القصيرة .

لم يكن للجيش الانكشاري في القرن الرابع عشر تلك الاهمية التي أصبحت له فيما بعد ويعتقد كيبونز بأن العامل الديني كان وراء إنشاء هذا الجيش إذ إن مسيحيي البلقان لم يعيشون مثل

مسيحيي الأناضول قرونا طويلة إلى جوار المسلمين لهذا فقد ابتكر السلاطين العثمانيون طريقة جديدة لإدخالهم في الدين الإسلامي وهي الطريقة التي تنص على اعتبارهم احرارا فيما إذا اعتنقوا الإسلام ، ولكن هذه الطريقة لم تكن تطبق إلا في حدود ضيقة ، لهذا جاءت نتائجها محدودة ، ومن هنا ظهرت الضرورة لتأسيس الجيش الانكشاري .

أما امتداد الدولة العثمانية في مناطق واسعة فقد أوجد لها التزامات جديدة ، وترتب على ذلك ضرورة إيجاد قوات إضافية لإقرار الأمن وتثبيت الإدارة في هذه المناطق ، ولهذا فقد طبق العثمانيون في الفترة بين 1430 – 1438 في عهد السلطان مراد الثاني 1421 – 1451 قانون التجنيد المسمى الدوشرمة أي انتزاع الأطفال المسيحيين من أهلهم في مناطق الروم أيلي وفصلهم عن كل ما يذكرهم بآبائهم وأصلهم ودينهم وجيرانهم وتنشئتهم نشأة إسلامية وحملهم بعد ذلك على الانخراط في فرق الانكشارية أو في الخدمة داخل القصور السلطانية .

كانت الدولة ترسل كل خمس سنوات لجانا تطوف الروم ايلي لانتقاء الأطفال ممن تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة ، وفي العاصمة استانبول يتحول الأولاد إلى الإسلام وتجري لهم جراحة الختان ويتلقون دراسات في اللغة التركية والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ العثماني ، والنظم العثمانية وما إلى ذلك وفق منهج يستهدف محو كل اثر من آثار أصولهم وعواطفهم المسيحية الأولى ، فينشئون على التمسك بالدين الإسلامي والتعلق بالدولة العثمانية ، وكانوا يتلقون تربية عسكرية صارمة ، ثم يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية وقدراتهم العقلية ، إذ تعد المجموعة الأولى للعمل في وظائف الغلمان في القصور السلطانية وكانوا في العادة أجمل الأولاد شكلا ، ويطلق عليهم " أيج أو غلان " أي غلمان البلاط ، أما المجموعة الثاني فتعد لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة ، وقد يصل بعضهم إلى منصب الصدارة العظمى ويطلق عليهم مصطلح " أوج أو غلان " وينصرف أفراد المجموعة الثالثة وهي اكبر المجموعات للدخول في السلك العسكرية ضمن فيلق الانكشارية .

وقع الجيش الانكشاري تحت تأثير الطريقة البكتاشية ، وهي طريقة صوفية باطنية شاعت بين قبائل الأناضول منذ منتصف القرن الثالث عشر وأصبحت هاك علاقة وثيقة بين الانكشارية والبكتاشية ويقال إن حاجي بكتاش الذي تنتسب إليه البكتاشية وكان يسكن في قرية بالقرب من أماسيه التي تبعد عن أنقرة 180 كم ، بارك الجيش الانكشاري بوضع يده على رأس أحدهم بحيث غطى رأسه بكمه مخاطبا السلطان أورخان : فليكن اسم الجند الذي أنشأته حديثا ينى جرى ، وإني

أدعو للجيش الجديد بياض الوجه وقوه الذراع ونفاذ السيوف ، وتسديد السهام ، وليكن طالعهم في الحرب ميمونا ، ونهاية قتالهم النصر .

وارتباطا بهذه المناسبة أصبحت قلانس الانكشارية بيضاء وشبيهة بقلنسوة حاجي بكتاش ، وجعلت لها أشـــرطة متدلية تقليدا لكمه الذي تدلى على رأس زميلهم ، ورغم أن هذه الرواية اسطورية ذلك أن حاجي بكتاش قد توفي قبل قرنا من مجرد التفكير في إنشاء الانكشارية ، فإنهم اتخذوه حاميا ورمزا لهم وأصبحوا يسمون انفسهم باولاد الحاج بكتاش وكان لإرشادهم في كل كتيبة عسكرية شيخ بكتاشي يسمى " بابا " يسكن مع الجنود شاهرا سيفه ، ومن هنا أصبح كل نصر يناله الانكشارية يعزى إلى ذلك الشيخ وبركاته ، وليس من شك في أن هذا الارتبطا ساعد إلى حد كبير على تقوية ســـمعة الجيش الانكشـــاري الذي أًبح في نهاية القرن الخامس عشـــر القوة العسكرية الضاربة للدولة العثمانية .

اعتاد الســـلاطين العثمانيون بعد احتلالهم الاقاليم تثبيت حامية من الانكشـــارية في مركز كل ولاية على ان تكون تلك الحامية دائمة وقد ترد من العاصـــمة أحيانا قوات انكشـــارية جديدة لتحل محل الفرق القديمة ، وتكلف القوات الانكشارية كذلك سواء في العاصمة أو في الولايات بوظيفة حماية الأمن وجمع الضرائب ــ وكان " أغا " الانكشارية وهو بمثابة القائد العام للحماية العسكرية العثمانية في الولاية عضـــوا في ديوان الولاية ، وســـلطة الوالي عليه محدودة ، ويعد اوجاق الانكشـــارية من أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا في الولاية ، وقد عرف أوجاق الانكشـــارية بأنه أوجاق السلطان ، ومهمته مساعدة الوالي في تنفيذ أوامر السلطان ، والى جانب الحامية الانكشارية هناك الساهيون ، ويحق للوالي كذلك تشكيل فرق محلية من الأهالي .

أخذ الجيش الانكشاري بالتدهور منذ عهد السلطان مراد الثالث 1574 – 1596 ، حين سمح في سنة 1582 بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم ، بالرغم من معارضة أغا الانكشارية ويبدو أن مراد الثالث كان راغبا في إفساد تنظيم الانكشارية بعد ان أصبحوا يلجأون إلى استخدام القوة للتدخل في شؤون الحكم والحصول على المكاسب المادية ، كما استفادوا من ظروف الصراع الذين كان ينشب بين أبناء السلاطين المتنازعين على العرش ليفرضوا نفوذهم على السلطان ، يضاف إلى ذلك أنهم غادروا ثكناتهم ونزلوا إلى المجتمع وتزوجوا ، وصار الكثير منهم يشتغل بألوان النشاط التجاري والصناعي فارتبطوا بالمجتمع ضعف ارتباطهم بالدولة وقل ولاؤهم فنشأت منهم طبقة خاصة .

لقد لعب الانكشـــاريون دورا خطيرا في تاريخ الولايات العثمانية ومنـها العربية ، إذ ســـاهموا في الفتن الداخلية وكثيرا ما نشـــب القتال بينـهم وبين القوات المحلية ، وأصـــبحت كتائبهم تثير الفوضى وتلح في طلب الهبات السخية والأرزاق الوفيرة ، وقد قاسى الأهالي منـهم الكثير من العنف وضـــجوا بالكوى من تعدياتهم وتزايدت اعباؤهم المالية حتى إنـهم كانوا يبيعون تذاكر رواتبهم وتسـمى " علوفات " وصـارت هذه التذاكر تنقل بالوراثة ، فكان أن دخل الجيش الانكشـارية من لا يتقن صـنعة الجندية على الاطلاق ، ففي أوائل القرن الســادس عشـر لم يكن عدد الانكشـارية يزيد على خمسة عشر ألف جندي ، بينما ارتفع العدد ثلاث مرات في القرن السابع عشر .

حاول بعض الولاة الاعتماد على القوات المحلية إلا ان الانكشـارية ناصـبوا تلك القوات العداء لأنـها تـهدد امتيازاتهم وكان ذلك ســـببا في وقوع بعض الحوادث الدامية في معظم مدن الدولـة العثمانية ، وتاريخ العراق والشـام ومصر على سبيل المثال مليء بحوادثهم وظلمهم ورغبة الناس في التخلص منـهم ، ولقد كثرت مشـاكلهم منذ نـهاية القرن الســابع عشــر ، فقد حاول بعض الولاة التخلص منـهم ووضع حد لـهم وانقاذ البلاد من شرورهم واستطاع بعضهم تأسيس عصبيات حاكمة كما حدث في بغداد والموصل وطرابلس وتونس كما عن بعض القوى المحلية استأثرت بالحكم ومن هؤلاء آل معن في لبنان وآل ظاهر العمر في فلسطين ، وآل الجليلي في الموصل .

أما في العاصــمة اســتانبول فقد أصــبح الانكشــاريون يثيرون الفتن والمتاعب للســلاطين ، فتحولوا إلى أداة هزيمة وتخريب واستمرت تمرداتهم خلال القرن الثامن عشر ، وكان أخطرها تلك التي حدثت في عهد الســـلطان أحمد الثالث 1703 – 1730 حين تمكن الانكشـــارية في الثامن والعشــرين من أيلول 1703 من الســيطرة على العاصــمة وخلع الســلطان وإعدام الصــدر الأعظم واثنين من معاونيه .

إن التدخل في شؤون الحكم جعل الجيش الانكشاري بعيدا عن ممارسة مهامه الرئيسة في حفظ حدود البلاد وحمايتها من الأخطار المحدقة بها وفي الوقت الذي كان فيه الانكشارية يعبثون بمقدرات السلاطين لحقت بالدولة العثمانية في المجال الخارجي طوال القرن الثامن عشر هزائم خطيرة أمم الدول الأوربية مما أدى إلى ظهور اتجاه جديد في الدولة يدعو إلى إيقاف التدهور ، وهو الاتجاه المعروف بحركة الإصلاحات والتنظيمات العثمانية ولقد كان من الطبيعي أن يستهدف الإصلاح في المقام الأول التخلص من الجيش الانكشاري وإنشاء جيش جديد يحل محله ، ولم يحقق ذلك إلا في عهد السلطان محمود الثاني 1808 – 1839

المحاضرة الثامنة : الوضع الاقتصادي والاجتماعي

تبنت الدولة العثماني النظام الزراعي منذ فترة مبكرة من قيامها ، ولئن اختلف المؤرخون حول أصـــول النظام الإقطاعي وطبيعته فإن هناك إجماعا بينهم على ان من أبرز نتائج هذا النظام ظهور طبقة جديدة ارتبطت بالحكام العثمانيين سهلت عليهم احتلالهم وبقاءهم مدة طويلة .

لقد كان الفرســان الإقطاعيون في بادئ الامر يعيشــون في إقطاعتهم ويتصــرفون بأعشــار الأرض الممنوحة لهم إلا ان هذا الأسـلوب سـرعان ما عانى من التدهور ، فصـار الوزراء وندماء السـلطان والمقربون منه يغتصـبون القرى ويوزعونها على أتباعهم ، كما شـاعت طريقة وقف الأراضـي الأميرية ، منذ عهد السـلطان سـليمان القانوني ، مما سـبب نقص التيمارات والزعامات وانقراض أصـحابها ، وثمة عوامل أخرى كانت سـببا في تدهور الأسـلوب الإقطاعي يتعلق بعضـها بطبيعة هذا الأســلوب ويتعلق البعض الاخر بمحاولات الدولة زيادة إيراداتها من الضــرائب ، ففي المسـألة الأولى قضـت طبيعة هذا الاسـلوب بقاء الفرسـان دائما لتحصـيل الضـرائب والرسـوم من الفلاحين والحفاظ على الأمن باعتبارهم سـادة الريق ، وهكذا فإن قيام الحرب يعني تهديد النظام في الدولة العثمانية بسبب استنفار الفرسان للقتال في الجهات المختلفة ، وفي المسألة الثانية محاولة رستم باشا الصدر الأعظم في عهد السلطان سليمان القانوني إدخال أصول الالتزام بدعوى زيادة أموال الدولة ، كما إن مقاضـاة المتلزمين الجدد بدفع ريع الاراضـي التابعة للسـلطان " خواصـي همايون " أدت بالضـرورة إلى خراب هذه الأراضـي لأن هؤلاء الملتزمين كانوا يسـتغلون الفلاحين لتأمين منافعهم باســتحصــالهم الأموال التي دفعوها وبتحقيق ربح خاص لأنفســهم لذلك نلاحظ أن الالتزام أدى إلى تدهور الريف وهجرة الفلاحين إلى المدن فرارا من قســوة الملتزمين فتدهورت الزراعة وعم الاضطراب البلاد ولم يحاول الولاة العثمانيون تطوير الأساليب الزراعية وتنظيم الري الا في القرن التاسع عشر .

لقد بلغ نظام الالتزام أوج تطوره في نهاية القرن السابع عشر عندما منحت الدولة الملتزمين حق الالتزام مدى الحياة ، وكان من نتائج هذا الاسـلوب خلق طبقة بين الدولة والأهالي تتولى جمع الضـرائب والرسـوم وفق عقود خاصـة ترتب بعد إجراء المزايدة عليها بين الملتزمين ويعزى عدم قيام الولاة أنفسـهم بهذه المهمة وخاصـة في الولايات التي تتصـف بيئتها القبلية كالولايات العربية إلى أنها مهمة صعبة تتطلب إرسال حملات عسكرية لمواجهة أفراد العشائر لدى امتناعهم عن دفع الضرائب ويبدو أن الملتزمين كانوا ينجحون في الغالب بتدبير معين بينهم وبين شيوخ العشائر .

يقتسم خلالها الشيوخ نصف ما يتقاضاه الملتزم من الفلاحين ، وقد يلجأ الملتزم إلى الدولة لمساعدته في تحصيل الضرائب فيعامل المدينين للملتزم كما كانوا مدينين للحكومة نفسها .

ظهرت بعض المحاولات لإيقاف تداعي الأسلوب الإقطاعي وفساد نظام الالتزام ، ولكنها جابهت مقاومة عنيفة من مختلف المنتفعين وقد اعترفت الدولة العثمانية بسوء أسلوبها الاقتصادي هذا والفوضى الناجمة عنه ضمن وثيقة تاريخية متأخرة ورد فيها أن الالتزام لم يكن إلا عبارة عن تسليم مصالح الدولة السياسية وأمورها المالية لأحد الناس ، وعلى كل حال فقد تيسر للدولة العثمانية التخلص من الأسلوب الاقطاعي والغاء نظام الالتزام وإناطة جباية الضرائب بالخزينة وقد جاء ذلك ذضمن إصلاحات عامة شهدتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر .

الضرائب :

لم يكن للضرائب العثمانية نظام معين أو حجم معين ، بل كانت تفرض من الملتزمين اعتباطا ، ومع هذا فهناك من حيث الاساس النظري نوعان من الضرائب أولهما : الضرائب الشرعية التي أقرها الفقهاء على مدى الأزمنة ومنها الخراج والعشر والجزية ، إلا ان الولاة توسعوا كثيرا واجتهدوا في جبايتها بحيث أخرجوها عن طابعها الشرعي ، وثانيهما : الضرائب الديوانية التي كان يفرضها السلطان وقت الحاجة مستندا إلى سلطاته العرفية ، وقد نظر الفقهاء إلى هذه الضرائب نظرة استياء وعدوها غير شرعية ، لكن احتجاجاتهم لم تسمع ، لأن حاجة الدولة للمال كانت كبيرة ، وهكذا فرضت ضرائب إضافية على الاشخاص والأراضي والتجارة والحيوانات والمنتجات المختلفة كما كانت تجمع رسوما معينة تهدف إلى تغطية أجور بعض الموظفين ، هذا إلى جانب فرض الخدمات على بعض الأفراد والجماعات مقابل إعفائهم من الضرائب الإضافية ، وسمي مجموع هذه الضرائب بـ (العوارض الديوانية) لأنها صدرت بقرار من الديوان ، وكانت لا تفرض مبدئيا إلا أثناء تعرض الدولة لضائقة مالية ولكن يلاحظ أنها كانت دائمة .

لم يتوقف الأمر عند حدود الضرائب التي تفرض على الناس ، بل كان السلب والنهب للمتاجر ، ومحاصيل الفلاحين شيئا طبيعيا يتم دائما وفي أي وقت ، لقد أدى الارهاق المضني الذي وقع على عاتق الشعب إلى تدني القدرة الشرائية للناس ، هذا بالإضافة إلى ضعف الكفاية الإنتاجية وبالتالي هبوط الصحة العامة للشعب كله ، وانتشار الأمراض والأوبئة وازدياد نسب الوفيات وانتشار الأمية وارتفاع نسبتها .

أما جباية الضرائب فيتم بطرق متعددة ، ففي الطريقة الأولى يقسم السلطان الأقضية في السناجق إلى ما يسمى " عوارض خانة " ويفرض على كل منها نسبة معينة مما فرض على

مجموع القضاء ، وينظر السلطان عند تقدير هذه النسب إلى حالة كل قضاء وسكانه وموارده ، وقد صنف الأفراد على هذا الأساس في طبقات ثلاث ، الغني والمتوسط والفقير ، ولقد كان هذا التنظيم مرنا وإذا تناقص وارد إقليم ما لسبب من الأسباب – قحط أو جفاف أو حالة حرب – فإن بيوتات الضرائب الأخرى في الأقضية تعد نفسها لتسد العجز ، أما الطريقة الثانية التي تجمع بها الضرائب الديوانية فهي ان يقوم أفراد بعض البيوتات الضرائب السالفة الذكر بتقديم خدمات معينة مقابل تلك الضرائب ، وكان معظم تلك الخدمات من النوع الذي يقدم للجيش في حالة الحرب ، وقد تكون مدنية مثل حراسة محطات القوافل أو تأمين حركة البريد والطريقة الثالثة التي كان بيت المال يستفيد بها من الضرائب الديوانية فهي السماح للموظفين بجباية الرسوم من الأفراد مقابل الخدمات التي يقدمونها لهم وكانت تذهب مباشرة لجيوبهم ومثل ذلك السماح للقضاة باخذ رسوم معينة من الأشخاص مقابل إعطائهم وثائق شرعية مثل وثائق الزواج غير أن هذا النظام في الضرائب كان يختلف من ولاية إلى اخرى ، بل ومن سنجق إلى آخر ، ومما يلحظ أن الضرائب في العهد العثماني قد لازمت كل نمط من أنماط الحياة الاقتصادية ، ولكن لا بد من الإشارة إلى ان هذه الضرائب كانت تختلف بالصفة والاسم من مكان إلى آخر بحسب الاختلاف في المنتوجات المحلية ، وفي العادات والتقاليد ، وبخاصة منها الضرائب على التجارة ومن أبرزها ضريبة الباج ، وتدفع على بيع اية سلعة حملة إلى السوق من الإقليم المجاور ، وتختلف كمية الضريبة بحسب طبيعة البضاعة ونوعها ، ولذا فإنها قد ثبتت بتعرفة خاصة ومفصلة ، وتؤخذ هذه الضريبة من البائع ولا يشترك المشتري معه فيها إلا عند دفع رسم القبان ويكمل ضريبة الباج ، ما يسمى (ضريبة الدمغة) وتؤخذ من الصناع على ما ينتجون من صناعات ومن الرسوم المقررة على التجارة كذلك العائدات المسماة جمركا وتفرض على السلع والبضائع المستوردة والمصدرة على حد سواء ، وتؤخذ ضريبة الجمرك على أساس مئوي من سعر البيع المحلي أحيانا ، أو بحسب وزن البضاعة أو حجمها أو نوعية تغليفها (علبة أو بالة) وثمة رسوم جمرك خاصة بالأوربيين الأجانب ، وقد حدد هذا الرسم في الاتفاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأوربية بـ 5 % مبدئيا الا انقص إلى 3 % عندما وقع الانكليز اتفاقهم التجاري مع الدولة العثمانية سنة 1599.

ولقد شاعت في الولايات العثمانية أصناف أخرى من الضرائب منها فرضت على المزروعات والبساتين والعقارات والمراعي والمواشي والإسكلات (محطات رسو السفن) والمعادن ومنتجات البادية ودفن الموتى والأغنام (الكودة) هذا بالاضافة إلى الضرائب التي كانت تفرض على الأسواق وأصحاب الحرف فيها ، فكان البقالون والعطارون والقصابون والخبازون ويدفعون ما

يسمى ب(ضريبة المهنة) وفي دمشق وحدها قدر عدد الرسوم والضرائب في مطلع العهد العثماني بـ(97) رسما وضريبة .

وعلى أية حال فالضرائب العثمانية تعددت واختلفت طرق تحصيلها ، وتنوعت مقاديرها بين سلعة وسلعة ، وولاية وولاية الأمر الذي أدى إلى تذمر الناس من الضرائب والامتناع عن دفعها ، ولقد جرت محاولة لتنظيم الضرائب لما لها من أهمية كبرى في بناء الكيان المالي للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني وذلك في ما يسمى بـــ(القانون نامة) إلا ان تلك المحاولة استهدفت مصلحة الدولة العثمانية بالدرجة الأولى لذلك سيطر الفساد على النظام المالي وأصبح المواطن يتحمل أفدح الاعباء ، وافتقر المشـــرفون على الأعمال المالية من الموظفين والملتزمين وغيرهم إلى الامانة والنزاهة ، فأثروا وحازوا على الأموال والثروات على حساب السكان .

التجارة :

أما التجارة فقد كانت على نطاق ضيق وذلك لتأخر وسائل النقل والمواصلات وانعدام الأمن في الطرقات التي تمر فيها القوافل ، وقد حاولت الدولة العثمانية القضاء على غزوات قطاع الطرق فعملت على إنشـــاء الحصـــون وترميم الموجود منها على طرق القوافل التجارية وطرق الحج ، ولكنها لم تستطع حماية الطرق بشكل كافٍ ، وقد تضافرت هذه العوامل مع عدم الاستقرار السياسي وفقر الشعب العام وانخفاض مستواه المعاشي لتضعف من التجارة وتضيق مساحتها يضاف إلى ذلك إهمال الحكام للموانئ العربية ، والضرائب العديد المفروضة على مختلف البضائع والخانات والأســـواق ، أما التجارة الأجنبية فلم تتضـــرر التجارة الداخلية والســـبب في ذلك المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية منذ أوائل القرن الســـادس عشـــر معطية للأجانب الامتيازات التجارية وأولى هذه المعاهدات تلك التي وقعت في النصـــف الأول من القرن الســـادس عشر بين السلطان سليمان القانوني والملك فرانسوا ملك فرنسا ، ولقد وضعت تلك الاتفاقات التجارة الخارجية في أيدي الجاليات الأجنبية التي حطت رحالها في مختلف المدن والموانئ العربية ، وقد عاش التجار الأجانب الأوربيون في المدن العربية في خانات خاصة وتحت إشراف قناصلهم ، وقد أفسحت تلك التسهيلات المجال لتدفق أعداد كبيرة من التجار الأجانب إلى الولايات العربية ، وبمرور الزمن وخاصة بعد أن ضعفت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ، ظهر الأثر السيء لتلك المعاهدات فقد زادت سلطات القناصل على رعاياهم وأصبح لهم حق المحاكمة وفق قوانينهم وتطور الامر بعد ذلك إلى ظهور محاكم خاصة بهم عرفت بالمحاكم القنصلية ، وسرعان ما انضوى تحت حماية القناصـــل الأجانب عدد من رعايا الدولة العثمانية ، ممن يســـعى للاســـتفادة من تلك

الامتيازات وبخاصة اليهود ، وفعلا سمح في القرون التالية للقناصل بإصدار " براءات " تعطى لبعض من يعمل مع التجار الأجانب من الرعايا العثمانيين حق التمتع به هؤلاء التجار ، وقد ساعد ذلك اليهود على امتلاك زمام التعامل المالي في الدولة العثمانية ، لأنهم كانوا حلقة الوصل بين التجار العثمانيين والأجانب فتكونت بذلك جماعة رأسمالية داخل الولايات العثمانية وفي العاصمة ، تضم أعدادا كبيرة من التجار اليهود الذين لجأوا إلى الأساليب الملتوية للسيطرة على كبار رجال الدولة مثل الرشوة والمؤامرات وهي أساليب نخرت في عظام الدولة كانت سببا من أسباب تدهور الاقتصاد العثماني .

لقد كان من أبرز نتائج الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة العثمانية والدول الأوربية تدفق رؤوس الأموال والشركات والبضائع الأجنبية على الولايات العربية ، ولم تستطع البضائع المحلية والانتاج الحرفي العثماني الوقوف بوجه المنافسة الأوربية ، على الرغم من الدور الذي لعبته الأصناف والطوائف الحرفية في الدولة العثمانية للحفاظ على مستوى الإنتاج .

لم يستطع العثمانيون فهم الدور التاريخي للشعب العربي ولا مركز الوطن العربي الاستراتيجي والحضاري ، فقد عزلوا الولايات العربية عن كل نشاط سياسي وقضوا على حيوية المجتمع العربي وحرموا العرب من أية سمة قيادية وحولوا الوطن العربي إلى ولايات تابعة إلى مركز واحد هو استانبول .

إن الحكم العثماني للمجتمع العربي تميز بالسطحية وعدم القدرة على التغلغل والغوص في أعماق حياة السكن ، بل وقف بوجه كل محاولة ترمي إلى إعادة الحيوية والنشاط للأقطار العربية تجاريا وثقافيا ، كما مارس العثمانيون سياسة إفقار شديدة وكانوا يرون أن من أبرز واجبات إدارتهم تثبيت السلطة وجباية الضرائب من غير أن تقدم الدولة للمواطن أية خدمات ، فلم تول الدولة العثمانية طيلة القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني وحتى القرن التاسع عشر التعليم اهتماما يذكر وظلت انظمة التعليم لا تقوم على اكتساب معلومات جديدة ، وإنما تقتصر على اتقان المعلومات التي ورثها الخلف عن السلف ، هذا فضلا على أن التعليم في العهد العثماني لم يكن يلائم الحاجات الملحة أو مقتضيات التطور ، لذلك فقد رانت على الولايات العربية غاشية الركود والجمود وسادت نزعة وصفات الضعف والرتابة والسذاجة والركاكة والانغلاق .

لقد ظل المجتمع العربي منذ السيطرة العثمانية لا يعني كثيرا بما يجرى في العامل ولم تكن لديه الرغبة في التأثر والتأثير ، وظل الإنسان العربي مغلقا على نفسه داخل الدولة العثمانية ، كما احتفظ كثير من المناطق الدولة العثمانية مثل الموصل وبغداد وشمال العراق وفلسطين ومنطقة

جبل لبنان ومختلف إمارات الجزيرة العربية بتنظيماته القبلية والإقطاعية مما أدى إلى تقوية نزعته إلى الاستقلال.

إن إهمال العثمانيين وتقصيرهم أسهم في مساعدة الأوربيين على الانقضاض على الوطن العربي ، خاصة وإن أوربا كانت تعيش المرحلة الثانية من ظهور الاستعمار ، وهي المرحلة الصناعية التي أعقبت الازدهار التجاري نتيجة الاستكشافات الجغرافية وتحول المجتمع الأوربي الاقطاعي إلى مجتمع صناعي تجاري ، و في هذه المرحلة التي امتدت من أواخر القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر أخذ الأوربيون يتطلعون إلى السيطرة والاستغلال ويبحثون عن المستعمرات لتكون مصدرا للمواد الأولية وسوقا لبضائعهم المصنعة ولما كان الوطن العربي يزخر بالثروات فقد أصبح محط أنظار الدول الاستعمارية .

المحاضرة التاسعة : الدولة العثمانية والقوى المحلية في ولايات المشرق العربي

المماليك في بغداد

أشرنا إلى طبيعة نظام الحكم العثماني ، وذكرنا أن بعض الزعامات المحلية استأثرت منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر على الأقل بالحكم وأقامت أسر حاكمة أو عصبيات محلية وطنية ، ولعل من أبرز القوى التي ظهرت في الولايات العربية المماليك في بغداد والجليليون في الموصل ، والمماليك في مصر وآل الظاهر العمر في فلسطين وآل معن في لبنان وآل العظم في دمشق وآل القرمنلي في طرابلس والأسرة الحسينية في تونس ، وقد قامت بين القوى المحلية في الولايات العربية والدولة العثمانية علاقات تراوحت بين الاستقلال الفعلي في مكان وإقامة شيء من التوازن بين الحكومة المركزية في استانبول والحكومات المحلية في مكان آخر ، ومما يلحظ أن لضعف ارتباطها السلطان في المركز وانحلال عساكر الانكشارية وعجزها وضعف ارتباطها بالثكنات العسكرية واعتماد بعض الولاة على التكوينات العسكرية إبان السيطرة دورا كبيرا في قيام هذه الظاهرة العامة في تاريخ الوطن العربي إبان السيطرة العثمانية ، وسنحاول هنا متابعة التطورات السياسية في بعض الولايات العربية التي حققت نوعا من الاستقلال عن الدولة العثمانية بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر .

1- المماليك في بغداد :

لم تترسخ السيطرة العثمانية في أعقاب الاحتلال العثماني الأول للعراق سنة 1534 وذلك لتجدد واستمرار الأطماع التوسعية الإيرانية فقد استطاع الإيرانيون استغلال العصيان المسلح الذي قام به

بكر صوباشي أحد ضباط الحامية الانكشارية في بغداد سنة 1623 فأعادوا احتلال العراق مرة ثانية سنة 1623 .

إن هذا الاحتلال الذي استمر قرابة 15 سنة واجه مقاومة عنيفة من العراقيين الذي شعروا بالقهر والظلم وقد اتخذت المقاومة أشكالا وأساليب مختلفة ولم يكن مرد هذه المقاومة الولاء العراقي للحكم العثماني بقدر ما كان تعبيرا عن الشعور الوطني للعراقيين ضمن الإطار العثماني أولا ، ولأن هذا الاحتلال يعبر في جانب منه عن العداء التاريخي الفارسي للعرب .

بالرغم من أوضاع الضعف والتدهور التي كانت تعيشها الدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة من سنة 1574 – 1632 وذلك بسبب انغماس السلطان مراد الثالث 1574 – 1595 في حياة الحريم وخضوعه لإحدى زوجاته ، وهي بافو من نبيلات البندقية من جهة ، ومحاولات الانكشارية التلاعب بمقدرات السلطنة والتدخل في اختيار السلاطين من جهة أخرى ، فإن الدولة العثمانية وضعت مسألة طرد الإيرانيين من بغداد في مقدمة اهتماماتها .

فقد أرسلت حملتين عسكريتين الأولى في سنة 1625 والثانية في سنة 1629 إلا أنهما فشلتا لأن مساوئ الباب العالي انعكست عليهما أولا ولافتقار قياداتهما إلى الصرامة والضبط العسكري ، لذلك بدأت الاستعدادات للحملة الثالثة التي قادها السلطان مراد الرابع 1623 – 1640 بنفسه واستطاع في 25 كانون الأول 1638 دخول بغداد ووضع نهاية أبدية للسيطرة الفارسية على العراق بعد عقد معاهدة زهاب الحدودية مع إيران في 17 أيار 1639 والتي تعد أول محاولة لتخطيط الحدود بين الدولتين على أساس عود المناطق والمدن لكل منها أي على شكل مناطق حدود ، واتخذت هذه المعاهدة أساس استندت عليه المعاهدات التالية .

لقد كانت مشاركة العراقيين في الحرب ضد إيران واضحة فعندما زحفت الحملة الأولى مثلا ساهمت 29 قرية في شهر زور وحدها في القتال ، كما اشتركت قبائل عربية في القتال وتزويد الجيش العثماني بالرجال والمؤن ، فمطلك ابو ريشة شيخ عرب الجزيرة قدم لحملة مراد الرابع عشرة آلاف بعير وهي عبارة عن مؤن وصفها المؤخرون بأنها عظيمة .

لم يعقب الانتصار العسكري العثماني أي إصلاح لأوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة ، وظلت الأمور على ما كانت عليه من الاضطرابات العشائرية والتمردات الانكشارية والأزمات الاقتصادية واستمرار الأطماع الإيرانية ، لذلك أصبح الولاة يفكرون في الاعتماد على قوات محلية لمواجهة تمردات العشائر الانكشارية ، فكلفهم ذلك كثيرا ، واضطر بعضهم في سبيل جمع المال إلى رفع قيمة الضريبة والتلاعب في النقد ، وزادت حالة الفوضى وعدم الاستقرار حتى

افراسياب وكان كتابا من كتاب الجند في البصرة استطاع في سنة 1596 أن يشتري حكم البصرة من واليها العثماني ، ويؤسس فيها اسرة حاكمة امتدت إلى سنة 1662 فألقى بذلك على كاهل والي بغداد مهمة استعادتها كما أصبح من واجب باشا بغداد اخماد الحركات العشائرية التي نشبت في شمال العراق وجنوبه .

حقا كان العراق في حاجة إلى وال قوي يستقر فيه ليضع خطة معينة لمعالجة مشكلاته وإنقاذه من التدهور الذي أصبح يعانيه خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر ، وقد تيسر للعراق مثل هذا الحاكم إذ صادف أن تولى حكم غداد سنة 1704 حسن باشا وكان من الولاة القديرين الذين عملوا في ولايات حلب وأورفه وقونيه وديار بكر قبل تعيينه واليا على بغداد ، وبتعيين حسن باشا يبدأ عهد جديد في تاريخ العراق الحديث ، لما لهذا الوالي من دور واضح في تأسيس أسرة حاكمة في العراق عرفت بحكومة المماليك " الكوله مند " قدر لها أن تصل إلى السلطة في سنة 1749 وتستأثر بالحكم حتى سنة 1831 فكيف تأسست هذه الأسرة الحاكمة وما علاقتها بالدولة العثمانية ؟

أدت الحروب مع إيران ومشكلات العراق العشائرية وتمردات الانكشارية إلى اهتمام حسن باشا الذي حكم العراق بين سنتي 1704 – 1723 وابنه أحمد بعده بتكوين قوة عسكرية جديدة بعد أن فسدت القوات الانكشارية وصارت عبئا على السكان والبلاد ، وقد شكل حسن باشا هذه القوة من المماليك الذين كانوا يجلبون من تفليس والقوقاز ، ونظرا لانحلال قوة الانكشارية لأن هؤلاء المماليك كانوا يربون تربية عسكرية وإدارية فإنهم أصبحوا قادرين على حكم البلاد ، وقد تسلم أحدهم وهو أبو ليلة ولاية بغداد بعد وفاة أحمد باشا بن حسن باشا سنة 1747 .

استطاع سليمان ابو ليلة ترسيخ سيطرة المماليك على الحكم في العراق ، وقد ساعده على ذلك أن الأهالي كانوا يرون ان المماليك أقرب إليهم من الأتراك حيث إنهم كانوا يعيشون بينهم ، ولم يكونوا كولاة الأتراك غرباء عن أهل البلاد ، أما عهد خليفته عمر باشا فقد تميز بظاهرتين : الأولى غزو إيران للعراق سنة 1775 – 1776 والثانية وضوح المصالح البريطانية في العراق وقد حاول الباب العالي استغلال هاتين الظاهرتين للتخلص من المماليك ولكن دون جدوى .

لقد اشتهر سليمان باشا الكبير بسبب جهوده المضنية في الدفاع عن البصرة ضد العدوان الإيراني حين كان متسلما لها وكذلك لمحاولاته تحقيق الاستقرار والقضاء على تمردات عشائر الجنوب وهجمات الوهابيين التي حدثت خلال سني حكمه الطويلة ، وقد حظي سليمان باشا الكبير بتأييد العراقيين ، وبالنظر لأنه كان مخلصا في الحفاظ على روابط العراق بالدولة العثمانية فقد تخلت الدولة مؤقتا في عهد هذا الوالي عن محاولاتها لإقصاء المماليك عن الحكم ، إلا ان سياسة الباب

العالي سرعان ما تغيرت إزاء مماليك العراق بعد وفاة سليما باشا الكبير ويرجع ذلك التغير إلى ارتفاع مكانة العراق الدولية وأثر ذلك في التطورات السياسية في استانبول ، إذ إن سليما باشا الكبير 1808 – 1810 كان على علاقة قوية بالفرنسيين لذلك حظي بدعم السفير الفرنسي في استانبول الجنرال سباستياني عين سفيرا في 2 أيار 1806 ، ومما يلحظ أن النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية قد اقترب من ذروته في |أعقاب صلح أميان بين بريطانيا وفرنسا سنة 1802 وانتصار نابليون على الحلف الأوروبي في معركة اوسترلتز وغيرها لذلك انحاز السلطان العثماني إلى جانب نابليون وعقد معه حلفا ضد انكلترا وروسيا ، ولكن العلاقات تدهورت بعد ذلك بين السلطان محمود الثاني 1808 – 1839 ونابليون بسبب معاهدة نلست التي بدا فيها واضح ان نابليون تخلى عن الشرق الأدنى الغربي لمطامع روسيا ، وقد ادى ذلك إلى عزل الوالي سليمان باشا الصغير سنة 1810 ، وقد استفادت بريطانيا من تلك الظروف ، فبدأت تعمل للقضاء على النفوذ الفرنسي في العراق واتخاذ الإجراءات المناسبة لتقوية نفوذها لذلك عينت في بغداد مقيما جديدا شديد الطموح وهو كلوديوس جيمش ريتش ليخلف المقيم هارفورد جونز بريديجس سنة 1808 وكان ريتش على اتصال وثيق بالسفير البريطاني في استانبول ، ويبدو أن هذا السفير بما كان يمثله من أرجحية لدى الباب العالي لعب دورا كبيرا في عزل سليمان باشا الصغير إذ لم يكن من مصلحة الانكليز بقاء باشا موال للفرنسيين في بغداد .

لقد أدى خلع سليمان باشا الصغير إلى ظهور الانقسام الشديد بين المماليك أنفسهم ، ولقد استطاع أحدهم وهو داوود باشا من الوصول إلى الحكم بعد سلسلة من الصراعات والمؤامرات ضد منافسيه ، لقد ورث داوود باشا 1817 – 1831 مشكلات كبيرة لعل من أبرزها التمردات العشائرية وتزايد النفوذ البريطاني في العراق كما واجه غزوا فارسيا للعراق بين سنتي 1820 – 1822 وبعد أن تمكن داوود من إخضاع العشائر الثائرة ومنا عشائر بين تميم والدليم وشمر الجرباء انصرف لمعالجة الخطر الإيراني الذي بدأ يقترب من العراق حين أخذ الجيش الإيراني يتحرك من كرمنشاه نحو العراق ، وقد استطاع داوود باشا بالطرق الدبلوماسية عقد معاهدة ارضروم الأولى مع إيران في 28 تموز سنة 1823 والتي أعادت تأكيد الخطوط العامة لمعاهدة زهاب ، وأهم ما تمخضت عنه هذه المعاهدة هو الاحتفاظ بالوضع القائم على الحدود العثمانية – الإيرانية ، وإمساك كل طرف من التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر ، كما تعهدت الحكومة الإيرانية بإعادة جميع ما استولت عليه من قلاع وأراضٍ وقرى ومدن عراقية خلال شهرين .

ومما يلحظ أن هذه المعاهدة لم ترسم الحدود بدقة علمية ، ولم تضع طريقة مفصلة لحدود الدولتين ، فكان طبيعيا أن يعود الصراع ثانيا ، وتتجدد قضية الحدود مع إيران وتصبح من المشكلات المعقدة التي واجهها العراق الحديث .

واجه داوود باشا نفوذا بريطانيا متزايدا في بغداد أواخر سني حكمه ، فقد اصطدم بالمقيم السياسي البريطاني ريتش الذي كان يعمل لإدخال العراق ضمن منطقة النفوذ البريطانية ، وذلك بعد انفراد بريطانية بالسيادة في الخليج العربي في أعقاب حملتها البحرية على المشيخات العربية في ساحل الصلح ومسقط في سنة 1809 ثم في سنة 1819 وفرضها المعاهدات المعروفة مع البحرين ومسقط والمشيخات المذكورة ، وفوق ذلك فأهمية العراق كعقدة مواصلات بدأت تتضح منذ قيام الفرنسيين بغزو مصر سنة 1798 .

لقد سعى المقيم السياسي البريطاني إلى خلق صراع مع الوالي داوود باشا ومن ذلك تحريض الناس ضده ، وعقد صلات وثيقة ببعض التجار والوجهاء وترحيض محمود بابان حاكم السليمانية على الانفصال ، وسرعان ما تطورت الأمور إلى صراع مسلح وحصار للمقيمية البريطانية بعد ان قرر داوود باشا زيادة نسبة الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع الانكليزية من 3 % إلى 11 % فاعتراض ريتش على هذا الإجراء الذي يتنافى مع ما قررته معاهدات الامتيازات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدولة العثمانية مع الدول الأوربية .

اضطر داوود باشا إلى طرد ريتش من بغداد ، لكن ردود الفعل البريطانية على ذلك كانت قوية إذ أوقفت الحكومية البريطانية التجارة مع العراق مما كبده خسائر فادحة قد كانت التجارة الهندية البريطانية أهم ممول لخزانة بغداد ، وإزاء ذلك تراجع داوود باشا ووقع على اتفاقية وصفها المؤرخون بأنها أكدت نفوذ الانكليز في العراق وحافظت على امتيازاتهم الاقتصادية ، وتنص تلك الاتفاقية على التزام باشا بغداد بكل الفرمانات والاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا والدولة العثمانية وتحديد الرسوم الجمركية ب3 % فقط . وعدم فرض أية رسوم جديدة ، كما وطد داوود باشا علاقته بالمقيم السياسي البريطاني الجديد المستر تايلور ومما ساعد على هذا التقارب التفرق البريطاني على فرنسا في ميدان التنافس الدولي في مجال خطوط المواصلات العالمية وعناية الانكليز ، بشكل خاص ، بطريق العراق وظهور فكرة شق قناة مائية بين دجلة والفرات لربط النهرين واستخدامها في الملاحة التجارية ، ولكن الظروف لم تسمح لداوود باشا في تنفيذ هذا المشروع بالتعاون مع الانكليز إذ عن السلطان محمود الثاني قرر القضاء على حكم المماليك في العراق ضمن إطار سياسته

المركزية القائمة على إعادة الحكم المباشر إلى ولايات الدولة العثمانية ، وقد تحقق ذلك في 14 أيلول 1831 وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العراق الحديث .

المحاضرة العاشرة : الدولة العثمانية والقوى المحلية في ولايات المشرق العربي

الجليليون في الموصل :

أما في الموصل فقد استطاعت اسرة آل عبد الجليل العربية المعروفة بالنفوذ والثراء الواسع السيطرة على مقدرات المدينة ، بعد ان قدمت للعثمانيين خدمات جلى إبان حروبهم المتعددة مع الإيرانيين ، وقد تميزت ولاية الموصل خلال فترة حكم الجليليين الممتدة من 1726 إلى 1834 بشخصية محلية واضحة المعالم ثقافيا واجتماعيا وعمرانيا وسياسيا واقتصاديا ، وبرز من حكامها ولاة عديدون لعل من أبرزهم الحاج حسين باشا الجليلي 1730 – 1757 وكان لنجاح الحكم الجليلي في دفع الخطر الإيراني والحيلولة دون امتداده نحو الشام والأناضول أثر كبير في تقوية مركز الأسرة الجليلية لدى الباب العالي من جهة والتفاف الموصليين حولها من جهة أخرى .

واجهت الأسرة الجليلية ظروف الانقسام والتنافس بين أفرادها بعد وفاة الحاج حسين باشا الجليلي وقد أدى الانقسام في بعض الاحيان إلى أن تشهد شوارع الموصل أزيز الرصاص ودوي القنابل ، ومع ذلك فقد حافظت الأسرة الجليلية على سمعتها في استانبول نتيجة لاستمرارها في الوفاء بالتزاماتها المالية للباب العالي من جهة ، واستعدادها للمساهمة في الحملات العثمانية الموجهة لإخماد انتفاضات العشائر العربية والكردية من جهة أخرى .

لقد حاول بعض الولاة المماليك في بغداد التدخل في شؤون الموصل وفرض سيطرتهم عليها ، وإبعاد الجليليين عنها إلا انهم فشلوا في ذلك وفي الوقت نفسه ، فقد تعاون الجليليون مع حكام السليمانية من آل بابان ضد محاولات ولاة بغداد التدخل في شؤونها خلال السنوات الممتدة من 1810 وحتى 1813 وعندما تولى داوود باشا حكم المماليك في بغداد سنة 1817 أصبح لمماليك بغداد نفوذ قوي في الموصل بعد الثورة الشعبية التي نشبت ضد الجليليين في سنة 1826 وقادها العمريون بسبب احتكار الوالي يحيى باشا الجليلي للحنطة وخزنها وبيعها بأسعار باهظة للناس ، الأمر الذي جعل المدينة تعاني من ضيق اقتصادي شديد ، وقد نجح الثوار في طرد يحيى باشا الجليلي إلا ان ذلك لم يدم طويلا إذ عاد يحيى باشا الجليلي إلى حكم الموصل بقوة سلاح داوود باشا ولم يرض الموصليون عن ذلك ، إذ ثروا ثانية سنة 1828 وتزعم قاسم العمري الثورة ضد الجليليين ، وقد

كتب الثوار إلى الباب العالي يلتمسون منه المصادقة على تولية قاسم العمري حكم الموصل فوافق الباب العالي على ذلك وصدر الفرمان السلطاني بتوجيه ولاية الموصل إليه ، ولكن داوود باشا لم يكن مقتنعا بهذا التعيين بيد أنه اضطر إلى القبول بالأمر الواقع ، ولا شك أن تولية قاسم العمري كانت من الخطوات الأولى التي اتخذها السلطان محمود الثاني للقضاء على العصبيات والأسر الحاكمة والعمل على تطبيق النظام المركزي المباشر ، وحين قرر السلطان القضاء على الحكم المملوكي استعان بقاسم باشا العمري الذي زحف على رأس طليعة من الجيش العثماني نحو بغداد ولمساعدة القائد علي رضا باشا في خلع داوود باشا ، وخلال عملية اقتحام المدينة لقي قاسم العمري مصرعه .

حاول يحيى باشا الجليلي وكان منفيا في حلب منذ سنة 1828 العودة إلى حكم الموصل بعد أن سمع بمصرع قاسم العمري فتحالف مع صفوك شيخ عشائر شمر الجربا وألف قوة عشائرية قوامها أربعة آلاف مقاتل واحتل الموصل سنة 1832 وقيل إنه استولى عليها بأمر من إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر الذي كان يعمل على ضم العراق والشام لتكوين دولة عربية موحدة ، إلا ان علي رضا باشا تحرك سريعا وكلف القائد العثماني محمد اينجة بيرقدار بمهمة إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على الموصل والقضاء نهائيا على الأسرة الجليلية ، كما حرض عشائر عنزة للعمل ضد التحالف بين يحيى باشا الجليلي والشيخ صفوك ، وبسهولة كبيرة استطاع محمد اينجة بيرقدار من دخول الموصل والقبض على يحيى باشا الجليلي وإرساله إلى استانبول ، ومما ساعد بيرقدار على تحقيق مهمته أن اسرة آل عبد الجليل فقدت شعبيتها في المدينة ولم يعد الأهالي يرغبون في استمرارها في الحكم ، كما إن الجيش المصري لم يكن متفرغا لجبهة العراق آنذاك وإنما كان مشغولا بالتقدم نحو الأناضول .

اسندت ولاية الموصل إلى رجل موصلي هو محمد سعيد آل ياسين ، ويبدو أن علي رضا أدرك أن إسناد الحكم إلى باشا تركي قد يثير هناك متاعب عديدة ، إذ اعتاد الأهالي منذ زمين طويل على أن يكون حاكمهم من بينهم ، هذا بالإضافة إلى ان اختيار حاكم من أسرة آل ياسين يحول دون الصدام بين الاسرتين الجليلية والعمرية اللتين تنافستا ، كما سبق أن قدمنا على الحكم ولكن محمد سعيد كان حاكما ضعيفا ، وتجلى ضعفه في عدم قدرته على وقف توسع محمد باك ميركور حاكم راوندوز ، لذلك صدر فرمان سلطاني بتعيين محمد اينجة بيرقدار واليا على الموصل وكلف كذلك بمهمة إعادة الحكم العثماني المباشر إلى المنطقة الكردية والقضاء على الإمارات المستقلة فيها .

يعد محمد اينجة بيرقدار أول من عمل على تطبيق نظام التجنيد الإجباري والتدريب الحديث في الموصل طبقا لسياسة السلطان محمود الثاني وكان قضاؤه على جيش الانكشارية وإحلال الجيش النظامي محله فاتحة أعماله ثم وطد الأمن في الولاية وشرع بإدخال الإصلاحات الحديثة ، وقد اشتهر محمد اينجة بيرقدار في الموصل بهمته وسعيه في تعمير دور الحكومة ، إذ شيد الثكنة العسكرية والمستشفى العسكري واهتم ببناية معمل لصنع المدافع والقنابل والبارود وكان يهدف من وراء ذلك ، إعداد الموصل عسكريا لتكون قاعدة من قواعد الهجوم على القوات المصرية في الشام والحيلولة دون ضم العراق إلى مصر ، وبعد حكم دام حوالي تسع سنوات توفي بيرقدار في الموصل سنة 1843

المحاضرة الحادية عشر : الدولة العثمانية والقوى المحلية في ولايات المشرق العربي

آل ظاهر العمر في فلسطين و آل معن في لبنان ول العظم في سوريا :

آل ظاهر العمر في فلسطين :

وفي فلسطين ظهرت بضعة قوى محلية إلا ان من أبرز هذه القوى الشيخ ظاهر العمر ، فقد استطاع هذا الشيخ البدوي سنة 1737 وكان يعمل حاكما على صفد أن يوسع ممتلكاته وذلك بضم طبرية ونابلس ويافا والناصرة ، كما استولى على عكا سنة 1750 وجعلها عاصمة له واحتل مرفأ صيدا سنة 1770 بعد ان تحالف مع المتاولة في جبل عامل وهم عشيرة كبيرة في لبنان . وقد صرف النظر عن مدينة بيروت أن أميرها منصور الشهابي استرضاه بالمال .

إن مما ساعد ظاهر العمر على تحقيق طموحه في الاستقلال عن الدولة العثمانية تحالفه مع علي بك الكبير حاكم مصر المملوكي الذي لم يتوان بعد احتلال الشام عن تقديم المساعدات العسكرية لظاهر العمر ، كما نال مساعدة الأسطول الروسي الذي وصلت بعض قطعاته سواحل الشام في 1773 .

عندئذ استعانت الحكومة العثمانية بيوسف الشهابي حاكم جبل لبنان للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته التوسعية على حساب السلطة العثمانية في الشام ، كما أوعزت للقائد العسكري أحمد باشا الجزار الألباني بالقضاء على حكم ظاهر العمر ، وتحركت من استانبول في الفترة ذاتها نجدة بحرية تمكنت بمساعدة قوتي الشهابي والجزار من احتلال صيدا سنة 1775 ومحاصرة عكا ، وخلال الحصار قتل ظاهر العمر وبذلك عادت السيطرة العثمانية المباشرة على فلسطين ، وعين العثمانيون أحمد باشا الجزار واليا على المنطقة الممتدة من صيدا إلى عكا وقد عمد الجزار إلى بناء اسطول بحري وجيش من المشاة بلغ عدده قرابة ألف جندي ، كما أصدر قراره باحتكار بعض المرافق التجارية في منطقته لتغطية نفقات ولايته الضرورية ، وظل يحكم المنطقة قرابة ثلاثين سنة ، وقد

بلغ أوج مجده سنة 1799 حين نجح في إنقاذ عكا من حصار الفرنسيين لها وإيقاف زحف نابليون بونابرت وإبعاده عن الشام .

آل معن في لبنان :

أشرنا فيما سبق إلى أن السلطان العثماني سليم الأول أبقى سنة 516 الأمير فخر الدين المعني الأول في إقطاعية الشوف في جبل لبنان ، واعترف بكل امتيازاته المتوارثة في إدارة منطقته وفق تقاليد أجداده التي ترجع إلى عهد المماليك ، وقد اشترط السلطان سليم على الأمير فخر الدين دفع جزء من الضرائب التي يحصلها لخزينة الدولة ولم يكن هذا الوضع استثنائيا في جبل لبنان كما يشير المؤرخ وجيه كوثراني ، وإنما كان سياسة تقليدية سارت عليه الدولة العثمانية في مراحل سيطرتها الأولى على الوطن العربي موجودة وخاصة في المناطق الجبلية المعقدة فقد ارتكزت الإدارة العثمانية إلى الزعامات المحلية التقليدية المتعاونة معها في بعض المناطق العربية ولم تحاول الغاءها ، وإنما حافظت على وجودها مستكينة بأن قوة الدولة ضمن الإطار العثماني ، إلا ان هذه الزعامات المحلية بدأت تتحرك منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر حين ضعفت الدولة العثمانية وانشغلت بحروبها الطويلة على الجبهتين الإيرانية والنمساوية ، ففي جبل لبنان سعى الأمير فخر الدين المعني الثاني المعروف بالكبير 1572 – 1635 إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية محاولا تأسيس دولة قوية تضم لبنان وسوريا وفلسطين .

لقد استطاع امير الشوف فخر الدين المعني الثاني وكان سياسيا ماهرا أن يغدو بحق الأمير الكبير ، على مقاطعات تخطت حدودها منطقة جبل لبنان ووصلت إلى شمالي سوريا وداخل فلسطين وأبواب دمشق ، وهذا التوسع الكبير خارج إطار جبل لبنان جعل مشايخ المنطقة والبيوتات الارتسقراطية الدرزية والمارونية وغيرهما يدينون بالولاء له وأصبحوا يلتزمون بدفع الضرائب المترتبة عليهم له لقاء إداراتهم شؤون مقاطعاتهم ، كما اتصل الأمير بدولة توسكانيا الايطالية وعقد معها اتفاقية سرية سنة 1608 تقتضي بتزويده بالمعدات والقطع البحرية ، وقد تصرف لإنشاء الحصون وتقوية جيشه الذي بلغ تعداده آنذاك 40 ألف مقاتل .

إن ذلك الاتجاه الاستقلالي أدى إلى حدوث صراع شديد بين الأمير فخر الدين ووالي دمشق ، ففي سنة 1613 طلبت الدولة العثمانية من والي دمشق أحم حافظ باشا التوجه نحو جبل لبنان والقضاء على الأمير فخر الدين ، كما اوعزت إلى ولاة حلب وديار بكر وطرابلس بمؤازرة والي دمشق في مهمته ، وتألفت قوة قوامها ثلاثون ألف مقاتل ، وقد استطاع الامير فخر الدين الصمود أمامها قرابة تسعة أسهر اضطر بعدها إلى مغادرة حلب إلى إيطاليا وبعد خمس سنوات صدر العفو

عنه ، حين تسلم العرش العثماني عثمان الثاني 1618 – 1622 فعاد إلى لبنان ، ولم يكد يسترجع ممتلكاته حتى صار يعني بها ، ووضع خطة لتطويرها اقتصاديا ويشجع التجارة الخارجية واندفع في تحديث البلاد وأرسل مجموعة من الشباب للدراسة في إيطاليا ، ثم أعلن التمرد على الدولة العثمانية سنة 1635 إلا انه فشل وتمكن العثمانيون من شنقه .

لقد عاد الحكم العثماني المباشر إلى جبل لبنان ، لكن العثمانيين استعانوا بالأمراء الشهابيين الذين خلفوا المعنيين في الوفاء بالتزامات المنطقة المالية تجاه الدولة العثمانية ، وقد ساءت أوضاع البلاد وتدهور اقتصادها عبر الحملات العسكرية العديدة التي شنها الولاة العثمانيون على بقايا المعنيين ، فقد عمد احمد باشا الكوبرلي والي دمشق إلى تشريد العديد من العوائل عن ديارها وقطع نحو من خمسين ألف شجرة توت ، كانت تمثل مصدر ثروة للبلاد ، وقد استمرت هذه الأوضاع القلقة حتى بروز زعامة الأمير بشير الثاني الشهابي الذي تولى صيدا ومد نفوذه حتى أصبح السيد المطاع في الديار الشامية .

لقد تعاون الأمير بشير الشهابي مع محمد علي إبان سيطرته على بلاد الشام سنة 1821 قد التحق مع إبراهيم باشا بن محمد الف مقاتل لبناني احتل بهم طرابلس كما اشترك الشهابيون في قمع العديد من الانتفاضات التي حدثت ضد إبراهيم باشا في عكا وصافيتا وجبال النصيرية سنة 1832 .

إن انهيار حكم محمد علي باشا في بلاد الشام كان إيذانا بنهاية الأمير بشير الشهابي ، ففي 10 تشرين الأول 1840 هزمت القوات المصرية في معركة " بحر صاف " بالمتن ولم يمض يومان حتى غادر الأمير بشير الشهابي بيت الدين إلى صيدا ومن ثم إلى منفاه في مالطا .

وفي مؤتمر لندن في 15 تموز 1840 الذي كرس للبحث في مصير الحكم المصري في الشام ، وحضره كل من ممثلي الدولة العثمانية والنمساوية والروسية والانكليزية ، وقع الاختيار على الأمير بشير الشهابي الثالث ، ليكون حاكما على لبنان وفي 3 أيلول 1840 صدر فرمان سلطاني بذلك ، وكان الأمير بشير الثالث معروفا بالضعف وعدم الكفاءة ، لذلك استخدم لتنفيذ سياسة الدول الأوربية الكبرى ومصالحها في لبنان ، وقد مهدت تلك الظروف إلى إفساح المجال للدولة الأجنبية للتدخل في شؤون البلاد الداخلية وإثارة النعرات الطائفية بين الموارنة والدروز .

أما الأمير بشير الشهابي فقد أرسل من منفاه في 27 اذار 1841 رسالة إلى اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا يلتمس فيها إعادته إلى حكم البلاد إلا ان بالمرستون أجاب على ذلك في 29 نيسان 1841 مشيرا إلى موقفه من الحكم المصري طالبا منه أن يتحمل مسؤولية عمله ، وفي 16 كانون الثاني 1842 سقط الشهابيون تحت وطأة المشاكل الطائفية التي أججتها القوى الاستعمارية

الأوربية ، فكانت هذه فرصة للعثمانيين أعادوا فيها حكمهم المباشر إلى لبنان فأقالوا بشير الثالث من منصبه وعينوا عمر باشا حاكما على الجبل ، إلا ان ذلك لم يدم طويلا فقد وقعت اضطرابات طائفية دامية كان أشدها هولا ما حدث من مذابح سنة 1860 في دير القمر والشرف والمتن والبقاع وزحلة وغيرها ، الأمر الذي أدى إلى تدخل الدول الأوربية وفي مقدمتها فرنسا التي أرسلت قطعا من أسطولها الحربي إلى الساحل اللبناني ، عندئذ اضطرت الدولة العثماني إلى الاعتراف سنة 1861 باستقلال جبل لبنان بموجب نظام إداري طائفي خاص .

آل العظم في سوريا

أما في سوريا فقد حدث تطور مشابه لما حدث في بعض الولايات العربية الأخرى ، إذ اشتد الصراع بين الانكشارية والقوى المحلية وكان من الخطر استمرار هذا الصراع والفوضى الناجمة عنه ، لأن ذلك يسيء إلى السلطان العثماني ، حيث عن دمشق كانت آنذاك مركزا لتجمع قوافل التجار والحجاج والتي كثيرا ما تتعرض لسلب عشائر بادية الشام ، لذلك عزل السلطان الوالي المسؤول عن تلك الفوضى وهو نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام بين 1709 1715 ، وقد حكم دمشق بعد نصوح باشا ولاة عديدون لم يشتهر أي منهم وكان آخرهم عثمان باشا الذي حكم بين 1723 و1725 وقد عرف بالظلم ومارس أعوانه الابتزاز فنقم عليه الدمشقيون واضطر السلطان إلى عزله في أواخر آذار 1725 وتعيين إسماعيل باشا العظم مكانه في آذار 1725 وكان معروفا بالعدل فأحبه الناس ، وقد استطاع السيطرة على دمشق مستعينا بجنده من المغاربة العرب والمماليك البوشناق ، وأسرة العظم عربية من قبيلة معن هاجر أحد رجالها واسمه عزيم إلى قونية في الأناضول ومنها قدم أحفاده إلى سوريا بعد استيلاء السلطان سليم عليها ، فكان منهم ولاة ومتصرفون ، وقد احرزت الكثير من الأراضي والمزارع ووسعت أوقافها الذرية والخيرية في دمشق وغيرها من المدن السورية ، هذا وقد استمرت أسرة آل العظم في حكم دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ومما ساعدها على ذلك حاجة الدولة إليها للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته الاستقلالية

المحاضرة الثانية عشر : سياسة محمد علي تجاه المشرق العربي ،

أثارت سياسة محمد علي باشا في مصر مخاوف السلطان العثماني محمود الثاني (1808 – 1829) وسخطه ، لأنها محفزة لسكان ولايات الدولة على الأخذ بوسائل التقدم ، ومشجعة على الاستقلال بولاياتهم ، لهذا أظهر السلطان عدم رضاه من سياسة محمد علي باشا ، غير أن محمد علي باشا استمر في تحقيق سياسته التي أملتها عليه ظروف مصر وتطلعاته الشخصية وطبعتها بطابع الحرص على صفوف العرب ، وقد تجلت هذه السياسة في قلق حكومة مصر من تطور العمليات العسكرية البريطانية ضد إمارات الخليج العربي والبحرين بوجه خاص ، ولشدة ما أبدته الحكومة المصرية من حرص على المصلحة العربية وتمسك بحقوق العرب اعتقد الدبلوماسيون

الأوربيون أن السياسة المصرية تهدف إلى إحياء الدولة العربية القومية الموحدة ، ولقد انعكس هذا الاعتقاد في الكثير من الوثائق والتقارير التي أعدها أولئك الدبلوماسيون وقدموها إلى حكوماتهم ، ويبدو أن أحاديث وتصريحات محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا تشكل الأساس الذي ارتكزت عليه تلك المعتقدات ، فقد أوضح محمد علي باشا أهدافه بصراحة في حديث له مع الجنرال الفرنسي بواييه 1825 م قائلا : ((إنه سيعمد إلى تجنيد كتائب جديدة في جيشه ... ثم يضع يده على أراضي الشام ... ولا يقف بهذا الجيش إلا على ضفاف دجلة والفرات)) مضيفا أنه ((سيستولي على بلاد اليمن ومضيق باب المندب ويحتل ميناء سواكن على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وإن جيوشه ستملأ الجزء الاوسط في بلاد العرب وترفع أعلامها في سماء القطيف عند الخليج العربي .

لقد بعث الجنرال بواييه إلى باريس بلك الأفكار التي صارحه بها محمد علي وهي أفكار تتوافق مع ما كان يقوله ولده إبراهيم باشا حين أجاب على سؤال يتعلق بالمدى الذي ستصل اليه جيوشه قائلا : ((إلى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس اللغة العربية)) .

أما بالمرستون وزير خارجية بريطانيا فقد كتب إلى حكومته في ربيع سنة 1833 يقول : ((إن الهدف الحقيقي لوالي مصر هو تاسيس مملكة عربية تضم جميع البلدان الناطقة باللغة العربية)) وقد ذكر المبعوث النمساوي في تقرير له إلى حكومته في 17 ايار 1833 أنه خلال مقابلته لمحمد علي باشا في الاسكندرية اطلع على الخطوط العامة لسياسة محمد علي باشا وتتلخص بإقامة امبراطورية عربية تشمل مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية والشام والعراق .

إن تفكير محمد علي باشا ببناء دولة حديثة قاده بالضرورة إلى تتبع الارتباطات الستراتيجية لمصر بالاطراف المحيطة بها بمجملها عربية وأبرزها :

1- **ارتباط مركز مصر (الستراتيجي) بالسودان وبنهر النيل واحتمال تهديد هذا المركز في حالة سيطرة دولة أخرى على السودان وتحكمها في نهر النيل .**
2- **وقوع مصر على البحر الاحمر والخوف من امتداد النفوذ البريطاني إليه .**
3- **أهمية بلاد الشام والشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، ولكونها جبهة مصر الشمالية وممر الخطر العثماني إلى مصر .**

كان محمد علي باشا يرى في بريطانيا الخطر الذي يهدده من جهتي السودان والبحر الأحمر والجزيرة العربية ، كما أن بريطانيا بقيت تتحين الفرص لاحتلال مصر واستعمارها بعد أن أخافها

نشـــاط محمد علي باشـــا في نقل مظاهر التطور الحضـــاري الاوربي إلى مصـــر وتفكيره في تحويل الوطن العربي إلى مركز قوة لما يتمتع به من مزايا ستراتيجية واقتصادية وحضارية .

في البدء حاول محمد علي باشا التوجه نحو المغرب العربي عبر طرابلس وتونس حتى الجزائر ومراكش ، ويبدو أن فرنسا شجعته على ذلك ، إذ اقترح عليه قنصلها دروفتي أن ((يولي وجهه شطر افريقيا الشمالية فيفتحها وينشئ فيها امبراطوية كبيرة تمتد على طول شواطئ المتوسط الجنوبية الغربية ، من مصر إلى المحيط الاطلسي)) وعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله : ((ولم تكن فرنسا ولا شك تبغي بذلك مصلحة محمد علي باشا فقط بل كانت تبغي مصلحتها كذلك ، إذ كانت تطمع في مشاركته في هذه الحملة وبالتالي في نتائجها السياسية والاقتصادية حيث يمنح محمد علي باشا فرنسا امتيازات في امبراطوريته العتيدة)) لقد رفض محمد علي باشا الفكرة الفرنسية لأنه أراد أن تكون حملته عربية اسلامية بحتة وفضلا أن يعود إلى قراره الأساس وهو التوجه أولا نحو المشرق العربي .

المحاضرة الثالثة عشر : نشاطه محمد علي باشا في الجزيرة العربية والخليج العربي

بدأ محمد علي باشـا بالجزيرة العربية مستغلا استغاثة السلطان محمود الثاني به لمساعدته في القضـــاء على حركة الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب (1703 – 1792) المتحالف مع أمراء الدرعية من آل سعود سنة 1745 بعد أن انتشرت في نجد في ضم الإحساء والبحرين وامتدت إلى الحجاز واليمن وعمان ومسقط ، وهددت البصرة وبغداد وتمكنت من إقامة الدولة السعودية الأولى (1745 – 1818) وقد عجزت القوات العثمانية عن قمعها والواقع أن محمد علي باشـــا كان مدفوعا إلى ذلك بقلقه من تزايد النفوذ البريطاني ، وقد اســـتطاع إبراهيم باشـــا احتلال الدرعية عاصمة الوهابيين بعد حصار دام ستة أشهر في أيلول سنة 1818 وأخمد بذلك الحركة التي كانت تستهدف كما سنرى العودة بالإسلام إلى نقائه الأول والعمل على إقامة كيان سياسي عربي الجزيرة العربية ، ثم تحركت القوات المصـرية بقيادة خليل باشـا لتقضـي على فلول الوهابيين في عسـير ومنطقة الساحل الشمالي لليمن وقد تمكنت هذه القوات من الاستيلاء على اليمن وإعادتها إلى حكم الأئمة الزيديين في صنعاء بعد أن طردهم الوهابيون عنها .\اندفعت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا سنة 1819م نحو سواحل الخليج العربي ونجحت في اخضاع الاحساء ولقد أبدى الانكليز في البدء رغبة كبيرة في إيجاد صـيغة للتعاون مع إبراهيم باشـا ، وكانوا يهدفون من ذلك الاسـتعانة بقواته في كسر شوكة سكان الساحل العماني الذين زاد اعتناقهم للدعوة الوهابية غير انه اضطر إلى الانسحاب في أواخر تموز 1819م بضغط وتأثير من السلطات العثمانية في العراق التي كانت ترى في وجود المصريين في منطقة الاحساء خطرا على وجودها في العراق ، وقد انتقد المؤرخون

إبراهيم باشـا لانسـحابه السـريع من شـواطئ الخليج العربي ، معتقدين أنه أخطأ كثيرا في موقفه خاصـة وإن تلك السـواحل كانت تعاني آنذاك صـراعا اسـتعماريا وضـغطا أجنبيا وخاصـة من جانب بريطانيا .

ولربما شعر المصريون بهذا الخطأ الستراتيجي فعادوا إلى منطقة الجزيرة العربية في أعقاب انتصـاراتهم في السـودان والشـام ، ففي سـنة 1836 وجه محمد علي قوة جديدة إلى اليمن بقيادة إبراهيم يكن باشا الذي عينه ((سر عسكر اليمن)) وكان يسانده في تحركه الشريف عون شريف مكة ، وقد احتمل المصـريون في أثناء زحفهم إلى عسـير والمنطقة الممتدة إلى عسـير والمنطقة الممتدة على طول السـاحل اليمني حتى الحديدة مشـاق كبيرة نتيجة لوعورة الطرق وسـوء الطقس وقلة الماء بيد أنهم احتلوا معظم الثغور اليمنية وبعض المواقع الداخلية في تهامة وأصـبح إبراهيم يكن باشـا واليا على اليمن من قبل محمد علي باشـا متخذا من الحديدة مركزا لإدارته ، وقد أقام المصـريون في اليمن إدارة منظمة أتاحت اسـتقرارا نسـبيا للبلاد لم تنعم به من قبل ، كما أنهم اكتسبوا أعوانا كثيرين من اليمنيين وفي مقدمتهم إمام صنعاء الزيدي كما استلموا رسائل من حضر موت يطالب أصـحابها بالانضـمام إلى الإدارة المصـرية وقد اسـتمرا حالة الهدوء النسـبي في اليمن في ظل الادارة المصـرية في الفترة الممتدة بين سـنتي 1836 – 1840 ولم يتخللها سـوى عمليات الغزو التي كانت تشنها بعض القبائل اليمينية .

وفي ما يتعلق بنجد فقد مهد الافراج عن أحد الامراء السـعوديين الموالين لمحمد علي باشـا وهو خالد بن سـعود السـبيل للتغلغل في الاراضـي النجدية وإعادة المناطق التي كانت تابعة للدولة السـعودية الاولى ومنها القصـيم وعنيزة وبريدة وحائل ثم الرياض ، و في أواخر أيلول 1838 تقدمت القوات المصرية ترافقها قوات الأمير خالد بن سعود شرقا صوب منطقة الاحساء وقد اضطر أميرها فيصـل بن تركي إلى الاسـتسـلام بعد أن تراجع إلى أواخر معقل لديه عند مدينة (دلم) فنقل إلى القاهرة في كانون الأول سنة 1838 .

أدركت السـلطات العثمانية في الطرق مدى الاخطار التي قد تتهددها من جراء زحف القوات المصرية في أراضـي شبه الجزيرة العربية والتي تجيء بمثابة فتح جبهة جديدة للقتال ضد الدولة العثمانية وهي جبهة العراق وخيل للعثمانيين أن هدف محمد علي هو احتلال العراق عن طريق قواته في الشام من الشمال ، وبقوات شبه الجزيرة العربية من الجنوب .

لذلك أوعزوا لواليهم في بغداد علي رضا باشا بالاتصال بالشيوخ العرب في مناطق نجد والاحساء وعسير وغيرها لتحريضهم ضد المصريين وإشعال نار الثورة في الخطوط الخلفية للقوات المصرية وإيقاف زحفها في الجبهة الشرقية .

ركز المصريون نشاطهم عقب استقرار قواتهم في منطقة الاحساء حول البحرين ، إذ اعتبروها من أبرز المواقع التي ينبغي وضع أقدامهم عليها في منطقة الخليج العربي ، فعن طريقها يتمكنون من اكتساب ميزة التحرك السريع صوب اجزاء الخليج العربي وجنوبا صوب إمارات ساحل عمان وشمالا صوب العراق .

ولقد استطاع القائد المصري خورشيد باشا عقد اتفاق في الاسبوع الاخير من آذار سنة 1839 مع شيخ البحرين عبد الله بن احمد آل خليفة تم بموجب وضع البحرين تحت الاشراف المصري والتزام شيخها بتقديم المساعدات للسفن المصرية في منطقة الخليج العربي وقبول وكيل معتمد من قبل خورشيد في البحرين ضمانا لتنفيذ شروط الاتفاق الموقع بينها ومنعا لنجاح عمليات الضغوط التي كان يتعرض لها شيخ البحرين من الانكليز والعثمانيين ، كما تعهد شيخ البحرين بتسليم السلطات المصرية زكاة سنوية مقدارها ثلاثة آلاف ريال ، مما يشير إلى نوع التبعية التي ربطت البحرين بحكومة محمد علي بمقتضى هذا الاتفاق .

ولم تكن البحرين وحدها هي مجال نشاط محمد علي في منطقة الخليج العربي ، فلقد تعرضت إمارات الساحل العماني ، ومنها الشارقة وأبو ظبي ودبي وأم القيوين ورأس الخيمة لمثل هذا النشاط ، وساد فيها إحساس قوي بوصول قوات خورشيد باشا إليها عقب استقرارها في منطقتي الاحساء والقطيف ، وفي أواخر 1839 وصل الشارقة سعد بن مطلك ، بعد أن فوضه خورشيد باشا بالتوجه إلى امارات الساحل العماني والحصول من شيوخها على تعهد بالخضوع للسيطرة المصرية ، ولكن الانكليز سرعان ما أرسلوا الميجر هنيل المقيم البريطاني في الخليج العربي إلى الساحل العماني للحصول على تعهدات مكتوبة من شيوخه بوجوب التعاون مع السلطات البريطانية في مقاومة زحف خورشيد باشا المحتمل ، ومع هذا فلم يكن هنيل متفائلا ، فقد كان عديم الثقة بوفاء أولئك الشيوخ لتعهداتهم وذلك لمزاولة خورشيد باشا نفوذا غير عادي عليهم – لذلك أوصى هنيل رؤساءه بوجوب التقدم باحتجاجات جادة وقاطعة إلى المسؤولين في مصر ، وفرض حصار بريطاني على كل من القطيف والعقير وسيهات لمواجهة التوسع المصري في سواحل الخليج العربي ، إذ لم تقتصر تحركات خورشيد باشا على الساحل العماني ، وإنما امتدت صوب سلطة مسقط التي علم هنيل بأن مبعوثا من خورشيد باشا ذهب إلى هناك في الاسبوع الأول من تموز سنة

1839 وهو مزود برسائل إلى السيد سعيد سلطان مسقط تطالبه بتقديم مساعداته لمحمد علي ، وإعادة دفع الزكاة التي كان يدفعها من قبل الوهابيين وتبلغه في الوقت نفسه باستعداد القوات المصرية لحمايته ومساعدته ضد خصومه .

وإذا كانت أنظار خورشيد باشا قد اتجهت نحو الأجزاء الوسطى والجنوبية ومنها الكويت والمحمرة للحصول على المساعدات من شيوخها وضمان ولائهم للحكم المصري ، وقد أحرز مبعوثوه نجاحا كبيرا في مهمتهم ، مما أقلق السلطات البريطانية التي أرسلت الليفتانت ادموندر المقيم البريطاني المساعد في منطقة الخليج في 30 تشرين الأول 1839 لمقابلة شيخ الكويت جابر الصباح والتعرف منه على تحركات مبعوث خورشيد باشا والتباحث معه بشأن إقامة خط بريدي بريطاني عبر الصحراء من الكويت إلى كل من البصرة وبغداد ودمشق وحلب ، وتشير الوثائق البريطانية إلى ان الشيخ جابر الصباح لم يرحب بالمبعوث البريطاني كما ينبغي وذلك رغبة منه في التمسك بصداقة محمد علي وإعجابه بالنجاح الذي حققته القوات المصرية في الخليج العربي ، وتضيف أن مهمة المبعوثين المصريين إلى الكويت والمحمرة لم تقتصر على تحصيل المؤن والامدادات ، وإنما كانت ستارا يختفي وراءها أولئك المبعوثين لكي تسهل لهم مراقبة النشاط العثماني في البصرة وخدمة أهداف المصريين الرامية إلى ضم العراق ، خصوصا بعد ما أخذ موقف العثمانيين هناك بعد معركة نزيب في 24 حزيران 1839 يتطور من سيء إلى أسوء بشكل دفع خورشيد باشا إلى الإدراك بأن الوقت قد حان لإخراج العثمانيين من العراق ، إذ ان زعماء عشائر جنوب العراق وخاصة عشائر المنتفك أعربوا عن رغبتهم هم وأهل البصرة في التخلص من السيطرة العثمانية والانضمام لدولة محمد علي إلا ان الامور لم تلبث ان تطورت بشكل سريع في أعقاب النجاح الذي أحرزه الانكليز في تأليب الدول الكبرى ضد محمد علي على نحو أخذت آثاره ونتائجه في الأفق كما سنرى .

لذلك فقد بعث خورشيد باشا في نهاية آب سنة 1840 برسالة إلى هنيل في جزيرة خرك يبلغه فيها أنه ليست لديه نية التحرك من قاعدته عند (ثرمده) لحين تلقيه أوامر جديدة من مصر إذ أن محمد علي كان مشغولا بأخبار تحركات جيشه في الشام والأناضول ، ولهذا فقد أجل قراره بضم العراق إلى دولته ومن جهة أخرى فإن الوضع المتدهور الذي بدأت تعيشه القوات المصرية في الشام ، أدى إلى سحب جزء من القوات المرافقة لخورشيد باشا من نجد وتوجيها للدفاع المحتمل من مصر والشام ومن ثم أخذت تلك القوات تتوافد من مواقعها ، ففي أواخر حزيران 1840 كان ثلاثة عشر فوجا من القوات المصرية النظامية في شبه الجزيرة العربية تتقدم صوب القاهرة وترك

خورشيد باشا مكة والمدينة في أيدي القوات غير النظامية الخاضعة لمحمد بن عون شريف مكة الذي عينه محمد علي حاكما على الحجاز ، كما ترك الامير خالد بن سعود على حكم نجد برفقة بعض قواته ، في حين اسند حكم الاحساء إلى أحمد بن مبارك من بني خالد ، وهو من حكامها السابقين المخلصين للمصريين .

ثم لم تلبث هزيمة الجيش المصري في بلاد الشام في تشرين الثاني سنة 1840 أن وضعت نهاية لمشروع محمد علي وانتصارات قواته في الجزيرة العربية وجهودها في منطقة الخليج العربي ، فاهتز نفوذ الامير خالد بن سعود وأصبح عرضة للانهيار بعد انتصار الأمير السعودي الموالي للعثمانيين فيصل بن تركي الذي أتاحت عودته الفرصة للنفوذ العثماني بالتغلغل في شبه الجزيرة العربية ، كما أتاح الخلاف الذي أعقب وفاته بين أولاده الفرصة للعثمانيين للوصول إلى منطقة الخليج وإقامة وجود عثماني فيها على امتداد السواحل العربية استمر حتى 1913 ، ولم يعد بمقدور المصريين الاستمرار في حكم اليمن بعد احتلال البريطانيين لعدن سنة 1839 فانسحبوا منه لتشدد الدولة العثمانية من قبضتها عليه ، ثم عمد الانكليز بعد ذلك إلى تقوية نفوذهم في منطقة الخليج العربي في أعقاب خروج المصريين منه ولم يتهاونوا في الاصطدام مع أية قوة تحول دون ذلك ، فعندما حاول السعوديون إيجاد نفوذ لهم في الخليج بعد خروج المصريين حالوا بينهم وبين ذلك ، بل حصلوا منهم على تعهدات بعدم المساس بالمشيخات العربية التي ارتبطت باتفاقات مع الانكليز كما منعوا العثمانيين من التوغل في منطقة الخليج بعيدا عن قطر ووقفوا بوجه محاولات روسيا وفرنسا وألمانيا للتدخل في الخليج العربي ، حتى إذا ما أشرف القرن التاسع عشر على الانتهاء بدت المنطقة وكأنها بحيرة بريطانية

المحاضرة الرابعة عشر : نشاط محمد علي باشا في الشام والعراق :

اتجهت القوات المصرية نحو الشام بقيادة إبراهيم باشا فسيطرت عليها سنة 1831 بمعونة الأمير بشير الشهابي ، وقد اوضح إبراهيم باشا هدف حملته إلى الشام في رسالة وجهها إلى محمد باشا والي حلب ، جاء فيها أن هدف الحملة (انتزاع بلاد العرب وما يجاورها وإنقاذ الأمة ... من المصائب التي ابتليت بها) ويؤكد هذا الهدف في رسالة مماثلة لوالده يقول فيها : إن على المرء ان (يضحي بحياته في سبيل قومه وعشيرته)وقد كان القنصل الانكليزي باركر أكثر وضوحا عندما رأى سنة 1832 أن جيش محمد علي قد بدأ فعلا مهمة تحرير العرب وتوحيدهم في دولة عربية ، وفي 8 كانون الثاني 1832 كتب إلى حكومته يقول : إن غرض محمد علي المباشر هو توطيد سلطته في بلاد الشام ومدها فيما بعد إلى العراق وكل الولايات التي تتكلم العربية .

لقد كان الوطن العربي بحاجة إلى من يحرك في وجدانه القومي عامل التحرر والانعتاق لكي ينتفض ويثور ويتخلص من النير العثماني ، وقد حاول محمد علي الاستفادة من هذا الشعور والعمل من أجل فصل الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية .

أحدث طرد العثمانيين من الشـــام تغييرات عديدة ، مهدت الســـبيل لتحديث الشـــام وتهيئتها لتصـبح الأرضـية التي شـهدت بدايات الحركة القومية في العصـر الحديث ورغم قصـر فترة الحكم المصـري (1831 – 1840) فإن إبراهيم باشـا أنجز سـلسـلة من الاصـلاحات منها توطيد الأمن ، ووضـع حد لهجمات العشـائر على المدن ، وتحديد الأسـعار ، والتشـديد في أمر التجنيد الإجباري وتنشـيط التجارة وإنشـاء المدارس وجعل التعليم فيها باللغة العربية ، وإرسـال البعثات إلى مصـر وإقامة المستشفيات فضلا عن تحطيم سلطة بعض المشايخ والاقطاعيين غير المتعاونين معه مثل آل الحرفوش في بعلبك وإقامة نظام إداري يعتمد المساواة السياسية والاجتماعية بين الجميع بغض النظر عن الفوارق الدينية والمذهبية والعرقية كما بذل جهدا كبيرا في محاربة الرشـــوة والفســـاد والمحسوبية ، واعتمد مبدأ المشورة في الحكم وألف في كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسـمة مجلسـا يسـمى (ديوان المشـورة) يتراوح عدد أعضـائه بين (12 – 21) عضـوا ينتخبون من بين أعيان البلاد وتجارها وقد سـمح إبراهيم باشـا للإرسـاليات التبشـيرية الأجنبية بتأسيس مراكز ثابتة لهم في لبنان ومن أشهرها الإرسالية الأمريكية 1834 والارسالية اليسوعية سـنة 1839 وقد لعبت تلك الارسـاليات فيما بعد دورا كبيرا في الصـراع الطائفي الذي نشـب بين الدروز والموارنة أثر جلاء المصريين عن الشام وعودة الحكم العثماني المباشر .

بدأ محمد علي يفكر بالتوجه نحو العراق وقد اتخذ هذا التوجه كما أشـــرنا إلى ذلك من قبل الأشكال التالية :

1- تشـــجيع النزعات الاســـتقلالية عن الدولة العثمانية في العراق وتقديم الدعم لها وربطها بالسياسة المصرية كما حدث بالنسبة لوالي الموصل يحيى باشا الجليلي .
2- إجراء اتصـالات وتنظيم علاقات مع جهات رافضـة للسـيطرة العثمانية في العراق وبشكل خاص صفوك شيخ عشائر شمر الجرباء ومحمد باشا أمير راوندوز وعدد من زعماء البصرة وشيوخ المنتفك .

لقد كان ضـــم العراق جزءا من طموح محمد علي باشـــا فيما يتعلق بالخطط الســـتراتيجية المسـتقبلية ، وكان يجيب إبراهيم باشـا كل من ينكر عليه عروبته بقوله : (أنا لسـت تركيا ، فإني جئت مصر صبيا ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وجعلتني عربيا) وهنا يعبر إبراهيم باشا عن شعوره بالمسؤولية تجاه مصر ودورها في توحيد الأرض في دولة حديثة واحدة قوية مستقلة .

لقد أدركت بريطانية خاصـــة والدولة الاســـتعمارية عامة خطورة هذا الوعي القومي العربي وهذا التحرك ، فبريطانيا كانت ترى في ظهور أية قوة قومية في المنطقة خطرا يهدد نفوذها ، وكان ما يخشـاه الانكليز هو نجاح محمد علي في الوصـول إلى منطقة الخليج العربي والعراق بعدما نجح في التمركز على شواطئ البحر الأحمر والشام ، وتهديد الوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي المؤدية إلى الهند من ناحية أخرى ، والى شيء من هذا تشير تعليمات بالمرستون ووزير خارجية بريطانية إلى كامبل القنصـل البريطاني العام في القاهرة في 8 كانون الأول سـنة 1837 بأن يتقدم لإبلاغ محمد علي بنوع من الصداقة بعبارات شديدة ، أن الحكومة البريطانية سوف تأسف لرؤية أية خطوات تتخذ من جانبه مما قد يشير إلى وجود نية لديه لكي يندفع بسلطته صوب بغداد ، ثم لم يلبث أن كتب إلى كامبل طالبا منه اســـتخدام لهجة أقوى مع محمد علي بأن يبلغه (.. إن تقارير وصلت إلى الحكومة البريطانية عن تحركات قواته في سوريا وشبه الجزيرة العربية ، مما يبدو أنه يشـير إلى نوايا من جانبه لمد سـلطته نحو الخليج العربي وباشـوية بغداد ، ومن ثم ينبغي أن تقرر بصراحة للباشا أن الحكومة البريطانية يمكنها أن تغض الطرف عن تنفيذ مثل هذه النوايا ...) .

كان بالمرســتون يرى كذلك أن التحرك المصــري قد يحمل روســيا على التدخل في المنطقة الغربية تدخلا مباشـرا ، فيصـير المشـرق العربي ميدانا تصـطرع فيه قوى مصـر وروسـيا والدولة العثمانية ، وتضـيع في خضـم هذه الصـراعات المصـالح البريطانية ، ولم تقبل بريطانيا فكرة محمد علي وابنه إبراهيم المنطوية على أن قيام دولة قوية في المنطقة سوف لا يسمح لروسيا بالتدخل ، ولما لم تكن بريطانيا لتشـجع على ظهور مثل هذه الدولة القوية وتريد أن تظل المنطقة ضـمن إطار نفوذها تدخلت من أجل عقد صـلح ((كوتاهية)) سـنة 1833 بين مصـر والدولة العثمانية وقد نص هذا الصـلح على إسـناد حكم الشـام وادنه وكريت والحجاز لمحمد علي وجددت ولاية إبراهيم باشـا على جدة ، وكان هذا الصـلح بمثابة هدنة مسـلحة بين الطرفين ، وخلال هذه الفترة بحث السـلطان العثماني عن حليف قوي يقف إلى جانبه ضـــد مصـــر ، وكانت فرنســـا تنظر بعين العطف والتأييد لانتصارات محمد علي على اعتبار أن توسعه سيضعف النفوذ البريطاني في المنطقة العربية وهي نفسـها تريد أن تتوسـع على حسـاب الدولة العثمانية وخاصـة في الجزائر التي احتلتها سـنة 1830 كما سـنرى ، لذلك حث السـلطان العثماني بريطانيا على التحالف معه ، ولكنها رفضـت ، فاتجه إلى روسـيا فأسـرعت هذه بعقد اتفاقية (خنكار سكلة سي) معه في 8 تموز سـنة 1833 وهي اتفاقية هجومية دفاعية موجهة ضد التوسع المصري .

لم تجد بريطانيا في مثل تلك الاتفاقيات إلا ما يهدد مصـــالحها ، وأســـرعت تتخذ الخطوات المناسبة لا بمواجهة التوسع المصري في المشرق العربي فحسب ، بل بمواجهة النتائج المترتبة على قيام روسيا بدور حامية الدولة العثمانية أيضا .

أجبرت شيوخ الساحل العماني على توقيع تعهدات خطية بوجوب التعاون مع السلطات البريطانية والكف عن مساعدة القوات المصرية ولم يقف الأمر عند ذلك بل هددتهم إذا ما انضموا إلى القائد العثماني بتدمير سفنهم وتحصيناتهم البحرية ، كما منعت سلطان مسقط وحكام البحرين من التعاون مع المصريين واستولت على عدن سنة 1839 وأنزلت بعض البواخر في أنهار العراق لتمنع أي اتصال بين العراقيين والمصريين ، وشجعت السوريين على التخلص من الحكم المصري ، وحرضت الدولة العثمانية على خوض الحرب ضد المصريين من الشام ، فتجدد القتال سنة 1839 ووقعت معركة نزيب بالقرب من نصيبين وفيها انتصر الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا واحتل المصريون المرتفعات المسيطرة على المواقع العثمانية وبعد ستة أيام من موقعة نزيب توفي السلطان محمود الثاني ، وبعد ذلك بأسبوعين انضم الأسطول العثماني برمته بقيادة الأميرال أحمد فوزي باشا إلى جانب محمد علي وذكر أحد المؤرخين أن الدولة العثمانية فقدت سلطانها وجيشها وأسطولها خلال ثلاثة أسابيع ، ومع ذلك لم يعبر المصريون جبال طوروس وتوقفوا عند حدود احتلال الرها ومرعش خوفاً من وقوع تدخل روسي .

محاضرات الفصل الدراسي الثاني
المحاضرة الاولى - حركات التجديد في الوطن العربي

شهد الوطن العربي منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حركات تجديدية ذوات طابع ديني عدها المؤرخين ردود فعل على سيطرة العثمانيين واحتجاجهم على عجزهم وفسادهم واستغلالهم ولعل السؤال الكبير الذي تولت تلك الحركات الاجابة عليه والذي كان يلوح في الافق العربي هو : لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا ؟ ولقد تجاوزت تلك الحركات السياسية اسلوب الدعوة المحض الى الاصلاح , لتتبنى شكل الثورة المسلحة ضد النظم الحاكمة المتهرئة المنحلة . وضد التغلغل الاستعماري الاوربي في الولايات العربية . اما ابرز تلك الحركات فهي : الوهابية , والسنوسية , والمهدية .

1_ الحركة الوهابية

أ _ اوضاع نجد السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أشرنا فيما سبق الى ان نجد لم تشهد نفوذا مباشرا للعثمانيين عليها قبل ظهور الدعوة والاصلاحية التي صارت تعرف باسم الدعوة الوهابية وذلك بسبب الصراعات بين القوى المحلية المتمثلة بأشراف مكة وزعماء قبيلة بني خالد وغيرهما كما لم تشهد نفوذا قويا يفرض وجوده على سير

الاحداث داخلها لأية جهة كانت الا ان الصراع بين القبائل والقوى النجدية المختلفة استمر جادا وعنيفا . الامر الذي ادى الى ظهور بغض الاسر الحاكمة النجدية فيها امثال آل معمر في العينة وآل سعود في الدرعية . ومن المعروف ان الاولى اقوى اسرة في نجد قبل تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الامير بن سعود . وان الثاني اصبح بفضل هذا التحالف اكبر قوة محلية في نجد وفتحت لها المجال لانشاء اقوى دولة في جزيرة العرب فيما بعد كما نرى الامراء يصلون الى الحكم بطرق مختلفة . منها من كان سلميا , ومنها من كان بطريق القوة والاغتيال . وكثيرا ما كانت الامارة وراثية الا اذا حدث خلاف داخل الاسرة نفسها وكان الصراع الاسرى حول السلطة . كما سبق ان قدمنا , امرا مألوفا , يحل في الكثير من الاحيان بقوة السلاح .

وكانت الغالبية العظمى من سكان نجد تنتمي الى قبائل عربية معروفة النسب . ومن هنا فثبوت الانتماء العربي الاصيل كان مهما جدا لتحديد مكانة الفرد او الاسرى في المجتمع . وانقسم المجتمع النجدي الى قسمين رئيسين : حضر وبدو , وتعد الزراعة من ابرز مقومات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد . اما المقوم الثاني فكان التجارة , وكان النجديون يستوردون بعض الاطعمة والملابس والسلاح . ويصدرون بعض الحيوانات كالابل والخيل , وكما كانت للزراعة مشكلاتها الخاصة فقد كانت هناك مشاكل خاصة بالتجارة ابرزها الناحية الامنية , اذ كثيرا ما تعرضت القوافل التجارية للنهب . وتعد الثورة الحيوانية من اهم مرتكزات حياة البدو الذين تتأثر حياتهم بعاملين مهمين : اولهما نزول المطر وثانيهما الغزو . ويستفيد كل حاضرة نجد وباديتها من قوافل الحج . كما كانت هناك تبادل تجاري تدفع القوافل معه (الخوة) لرؤساء العشائر .

لقد اعطت بعض المصادر المؤيدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب صورة قائمة عن حالة نجد الدينية خلال القرن الثامن عشر فبعضها يقول ان اهل نجد كانوا يأتون كل باب من أبواب الشرك , وبعضها الاخر يقول : ان الشرك قد نشأ في المنطقة , وكثير ما نعتت تلك الفترة بالجاهلية , وللتدليل على هذا الحكم , اوردت تلك المصادر تفصيلات عما كان يمارس في مناطق معينة من نحد من اعمال تدل على جهل كبير بالعقيدة الاسلامية الصحيحة . والى شيء من هذا القبيل يشير المؤرخ المصري احمد امين فيقول واصفا المنطقة التي ظهر فيها محمد بن عبد الوهاب . بان حالتها كانت تشبه ما كانت علية ابان الجاهلية حيث اشرك المسلمون مع الله حتى النبات والجماد , ويرد احد المؤرخين السعوديين وهو الدكتور عبد الله الصالح العثيمين على ذلك فيقول : ان ما اذكر كان واقعا بالنسبة لطائفة معينة من النجديين , ومن المرجح انها كانت قليلة العدد ولكن كانت هناك مشكلة لا تقل عن ذلك خطورة لم تتناولها المصادر , وهي ان الكثير من السكان بوادي نجد كانوا جاهلين بالإسلام جهلا تاما . وكانوا لا يمارسون اركانه من الصلاة والصوم والزكاة . بل ان فريقا منهم كانوا لا يؤمن بالبعث , ومع ذلك فهم يزاولون انواعا من اعمال الصوفية وعقائدها المذمومة . ويتضح من هذا ان الحالة الدينية في نجد لم تكن آنذاك بالصورة القائمة التي أشير اليها . وانها كانت غير متفقة مع مبالغة من قال عن اهل المنطقة بانهم قد خلعوا رقبة الاسلام والدين , فتلك المصادر تبرز نجدا موطنا لعلماء . بعضهم كان يتحلى بالورع والتقى كما ان القصائد التي قيلت في تلك الفترة لا تحتوي على ما يخالف العقيدة الاسلامية الصحيحة , او يتنافى مع احكام الاسلام العامة . ولكن من ناحية اخرى فان تلك الحالة الدينية لم تكن مشرقة , فهناك جهله يمارسون اعمالا شركيه

. وكان هناك من لا يقوم بواجبات الاسلام نتيجة الجهل خاصة في البادية , ولكن كان هناك علماء , وكان هناك ملتزمون بأحكام الشرع والدين .

ومهما يكن فقد كانت نجد بحاجة الى دعوة دينية اصلاحية توضح للجهال من الناس ما كان خافيا عليهم , وتقضي على الوسائل التي تؤدي الى يخل بعقائدهم , وتلزم في الوقت نفسه من كانوا لا يؤدون شعائر الاسلام بأدائها . وكانت كذلك مكانا مناسبا لنجاح الدعوة الإصلاحية , وكانت في حاجة الى حركة سياسية تجمع شتات اماراتها واسرها الصغيرة المتحاربة احيانا وقبائلها المختلفة المتصارعة حول موارد المياه ومواطن الكلأ وتكون منها دولة واحدة قوية يسودها الاستقرار والامن . ومن حسن الحظ كما يشير الدكتور العثيمين , انها كانت كذلك بعيدة عن متناول السلطة المركزية العثمانية ومن هنا فقد لبى الناس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية لأنها منسجمة مع المذهب الحنبلي السائد فيها , وهو اكثر المذاهب محافظه على صحة العقيدة وصفاء الدين وأشدها محاربة للبدع . فمن هو محمد بن عبد الوهاب وما أفكاره الاساسية وما نتائج دعوته ؟

ب – حياة محمد بن عبد الوهاب وتكوينه الفكري :

ينتسب الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى أسرة تدعى ال مشرف , وهي فرع من ال وهبة من بني حمظلة احدى بطون تميم . وكان ابوه عبد الوهاب بن سليمان الوهيبي قاضيا في قرية (العيينة) النجدية التي ولد فيها ولده محمد سنة 1703 م وتقلى دروسه الاولى بها على الحنابلة من رجال الدين . ومنذ صغره بدت عليه النجابة وعلو الهمة والكرم وشب على ذلك وكانت اسرته في وضع اقتصادي يسمح له بالتفرغ للدراسة . والسفر لطلب العلم , ولقد ادى فريضة الحج في مقتبل حياته وطلب العلم في المدينة المنورة حيث بقي فيها مدة شهرين . وبعد رجوعه الى العيينة , عاد الى المثابرة على التعلم , وفي الوقت الذي واصل فيه دراسته للفقه الحنبلي واخذ يقرأ كتب التفسير والحديث والتوحيد . وعندما شعر بأن المناخ التعليمي في بلدته كان قاصرا عن اشباع طموحه المتحفز الى المعرفة قام برحلاته العلمية الواسعة الى المدن العربية الكبرى ومنها البصرة وبغداد والموصل ودمشق . وقد استغرقت هذه الرحلات سنوات عديدة , اطلع فيها على الاوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك . كما احتك بعدد كبير من العلماء والفقهاء والنحويين . وقد ساهمت تلك الرحلات في تكوينه الفكري من ناحيتين اولاهما تتعلق باطلاعه على اوضاع الوطن العربي والعالم الاسلامي آنذاك . وثانيهما تتعلق بطبيعة المصادر التي استندت اليها دعوته فيما بعد .

ولقد رأى محمد بن عبد الوهاب اثناء اقامته في الحجاز وخلال رحلاته ان الاسلام قد اكتنفه الضلال , فتسربت اليه , على مر القرون , مبتدعات ليس لها سند في القران الكريم ولا في السنة , فشاعت البدع وانتشرت حتى صار الامر في رأيه لا يفرق عن الوثنية وعبادة الاصنام وابتعد الناس عن التوحيد الذي هو مزية الاسلام العظمى وصاروا يقيمون الاضرحة التي لا عداد لها ويشدون اليها

الرحال ويتمسحون بها . ويتذللون بها , ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم . وهذا بالاضافة الى اقفال باب الجهاد , واسفر ذلك عن ضياع الشخصية , وشيوع الجمود والتقليد .

وفي الوقت نفسه وجد محمد بن عبد الوعاب في المنطقة التي زارها مناخا تعليما مختلفا عما الفه في مسقط رأسه العيينة . فبينما كان الاهتمام في بلده منصبا تقريبا على الفقه الحنبلي , كان في المدينة شاملا لكثير من العلوم . حيث كانت المدينة المنورة ملقى العلماء وطلاب العلم من مختلف الاقطار الاسلامية . وقد اتصل محمد بن بعد الوهاب في المدينة بالشيخ محمد حياة السندي المحارب للبدع والتعصب والداعي الى الجهاد . اما في البصرة فقد اطلع عن كتل من اصول المذهب الجعفري ودخل في مناقشات وجدال مع بعض اربابه هناك . وفي الموصل اتيح له ان يلتقي بالشيخ احمد الجليلي المتوفي سنة 1756 م , وهو من العلماء لذين دعوا الى نبذ تقديس الاولياء وعاصر ازمة نبؤة جرجيس وهو من ذوي المقامات المقصودة في الموصل . فقد انقسم العلماء الموصلين الى فريقين , فريق سلفي ثائر يدعو الى مقاومة نفوذ المشايخ والحيلولة دون تقديس الأولياء وفريق يعارض ذلك . وكان ابرز رجال الدعوة الجديدة في الموصل الملا احمد بن الكولة وهو فقيه زاهد ومتصوف جهر بدعوته حين بحث في نبؤة جرجيس المح الى انكارها فأثار بذلك موجة من الاحتجاج ضده وقد وصلت الازمة ذروتها حين تألب علية المشايخ واصحاب الطرق الصوفية . ولاريب ان يكون لهذا الظرف اثره الكبير الفعال في نفس محمد بن عبد الوهاب .

ولقد ساعدته زيارته لدمشق التي كانت في يوم من الايام مكانا لنشاط الامام تقي الدين بن تيمية (1263 – 1317 م) وعلى التعمق في قراءة مؤلفات هذا الامام الجليل . ويذهب كثير من المؤرخين الى اعتبار دعوة ابن عبد الوهاب استئنافا لاحتجاجات الحنبلية التي عبر عنها ابن تيمية وتحقيقا عمليا لانتقادات المعارضة للبدع المستحدثة في الحياة الدينية والاجتماعية اليومية . فهي بالتالي في الوقت نفسه دعوة الى الرجوع الى (الشهادة) كما فهمها السلف الاسلامي . لقد دعا ابن تيمية في مؤلفاته واشهرها :(السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية) الى تنقية الاسلام في كل ما اصابة من بدع . والرجوع به الى نقاوته وحقيقته الصافية , رأى تخليص المجتمع من الفوضى الدينية والسياسية والاجتماعية التي اصابته لا يكون الا بالرجوع الى الشريعة . ويربط ابن تيمية الاصلاح السياسي بالإصلاح الديني في قوله (ان فساد الراعي الذي ادى الى فساد الرعية مبعثه ابتعاد السياسة عن الركود الى تعاليم الشريعة الخلقية) . ومن مبادئ ابن تيمية التي كان لها اثر كبير في تكوين ابن عبد الوهاب الفكري الدعوة الى فتح باب الجهاد ومحاربة التقليد . ولكن دعوة ابن تيمية التي اتسمت بطابع ديني بحت ابعدها عن النجاح في زمانه , قدر لها ان تتجدد مرة اخرى بعد مرور اربعة قرون من خلال دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى تخليص (التوحيد) من الشوائب التي علقت به والتي بدت في مظاهر متعددة اهمها :

1 – دعاء غير الله او دعاء احد مع الله : كدعوة الاولياء .

2 – والاستغاثة بغير الله من الغائبين والمائتين , وبصورة خاصة عند قبورهم .

3 – التوسل بالنبي لمعنى غير التوسل بالطاعة او الدعاء او بالشفاعة .

4 – الاستعاذة بغير الله واسمائه وصفاته , ومنه خرافات التعاويذ وما شاكل .

5 – الحلف بغير الله .

6 – زيارة القبور . اذا لم يكن المقصود منها الذكرى والاعتبار , واذا كانت مصحوبة ببدع او اذا كانت لطلب الحوائج او الشفاعة من اصحابها .

عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى العيينة ورحب بها اميرها عثمان بن معمر وا كرمه . وشرح الشيخ للأمير تفاصيل ما كان يدعو اليه . وما يمكن ان ينتج عنها من اثار ديني ودنيوية وازدادت علاقة الاثنين توطدا بزواج الشيخ من (الجوهرة) بنت عبد الله بن معمر . وقد اصبحت مهمة الشيخ الاصلاحية اثر ذلك سهله الى درجة كبيرة , وازداد عدد المنطوين الى دعوته من العيينة وما حولها بسرعة , وبهذا اصبح في موقف يمكنه من تطبيق ما كان يدعو اليه , وكان اكثر شيء يضايقه آنذاك بعض المظاهر التي يزاولها الجهال في المنطقة كالتماس البركة في بعض الاشجار , وتقديم النذور الى القبور . وقد قرر الشيخ القضاء على كل ما يعتقد ان فيه خطرا على عقائد المسلمين . وقد قام انصاره بازلة تلك الامور المحشورة في منطقتهم وفي الوقت نفسه , كان الشيخ مصمما على تكوين مجتمع تطبق فيه الشريعة الاسلامية في جميع المجالات , ومن ذلك انه امر بمعاقبة من لم يكونوا يؤدون الصلاة جماعة في المساجد . وبينما كان يقوم بالإجراءات السابقة , نشط في مراسلة العلماء والزعماء من غير بلده لإقناعهم بالدعوة وضمهم الى صفه . كما ارسل الدعاة الى البلدان القريبة منه لوعظ الناس وارشادهم . ويبدو ان فريقا من العلماء كانوا غير معارضين للخطوات العريضة التي رسمها للتوحيد والشرك . لكنه ما ان دخل في تفصيلات لها علاقة بهذين الموضوعين , وطبق علميا ما كان يدعو اليه حتى اختلفوا معه ووقفوا ضده . ومهما كانت اسباب موقف بعض العلماء المنطقة من دعوة الشيخ فان هناك لعدد من العلماء كبعد الله بن عيسى قاضي الدرعية وعبد الله الموبي قاضي حرمه وسليمان بن سجيم احد علماء الرياض وغيرهم دور كبير في التأثير على بعض الزعماء السياسيين في الجزيرة العربية امثال سليمان بن محمد بن غرير الحميدي حاكم بني خالد والاحساء والقطيف وقطر لكي يقفوا ضد الدعوة , على اساس انها قد تغير الوضع في المنطقة وتهدد نفوذهم السياسي والاجتماعي . وقد استطاع سليمان الضغط على امير العيينة عثمان بن معمر ليتخلى عن تاييده للشيخ محمد عبد الوهاب لذلك اضطر الشيخ الى مغادرة العيينة التي شهدت بداية تطبيق دعوته وازدياد شهرته في النمطقة بدرجة كبيرة نحو الدرعية حيث ال سعود . وهناك سببان وراء اختياره الدرعية : اولهما ان قوة الدرعية كانت اخذة في الازدياد وان امراؤها استطاعوا صد هجمات زعماء بمي خالد عن بلدتهم . واصبحوا في موقف عسكري جعلهم يفكرون في مهاجمة العيينة نفسها . اما السبب الثاني فيرجع الى ان دعوة الشيخ كانت انذاك قد لقيت قبولا كبير بين الشخصيات المهمة في الدرعية وفي مقدمتهم بعض الامراء السعوديين بل لقد رجع الدكتور منبر العجلاني ان يكون انتقال الشيخ الدرعية بدعوة من اميرها انذاك محمد بن سعود .

ولقد اشرنا سابقا الى ان الاتفاق بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والامير محمد بن سعود سنة 1747 م للعمل في سبيل الدعوة واظهارها يمثل مرحلة فاصلة في حياة الدعوة وتحولها الى حركة دينية اساسية . وليس من شك في ان نصرة السعوديين للشيخ ابن عبد الوهاب وقبولهم حمايته قوى مركزهم وثبت استمرار قيادتهم . كما قام الشيخ محمد بدور بارز في توجيه الدولة السعودية الحديدة وادارتها (فكان يجهز الجيوش ويبعث السرايا , ويكاتب اهل البلدان) ويدير امر الاخماس والزكاة وما يجيء الى الدرعية . ويشير المؤرخون الى انسجام القادة السعوديين مع الشيخ في تدبير امور الدولة التي اتسعت بعد وفاته سنة 1792 م لتشمل الاحساء ومناطق كبيرة من الساحل الغربي الخليج العربي وعمان . واستطاع الاستيلاء على الحجاز وما يقع الى جنوب منه حتى اواسط اليمن . وبذلك فان دولة الدرعية اصبحت بعد اقل من عشرين سنة من وفاته تمتد الى الشام والعراق شمالا حتى واواسط اليمن جنوبا ومن البحر الاحمر غربا حتى الخليج العربي واواسط عمان شرقا . ولم يخرج عن نفوذها من الجزيرة العرب الا اجزاء قليلة , وبالإضافة الى ذلك اصبحت تشن الغارات داخل الاراضي العراقية والشامية حتى بات كثير من الشعائر الموجودة هناك يدفع اليها الزكاة .

وادى هذا الامتداد الى ظهور احتمالات التدخل الخارجي ضد الدولة السعودية الاولى , وكان الاشراف مكة دور كبير في تحريض السلطة العثمانية عليها , وقد سبق ان اشرنا الى هذا الموقف . ويتساءل الدكتور عبد الله الصالح العثيمين عن الاسباب التي منعت اشراف مكة من التدخل العسكري ضد الدولة السعودية حتى سنة 1790 م . وخاصه وان بعض العلماء افتى بوجوب قتال الشيخ واتباعه ان لم يعدل عن رايه , وان الدولة العثمانية اوقفت على اية خطوات يقوم بها اشراف مكة ضد دعوته . ويقول : ان ذلك يرجع الى ان الاشراف لم يكونوا في بداية الامر مقتنعين تماما بخطورة الدعوة , وانهم كانوا يظنون ان المعارضة النجدية لها ستقضي عليها . وكانوا يرون , فيما يبدو , ان منع اتباعها من الحج سيقوى معارضيها من الناحية المعنوية . هذا فضلا عن ان المنطقة التي اقامت فيها الدعوة اولا. كان النفوذ الاكبر فيها لزعماء بني خالد منذ اجلاهم العثمانيون عن الاحساء وكان الاشراف يعتقدون ان الدولة الدرعية , او استفحل امرها سيقضي عليها من قبل أولئك الزعماء . لكن حين اصبحت دولة الدرعية تضم نجدا كاملة . وباتت الاحساء قريبة من الوقوع تحت نفوذها فقد ادركوا ضرورة التحرك ضدها عسكريا . وقد فشلت اولى حملاتهم على الدرعية سنة 1790 م واستنجدوا بعد ذلك . كما سبق ان قدمنا بالدولة العثمانية للقضاء عليهم . الا اني الحركة سرعان ما بعثت من جديد بعد انقضاء اقل من قرن من الزمان على ايدي عبد العزيز ال سعود .

استندت الحركة الوهابية الى عدد من الاسس ابرزها مايلي :

1 – التوحيد والعودة الى الاصول والرجوع الى الشهادة :وقد أشرنا فيما سبق الى ما وصل اليه العرب والمسلمون في تلك الحقبة من التاريخ وانتهائهم بالاسلام الى صور متعددة لألوان من الشرك او على الاقل الى صورة من التوحيد والعبادة تشوبها الاكدار . فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل

ما ابتدع قبل الاسلام الاول من عادات وتقاليد فلا اجتماع لقراءة مولد , ولا احتفاء لزيارة قبور , ولا خروج لنساء وراء الجنازة , ولا اقامت أذكار يغنى فيها ويرقص, فكل هذا مخالف للإسلام الحقيقي ويجب ان يزال ويعود المسلم الى الاسلام بصورته الاولى وطهارته ونقائه وحدانيته واتصال العبد بربه من غير وساطة ولا شريك , (فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر علية الا الله من جلب خير او دفع ضر اشرك في العبادة) كم قال تعالى (ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) وقد دعت احدى نشريات الدعوة الاولى الانصار الى محاربة الشرك . و (التشنيع) وعلى المشركين وذلك بمعرفة خمسة قواعد : (... اولها ان تعلم ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون ان الله هو الخالف والرزاق والمحي والمميت والمدبر لجميع الامور .... ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله ... القاعدة الثانية انهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله , نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك ... واذا عرفت هذه القاعدة عرفت فاعرف القاعدة الثالثة وهي : ان منهم من طلب الشفاعة ومن الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وامه والملائكة ... ورسول الله لم يفرق بين من عبد الاصنام , ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكوم الدين كاه لله , واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الرابعة وهي انهم يخلصون لله في الشدائد وينسون ما يشركون ... واهل الخامسة وهي ان المشركين في زمان النبي اخف شركا من عقلاء مشركي زماننا لان اولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في وعلى اية حال , فان الاصول التي عادت اليها الحركة الوهابية في هذا المجال محدودة ولكنها مع ذلك , كما يقول الباحث الاردني الدكتور فهمي جدعان بعيدة الخطر في اثرها النفسي والاجتماعي لدى الانسان المؤمن , فالشهادة (شهادة ان لا اله الا الله) مفهوم على هذا النحو تبدو بالدرجة الاولى تحريرا للإنسان من سلسلة الاشباح وتحريرا للعقل من سلطة الخرافات الاوهام وهي تعني استقلالا انسانيا فريدا بارزا كل ما هو مخلوق , اي انها تحرير للانسان من سلطة الانسان .

2 – الاجتهاد : ولقد كان من ابرز اعمدة الدعوة فتح باب الاجتهاد والتماس والحلول لمختلف قضايا المجتمع من المصادر الاصلية , وهي القران والحديث النبوي واجماع المسلمين على حكم معين بحيث لايعارض مع نصوص المصدرين الاساسيين للشريعة . وقد اساء بعض خصوم الدعوة فهم موقفها من الجهاد وظنوا ان الشيخ محمد يدعي حق الجهاد لنفسه . والواقع كما يشير الدكتور العثيمين , ان الشيخ واتباعه يرفضون قول من ينادي بان العلماء المتاخرين لايحق لهم الاستنباط من المصادر الاصلية للشريعة . وان ذلك الاستنباط من حق المجتهدين المطلقين وحدهم . وبسبب رفضهم لهذا القول انه يعني استحالة انتفاع اي شخص , سوى المجتهد , بالقران واستحالة بحثه عن الهداية فيه , وان القران بدلا من كونه مصدرا لهداية جميع الناس , كما هو المقصود منه , سيصبح هاديا لقلة من هؤلاء فقط .

3 – التفكير والقتال : دعا الشيخ واتباعه الى ضرورة المحافظة على طهارة الاسلام , والوقوف ضد من يخالف تعليماته . وقد اثار هذا الموضوع جدلا مع خصوم الدعوة ومناوئيها . ويشير محمد بن عبد الوهاب الى ذلك في احدى رسائله ويقول : ان معارضيه قبلوا رأيه في التوحيد والشرك . لكنهم رفضوه في التفكير والقتال . وقال هو واتباعه ان جميع العلماء من مختلف المذاهب وفي كل

العصور يؤيدونهم . فهناك فصل معين في كتب الفقه يعرف بباب الردة يتناول , بصفة خاصة , امورا تؤدي الى الكفر وتسوغ تكفير أي انسان يقوم بها , كما تبرر تسويغ اعلان ردته . ولا يقتصر الشيخ واتباعه على ماذكره العلماء من الناحية النظرية فقط , وانما يعملون على تطبيق مقتضاها . زبالرغم من ان موقفهم تجاه من يعتقدون انهم مشركون لا يقبل التنازل فانهم يرون ان الانسان يجب الا يحكم بخروج اي مسلم عن الاسلام ما لم يكن مؤهلا تاهيلا جيدا بالعلم ومعرفة الدليل المبني على ما ورد في القران والسنة واراء السلف الصالح من هذه الامة .

4 – الامامة : اتفقت اراء الشيخ واتباعه على ضرورة وجود امام ينفذ احكام الشريعة ويوحد المسلمين ويقودهم ضد الاعداء . والامام المثالي بنظرهم يجب ان يكون حرا ذكرا عادلا يعرف الشريعة ويقدر على ادارة شؤون الامة . واذا توفرت هذه الصفات في واحد من قريش فانه اولى بها . وتعيينه يمكن ان يتم باتفاق اهل الحل والقعد . او تعيينه من قبل الامام السابق له , وقد يأتي الى الحكم بطريقة القوة . وفي جميع الحالات يجب على رعاياه ان يطيعوه . ويرى الشيخ محمد نفسه ان طاعة الحاكم واجبة وان كان جائرا او فاسقا , وان امره يجب ان يتبع مادام لم يأمر بمعصية , كما ان دعوته للجهاد يجب ان تلبي دون تردد . ويكرر اتباع الشيخ هذا المعنى في كتاب لهم , وينصحون بالصبر على جور الحكام , كما يذمون اية ثورة مسلحة ضدهم . ويرى الدكتور العثيمين ان الشيخ واتباعه يرتبطون بين وجوب طاعة الحاكم في غير معصيته وبين عظم مسؤولية الحكم ووجوب عدم تهاون الحاكم فيها . فيجب عليه ان يكون عادلا , والا يعين من يتحيز في ادارته او في تطبيقه لأحكام الشريعة . وان يعمل على حماية المسلمين ويجاهد لنشر الاسلام وباختصار يجب ان يكون هدفه اعلاء كلمة الله التي ينبغي ان تنعكس اثارها على حياة الناس دينيا ودنيويا . ومما يلحظ ان الحاكم السعودي كان يسمى في بداية الدعوة الامير , ثم اصبح يلقب بالأمام .

د . طبيعة الحركة الوهابية واثارها :

ان استعراضنا لأسباب الحركة الوهابية وظروف نشأتها وعناصر قيادتها واهدافها يقودنا الى معرفة طبيعتها وموقعها من حركات التجديد واثارها السياسية والاجتماعية . وينبغي الاشارة اولا الى ان انتصار هذه الحركة لا يستسيغون تسميتها بالوهابية . وان كانت النسبة , من الناحية اللغوية صحيحة , فهي لا تختلف , مثلا عن نسبة الحنبلية الى احمد بن حنبل . ويرى انصار هذه الحركة ان معارضيهم هم الذين اطلقوا عليهم الاسم , والقصد من ذلك تنفير الناس من الدعوة او اتهامهم بالدعوة الى الدين الجديد او مذهب جديد . لذلك يفضل انصار الدعوة , ان يسموا بالموحدين , وان يطلق على حركتهم اسم (الحركة السلفية) وعلى اية حال فان عددا من الباحثين المتعاطفين مع هذه الحركة ., وبدأوا في السنوات الاخيرة لا يتحاشون استعمال كلمة وهابية في كتاباتهم ولابد ان هذا الموقف , جاء نتيجة اعتقاد هؤلاء بان ما تحمله هذه الكلمة من مهان في الزمن الماضي اصبح في اذهان الكثيرين اضعف من ذي قبل .

ويرى المؤرخ المصري الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى بأن الوهابيين , لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها الا في نطاق التعليم الديني , ولم يستجيبوا لمطالب المدنية الحديثة , ويشير

احمد امين الى شيء من هذا القبيل فيقول (ان محمد بن عبد الوهاب لم ينظر الى المدنية وموقف المسلمين منها , ولم يتجه في اصلاحه الى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا , وانما اتجه الى العقيدة وحدها والروح وحدها , فعنده : ان العقيدة والروح هما الاساس وهما القلب ان صلحا صلح كل شيء , وان فسدا فسد كل شيء) لذلك فقد اتهمت الحركة الوهابية بالمغالاة والتزمت الشديد , ولربما كان مرجع ذلك الى ان كثيرا من انصار الدعوة كانوا من البدو الذين اساؤا فهم مبادئ ابن عبد الوهاب فقالوا في تكفير من لم يعتنقوا مبادئهم واوجبوا قتلهم وشنوا من اجل ذلك غاراتهم على المدن المقدس في العراق سنة 1801 م ثم اتجهوا نحو بلاد الشام وهددوا دمشق وحلب وكانوا لا يزالون هناك في سنة 1811 م حين استجاب محمد علي باشا لنداء السلطان العثماني وارسل جيشه لقمع نشاطهم كذلك يرى المؤرخ المصري الدكتور احمد عبد الحليم مصطفى انها تقف (في اقصى الجناح اليميني المحافظ) وهي تمثل برفضها للعلمانية والعصرية والاقتباس عن الحضارة الغربية وجربها (وراء سراب الحكومة الدينية الاسلامية في صحاري الحجاز واليمن) وبمعادتها للغرب ... وما صدر عنه من افكار ومنجزات تقدمية , اتجاها رجعيا .

وينتقد الدكتور فهمي جدعان زميله الدكتور مصطفى على رأيه هذا ويتهمه بتخطي الشروط الموضوعية للحكم , وجهل بقيمة المعطيات السيسيولوجيا والتاريخية للمشكلة الوهابية . ويقول : ان الدكتور مصطفى يبسط الامور الى درجة يظن معها ان مشكلة الحركة الوهابية نفسها كانت تكمن باللذات في ضرورة (الاقتباس) عن الغرب . وهذا بكل تأكيد , هو الاخر ما ينبغي ان يطلب من اصحاب هذه الحركة في الظروف التي رافقت نشأتها وتطورها . فكل ما يمكن قوله ان الوهابية لم تدفع , عمليا واجتماعيا , بعودها السلفي الى نتائجه المنطقية اللازمة , فقد ظلت حبيسة اطر ثقافية عاجرة اصلا عن استخدام الينابيع السلفية لأغراض العالم الحديث . وان الاسهام الذي قدمنه الفكرة الاساسية في الوهابية قد كان , على الرغم من خطورته واهميته , محدودا جدا وفي حاجة الى اغناء وتطور وخاصة في المناطق التي لم تكن تبعد عن قلب العالم الحديث بعد الجزيرة العربية عنه , اي في البقاع التي لم تكن للعقيدة الاسلامية فيها السيادة المطلقة , ولعل مصر في مقدمة تلك المناطق حيث برزت مسألة الاقتباس عن الغرب والموقف من الحضارة الاوربية والغزو الاوربي واضحة في اراء وافكار المصلح جمال الافغاني وتلامذته كما سنرى .

وبرغم ما رافق الحركة الوهابية مشاكل , وما اتصل بها من عنف , فقد هزت الركود الذي كان عليه المجتمع العربي على نحو ما فعلته حركة الاصلاح الديني في اوروبا . فانتشرت أصداءها في الولايات العربية ووفرت نموذجا للثورة على الحكم الفاسد والمجتمع المنحل , ولو كان حكما مسلما , كما كانت مصدر الهام لكثير من الحركات والدعوات الاصلاحية في القرن التاسع عشر فقد وصف جان ريمون , وكان قنصلا لفرنسا في بغداد سنة 1806 م وعاصر دخول الامير محمد بن سعود مكة رد فعل الجماهير بقوله : ان روح الفتح استأثرت بقلوب الجماهير , فراحت تستعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد القديم , واخذت الاحلام تراودها برؤية امرائها متربعين على كرسي الحكم . والفقرة التالية تدلل على صحة رأيي : امس قال احد الوهابيين وبلهجة نبي يتنبأ :(لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربيا على عرش الخلافة , وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة

العيش تحت نير مغتصب) . ولقد ظهر من الرسائل التي كان يرسلها الدعاة الوهابيين الى الولاة العثمانيين التركيز على الناحية العربية من الاسلام , اذ جاء في رسائل عليان الضبيني احد قادة سعود بن عبد العزيز الى يوسف باشا كنج والي دمشق قوله : (ونحن اعراب , ونبينا محمد عربي , واصحابه اعراب) . وقال احد الائمة الوهابيين بفخر حين كان يتحدث عن الامامة : (انه اذا كان نوالها بالاختيار فالهرب احق بها من الاتراك) . ولقد احدثت الحركة الوهابية صدمة في نفوس العرب , ودفعت الكثيرين الى احياء ذكرى العهد العربي الاول , ومن ثم الى اعمال الفكر في حاضرهم المختلف وتلمس وسائل النهضة وسبل التغيير , مما لدى الى اكتسابها كما يقول بعض المؤرخين , ملامح قومية جعلتها تمثل خطوة حاسمة في يقظة الوعي العربي القومي . وهناك مؤرخون اخرون يعدونها اول حادث جليل هز حبل الارتباط بين الدولة العثمانية والاقطار العربية . ويقارن الدكتور عبد العزيز نوار بين تأثير الحركة الوهابية والعزو الفرنسي لمصر ويرى ان هناك اوجه شبه وتناقضا بينهما كذلك . فهما نظره حدثين هزا الوطن العربي هزا عنيفا وكل منهما هدد كيان الدولة العثمانية وتجدي سلطتها , وايقظ في الناس روح التفكير والنقد واعادة النظر في المجتمع العربي وفي اساليب الحكم , وكل منهما دفع بالمنطقة الى افاق دولية جديدة , ولكن بينما كانت الحملة الفرنسية , حركة استعمارية اجنبية كانت الحركة الوهابية اصلاحية ثيوقراطية دينية محلية .

ظهرت اثار الحركة الوهابية , وقوة محركة ودافعة في الكثير من المناطق الوطن العربي . فقد استلهمها محمد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا وبعض دول افريقيا كما سنرى كانت مثالا للحركة المهدية في السودان . وبلغ اعجاب سلطان مراكش مولاي محمد بن عبد الله 1757-1790 م بها جدا جعله يردد في مجالسه (انني مالكي المذهب , وهابي المبدأ) ,

وكتب المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي , الذي عاصر الفترة المهمة في ظهور الوهابية . وتابع اهتمام وتعاطف من القاهرة والاخبار التي كانت ترد في الجزيرة . ان الوهابيين حين دخلوا المدينة المنورة (لم يحدثوا فيها غير منع المنكرات) . وفي اليمن دعا الامام الشوكاني المتوفي سنة 1834 م في كتابه القيم (نيل الاوطار) الى عدم زيارة القبور والتوسل بها . وحارب التقليد ودعا الى الاجتهاد وخاف تلامذة كثيرين يدينون برأيه وفي مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم اب عبد الوهاب تملأ الجو , فعاد الى اصولها وادى اجتهاده وبحثه الى الاساسين الذين تأثروا بالحركة الوهابية عدد من المفكرين الذين سنتحدث عن بعضهم فيما بعد منهم مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط فاخوري ومفتي بغداد محمد شكري الالوسي وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا وغيرهم وفضلا عن ذلك , فقد فتحت الحركة الوهابية برفضها البدع الباب الدراسة النقدية للمؤلفات المتصلة بالسنة والشريعة .

المحاضرة الثانية - الحركة السنوسية

أ . بدء الدعوة السنوسية :

كانت الحركة السنوسية في بدء نشأتها . طريقة صوفية تدعو الى تقوى الله والعمل الصالح واحياء الاسلام في بساطته الاولى , وتخليصه من شوائب البدع والدعوة الى العمل الصالح المنتج . مؤسس هذه الحركة مخمد بن علي السنوسي , االذي ولد في قرية (الواسطة) قرب مستغانم بمقاطعة وهران الجزائرية في 11 كانون الاول سنة 1787 م . وترجع تسمية الاسرة بالسنوسية الى جده الرابع الذي كان من كبار علماء المسلمين وكانت اسرته ذات سمعة علمية تحظى بالاحترام . وقد اقبل منذ حياته الاولى على العلم وادرك حاجة المجتمع العربي الاسلامي الى الاصلاح , مما حفزه على الاستزادة من العلم , فانتقل الى فاس حيث جامع القرويين واقام هناك سبع سنوات , يطلب العلم ويدرسه , وفي غضون ذلك صار له تلامذة عديدون , ونال شهرة كبيرة . وقد اهتم بدراسة الحركات الصوفية المنتشرة آنذاك وخاصة القادرية والشاذلية وتألم لقلة الحماسة لدى علماء المسلمين وانصراف الحكام والمسؤولين في الاقطار العربية والاسلامية الى الاهتمام بمصالحهم الخاصة . وتألم لما اصبح عليه العرب والمسلمون في تدهور في اوضاعهم العامة , وهزت في نفسة انباء الغزو الاستعماري الاوربي لبعض الاراضي العربية بحيث صارت (المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من ايدي المسلمين في اي وقت وبسرعة البرق) . ولقد اشعرته هذه الاوضاع بضعف العرب والمسلمين اقتصاديا ودينيا واجتماعيا . وبضعف الدولة العثمانية وعجزها عن مواجهة هذا التغلغل الاستعماري الذي احرز نجاحات متعددة وخاصة في المغرب العربي . لذلك فقد قرر نشر دعوته الهادفة الى اقامة مجتمع جديد قوي مقتدر على مواجهة التحديات فقام برحلات واسعة الى بعض الاقطار العربية بهدف تكوين صورة واضحة لما كانت تمر به من ظروف آنذاك , والاحتكاك برجال العلم والفقه منها . فترك فاس الى لاغوات في جنوبي الجزائر وهي مركز مهم تتجمع فيه القوافل الاتية من السودان الغربي . ثم توجه نحو فاس وطرابلس وبنغازي , ووصل الى القاهرة سنة 1823 م اقام فيها فترة من الزمن , اتصل خلالها ببعض علماء الازهر ودخل معهم في حوار , حول اسس دعوته وطبيعة المنهج الذي يراه لإصلاح اوضاع المسلمين آنذاك . ثم ذهب الى الحجاز سنة 1825 م املا في الالتقاء بأكبر عدد من المسلمين هناك . وحين قرر العودة الى بلاده . لم يستطع , وقد احتلها الفرنسيون سنة 1830 م . لذلك رحل وطاف بجنوب الجزائر حيث لم يكن قد سقط بعد في يد الفرنسيين .. ثم غادر الى القاهرة فالحجاز مرة ثانية , وفي الحجاز اقام زاويته الاولى فوق جبل ابن قبيس بمكة سنة 1837 م .

ب . مؤسسة الزاوية السنوسية ووظائفها :

لقد ادرك السنوسي , بعد ان وجد بلاده محتلة من قبل الفرنسيين , عظم المخاطر وشدة التحديات التي كان يوجها العرب والمسلمون آنذاك . ويأتي في مقدمتها الاستعمار الاوربي المسلح بحضارة حديثة والسلطنة العثمانية التي اصبحت قيدا على الاقطار العربية , بحيث تعوق انطلاقها , ومن ثم فقد غدت بما تمثله من ضعف وانحلال وجمود , ثغرة واسعة تتيح للغرب الاوربي السيطرة على ولايتها الواحدة بعد الاخرى , لذلك امام تلك التحديات , لابد من اعداد الانسان العربي اعدادا خاصا . ومن (الرباط) الاسلامي الاول استلهم السنوسي فكرة الزاوية التي ارادها ان تكون مركز الحياة الجديدة التي يطمح الى اقامتها وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره في المدى الطويل . وبعد

ثلاث سنوات غادر الحجاز الى مراكش , واستقر في فاس يمارس التدريس ويدعو الى طريقته الجديدة , لكن حكومة مراكش خشيت من انتشار دعوته , وضيقت الخناق عليه , فاضطر الى مغادرتها متوجها الى طرابلس الغرب سنة 1841 م ومن طرابلس اخذ هو وانصاره يسهمون في بعض حركات المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي وخاصة في الفترة من 1848 م وحتى 1861 م . وفي الزاوية البيضاء على الساحل الليبي كانت الزاوية الثانية التي اقامها في برقة . وبعد ذلك علد الى الحجاز للمرة الثالثة . فاقام بها ثماني سنوات ومنها نشر طريقته في انحاء عدة من الحجاز واليمن . وتأسست لها الزوايا في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة ورباح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان .. ثم غادر الحجاز عائدا الى الجبل الاخضر بليبيا , فاستقر هناك منذ سنة 1854 م مؤسسا الكثير من الزوايا لتكزن مركز ليست للعبادة والتعليم فقط . وانما لكي تضم كافة جوانب النشاط والانتاج .

كانت الزوايا بمثابة المؤسسة الحكومية . وكان على رأسها قائد يسمى (مقدم الزاوية) يوجه الاهالي ويحل مشاكلهم ويحثهم على مزاولة الانتاج الزراعي . اما شيخ الزاوية فيتولى التعليم والقضاء ومع المقدم وكيل يشرف على الزراعة وشؤون الادارة والمال والاقتصاد . وللزاوية مجلس يتألف من المقدم والوكيل والشيخ ورؤساء القبائل المجاورة للزاوية ووجهائها . وفي الزاوية مسجد للصلاة والتعليم . ومنزل لقائدها وللوكيل وللشيخ وفيها بيوت الضيوف وعابري السبيل وللفقراء الذين لا مأوى لهم . وفيها مساكن للخدم ومخازن للمؤن واصطبل ومتجر وفرن وسوق .. وتحيط بهذه المباني المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم . وللزاوية ارض زراعية خاصة بها . وابار جوفية وصهاريج حفظ المياه . وتزرع أرض الزاوية جماعيا وبدون اجر . واما انتاجها فينفق على احتياجات فقرائها وضيوفها . غذاء وكساء وتعليما وما شاكل . وما بقي يذهب الى المركز الرئيس للطريقة .

لقد انتشرت حركة بناء الزوايا , واحصى المؤرخون منها مائة وثماني وثمانين زاوية , خمس وعشرون منها في شبه الجزيرة العربية وسبع وتسعون في ليبيا , وسبع واربعون في مصر , وسبع عشرة في السودان , واثنتان في تونس . وقد حولت تلك الزوايا , التي انتشرت في مناطق صحراوية الارض القاحلة الى واحات خضراء ومن هذه الزوايا انطلق الدعات السنوسيون الى منطق البدو والقبائل العربية في الصحراء وفي قلب افريقيا , ينشرون الاسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر , ويحاربون البدع والعادات والتقاليد الجاهلية . ويدعون في الوقت نفسه الى محاربة المستعمرين والحيلولة دون تمكنهم من ارض العرب والمسلمين .

ج . تطور الحركة السنوسية :

اتخذ محمد بن علي السنوسي وعرف بالسنوسي الكبير لذلك (1787 – 1859 م) من واحة الجغبوب الواقعة جنوبي واحة سيوه من الغرب بمقدار (30) ميلا مركزا لحركته واتباعه . وقد اختار الجغبوب لأنها كانت اكثر توسطا واسهل اتصالا بأنحاء اخرى من برقة وطرابلس والسودان الغربي . كما كانت مركزا كبيرا للقوافل وانشأ بها مدرسة دينية ومكتبة ضمت الاف المجلدات في

الفقه والحديث والتاريخ والفلك والفلسفة والتصوف . وكانت المدرسة تضم كل سنة قرابة ثلاثمائة طالب يتحولون بعد تخرجهم الى قادة ودعاة للحركة . ولم يمض وقت طويل حتى اصبح للسنوسية اتباع كثيرون في شية الجزيرة العربية وفي افريقيا من مراكش الى الصومال . وبفضل حركة الدعوة التي قادتها السنوسية دخل الاسلام واكتسب انصارا في النيجر , والكونغو , والكاميرون , والداهومي , وحول بحيرة تشاد التي اصبحت مركزا في اواسط افريقيا ودان بتعاليمه من حولها اربعة ملايين من السكان الافارقة , حتى ليقال ان السنوسيين هم الذين صنعوا الحزم الاسلامي لافريقيا جنوبي الصحراء . ويشير احد الرحالة وهو كوبولاني الى اسلوب الدعاة السنوسيين فيقول انهم كانوا يدخلون المناطق تارة بهيئة تجار وتارة اخرى بهيئة دراويش . وبعد ذلك يبنون الزوايا , لينشروا الاسلام بين القبائل الوثنية التي كانت تستوطن قلب افريقيا وغربها . ولم تقتصر مهمتهم على ذلك , بل قاموا بالتوغل في الناطق التي شهدت محاولات الغرب الاستعماري في شمال ووسط افريقيا للسيطرة عليها ووقفوا الى جانب سكانها في نضالهم . ويشكو السياسي الاستعماري جابرييل هانوتو (1853 – 1944 م) وزير خارجية فرنسا من تفاقم نشاط السنوسيين ومعاداتهم للفرنيين فيقول : (لقد اسس الشيخ السنوسي , وفي جهة ليست بعيدة من الاصقاع التي تلي املاكنا في الجزائر مذهبا خطيرا , له اشياع وانصار . ومن مذهبهم التشدد في رعاية القواعد الدينية . ولقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية (العثمانية) بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية (الاوربية) .. وهم يطرحون حبائل الدسائس التي اوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقيا الجنوبية ..فهناك نرى درويشا فقيرا , متدثرا باردیته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء , ويلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلوب عن شيء .. ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية .. يبذر في القلوب , حيثما حل واينما توجه , بذور الحقد والضغينة علينا .. انهم يخترقون , بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية , فيستقبلهم اهلوها بالترحيب .. مما يستوجب العجب والدهشه انهم يجمعون من الاموال والصدقات ما يزيد عن ضعف المبلغ الذي نجبيه من الضرائب كل سنة من اهالي الجزائر ..) .

اخذت القوى الاوربية تتوجس خيفة من السنوسيين ونشاطاتهم المتعددة ولا سيما في مجال نشر الاسلام ومقاومة الغزاة . وقد قامت الارساليات التبشيرية الاوربية التي شكلت طلائع الغزو الاستعماري الاوربي بالضغط على حكوماتها , والتوسط لدى الكومة العثمانية للحد من نشاط السنوسيين الذين رفضوا منذ البدء الاعتراف بالسيطرة العثمانية واعلنوا بالسان شيخهم وقلمه ان الخلافة لابد وان تكون عربية قريشية لذلك فان السنوسيين واجهوا ضغوطا عديدة , فالعثمانيون بدأوا في ملاحقتهم مما اضطر زعيمهم المهدي السنوسي (1844 – 1902 م) الذي خلف اباه في قيادة الحركة , وكان له فضل تحويلها من حركة دينية الطابع الى حركة دينية – عسكرية سياسية قوية زادت من اهميتها وخطورتها , الى ترك الجغبوب في سنة 1894 م الى واحة موغلة في الصحراء تدعى (الكفرة) بعد ان رفض محاولات السلطان عبد الحميد الثاني , لاستقدامه الى استانبول والعيش فيها تحت رقابة السلطة ولقد سبب انتقال السنوسيين الى الكفرة من اصطدامهم مع الفرنسيين المستعمرين الذين كانوا يتوسعون حول بحيرة تشاد . وقد كانت نتيجة الصدام حدث في سنة 1900 م ان انهزم السنوسيين وفي سنة 1902 م مات المهدي السنوسي , فعاد اتباعه

الى مقرهم في الكفرة في الوقت الذي بدأ فيه الايطاليون المستعمرون غزوهم لطرابلس فشكل السنوسيون آنذاك عصب المقاومة ضد الغزاة .

اتجاهات حركة النهضة الحديثة

في الوطن العربي ونشوء الحركة

القومية العربية

شهدت الفترة من ١٩٠٨ – 1914م تنامي الوعي القومي العربي ،وقد سبقت حركة الوعي القومي هذه، نهضة فكرية بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر، وشملت مختلف جوانب الحياة العربية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولما كان لكل حركة قومية أن تضمن لنفسها واقعا تعمل من خلاله ، فقد أثمرت تلك النهضة الفكرية واخذ صداها يترك اثارة على الأوضاع السياسية. وستعرض اولا لدوافع حركة النهضة العربية.

دوافع حركة النهضة العربية :

اشرنا فيما سبق إلى التنظيمات العثمانية وما احدثته من تغييرات في الواقع الأقتصادي والاجتماعي، خاصة فيما يتعلق بحدوث انقلاب في طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل القبيلة، وتعاون رؤساء العشائر واثرياء المدن في الاستحواذ على كثير من الأراضي الزراعية والقرى وظهور طبقة الملاكين (Landlords).

لقد ازداد الطلب على المنتوجات الزراعية والحيوانية نتيجة للتغلغل الاستعماري الأوربي في الوطن العربي وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية نحو الولايات العربية، واتجاه التجارة الأوربيين الى جعل هذه الولايات كلها منتجة للمواد الأولية والغذائية وسوقا لتصريف بضائعهم المصنوعة ومجالا لأستثمار أموالهم ، في اقامة المشروعات او تقديم القروض محاولة ربط اقتصادها بالسوق العالمية. وتحت تأثير ضغط الملاكين الجدد اتجه الاقتصاد في معظم الولايات العربية، من اقتصاد طبيعى يسد الحاجة المحلية الى اقتصاد التسويق القائم على الربح. وقد تفاوتت الولايات العربية في حجم التطور الذي حصل في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، العوامل جغرافية وتاريخية. كما سبق أن قدمنا فقد اسهمت البنوك في تسهيل عملية التعامل المصرفي، ومعظم المصارف التي تأسست في الولايات العربية، كانت برؤوس أموال أجنبية. واصبح للتجار العرب فعاليات مهمة في مجال الاستيراد والتصدير ، وكان لتلك النشاطات أثر كبير في نشوء فئات برجوازية تجارية جديدة ، واصبح لهذه الفئات وزن منهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ،وكان لهذه الفئات كذلك صلة قوية بالعوامل الإقطاعية المحلية. وقد اخذت تلك الفئات تثبت وجودها وتعبر عن واقعها بشكل او بأخر . وكان كل تغيير في ذلك التعبير يعتمد إلى حد كبير على مدى تطورها، خاصة في امكاناتها لايجاد مواقع ثابتة لها في الحياة الاقتصادية وبالرغم من المواقع الاقتصادية التي احرزتها الفئات البرجوازية تلك، إلا أنها لن تستطع أن تتحول إلى قوة مستقلة في البناء الأجتماعى، زيادة على ذلك ان شرائح عديدة

من هذه الفئات امثال صغار التجار واصحاب الدكاكين الحرفية وغيرهم كانت تلاقي الكثير من اضطهاد رأس المال الأجنبي والبرجوازية الكبيرة. الا أنها بحكم واقعها لم تستطع التحرك باتجاه من شأنه فرض رياح التغيير على مجتمع المدينة . وربما كان المثقفون (الأنتلجنتسيا Intelgentelsia) ، وهم القطاع الديناميكي المتحرك داخل البرجوازية ، الوحيدين الذين بدأوا يتحركون بمثل ذلك الاتجاه. والمثقفون اساسا هم من ابناء العوائل الكبيرة، ومن البيوتات التجارية المعروفة انذاك

لقد رافق ظهور تلك التطورات في البنيان التحتي للمجتمع انعكاسات طبيعية في البناء الفوقي . وتحددت الظروف الموضوعية الجديدة التي حتمت تغيير المجتمع التقليدي القديم. واخذ الناس يفكرون بأسلوب جديد ، وينظرون الى الأشياء والمتغيرات في الحياة نظرة واقعية من السابق، وانتشرت بين الموظفين وضباط الجيش والمعلمين والتجار والكتاب افكار جديدة تتعلق بالمجتمع وكيفية تنظيمه، لاسيما فكرة تنظيم المجتمع على اساس وطني يقوم على اساس الولاء القومي والوحدة القومية وينضم تحت لواءها العرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وطوائفهم، وطبيعي أن هذه القفزة حدثت بعد جمود استمر قرون عديدة، بفعل التطور الاقتصادي - الاجتماعي . وساهم في صقلها الاحتكاك بالفكر الاوربي ومكتسبات الحضارة العلمية والتكنولوجية. ولم يجر ذلك ضمن الوطن العربي كله - على مستوى واحد ابل تأثر بعوامل كثيرة منها عامل الموقع. وقد تجلى التغيير في مجالات عديدة منها الأدب الذي بدأ منذ ذلك الوقت يبحث عن اشكال جديدة متميزة عن المفاهيم العثمانية الكلاسيكية التي كانت تسود العصر مثل الاستناد إلى قدسية الخلافة العثمانية وسيادة الدين . وقد ربطت كثير من القصائد التي نظمت في أقطار عربية عديدة خلال هذه الفترة بين تأخر الأمة العربية وسوء الادارة العثمانية، ولاقت بعض القصائد رواجا كبيرة بين المثقفين تضمنته من نزعة عربية واضحة وتبرم ونفور من الحكم العثماني .

كما تجلى التغير في ظهور المدارس الحديثة على النمط الأوربي من حي وجود منهج يتضمن مفردات المواد الدراسية واغراض تدريسها ويقوم بتدريس هذه المواد معلمون مؤهلون وفق كتب مؤلفة في ضوء محتوى المنهج المدرسي وبامتحانات منظمة وجداول دورس اسبوعية . لذلك فقدت المؤسسات التعليمية الدينية التقليدية اهميتها وقل اقبال الطلاب عليها وصار عددها يتناقص وتأثيرها يضعف في المجتمع .

وقد اسهم نشاط الإرساليات التبشيرية التي وجدت طريقها إلى بعض الولايات العربية منذ القرن السابع عشر، في قيام حركة فكرية ويمكن تقدير أهمية وجود هذا الإرساليات اذا علمنا بانها عملت على ادخال اللغة العربية والعلوم الحديثة ضمن مناهج مدارسها. لهذا ازداد الاقبال على المدارس التبشيرية لاسيما من قبل ابناء العوائل الثرية، وكان من أسباب هذا الإقبال كذلك أن المدارس الرسمية العثمانية كانت تدرس باللغة التركية. هذا فضلا عن أن المدارس التبشيرية اخذت تهتم بقضايا اجتماعية كثيرة، كالموسيقى والشرح مما جلب انظار الناس اليها. كما حدث عندما قدمت المدرسة الاكليريكية للاباء الدومنيكان في الموصل سنة ١٨٩١م اول مسرحية في تاريخ العراق الحديث، والتي كانت تدور حول حياة الفلاح وعلاقته بالأرض.

لقد شهدت الولايات العربية، كما اشرنا إلى ذلك من قبل، قيام عدد من المطابع . وعلى الرغم من أن نشاطها كان محدودة ، لكنها ساهمت في طريقة التطور نحو الوعي الثقافي بين طبقات السكان

المختلفة، وتهيئة الأجواء القومية كذلك. فسرعان ما اخرجت تلك المطابع العديد من الكتب والصحف والمجلات التي انتشرت بين المثقفين وادت عملها في ايقاظ الفكر وتنمية الثقافة

وجه الفكر العربي منذ بدء حركة النهضة، تلك جملة من التساؤلات ولقد قوت وتطورت تلك الاتجاهات بشكل خاص بعد انتصار الثورة الدستورية العثمانية في ٢٣ تموز ١٩٠٨م. اذ تأثر الوعي العربي القومي في هذه الفترة بالذات ، وشهدت السنوات من ١٩٠٨ - ١٩١٤م تنامي الوعي القومي للعناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية. ولم يشذ العرب عن ذلك. اذ بدأوا في تشكيل الجمعيات والأحزاب السرية والعلنية والتي قامت بدور مهم في العمل من اجل التخلص من التير العثماني. ومما يلحظ أن الحركة العربية القومية، كغيرها من الحركات القومية في العالم، قد تدرجت من اتجاهات ثقافية إلى أخرى سياسية، وتطورت من تطلعات اقليمية محدودة

ضمن الإطار العثماني إلى افاق اوسع كما سيتوضح من استعراضنا لنشأتها. ومنقف اولا عند اتجاهات حركة النهضة الفكرية الحديثة في الوطن العربي.

اتجاهات حركة النهضة العربية الحديثة :

ظهرت في الوطن العربي ، اواخر القرن التاسع عشر اتجاهات فكرية عديدة، وقد ذهب مؤرخون عصر النهضة العربية الحديثة مذاهب شتى في عرض تلك الاتجاهات وتوضيح بمضامينها السياسية والاجتماعية الا انها لاستخرج ، برأينا عن الاتجاهات التالية :

1- الاتجاه الديني - الاصلاحي : ويدعو هذا الاتجاه إلى بعث نهضة اسلامية ، على غرار النهضة التي جرت في اوربا خلال حركة الإصلاح .. الديني المعروفة في اوربا بقيادة مارتن لوثر . ويقوم هذا الاتجاه على التوفيق بين الدين الاسلامي ومنجزات العلم الحديثة ، لتتمكن المجتمعات الاسلامية من التكيف مع متطلبات العصر الحديث . ويتمسك ممثلون هذا الاتجاه بالرابطة العثمانية . وهذا الاتجاه ، كما يقول الدكتور الياس فرح ، محاولة لتجاوز اتجاهين متعارضين أولهما الاتجاه الديني التقليدي الذي يمثل = النظرة الشكلية غير الجوهرية للإسلام فيطمس جوهرة الحضاري ، ويأسر الفكر ضمن اطار التقليد والمحاكاة القديم ويغلق باب الاجتهاد ، ويبعد المجتمعات الاسلامية عن التفاعل مع التطور العلمي والحضاري الحديث اما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه العقلاني العلماني الذي ينطلق من نظرة خارجية إلى الواقع ويتجاهل الصلة الطبيعية بين الماضي والحاضر ، ويقفز إلى مستقبل الاصلة له بهذه الديمومة التاريخية الواقعية ، فتتخذ تصوراته الاصلاحية

طابعة طوباويا مغرقة في رد الفعل وفي الذاتية ويرتدي «أحلام تقدمية ومن ابرز ممثلي الاتجاه الديني الاصلاحي جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-1897م) و محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠5م) ومحمد رشيد رضا (1865-1925م)

جمال الدين الأفغاني :

ولد جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٣٨م في مدينة سعد آباد افغانستان ، وقد تلقى دراسته الأولى التي اقتصرت على اللغة العربية والعلوم الدينية او الفلسفة والرياضيات على الطريقة التقليدية في التعليم آنذاك . ثم سافر إلى الهند واقام بها قرابة سنة درس فيها العلوم الأوربية الحديثة ، وقد ادى فريضة الحج سنة ١٨٥٧ ثم عاد إلى بلاده الينتظم في سلك الوظيفة الحكومية. لكنه ترك افغانستان قاصدة

مصر لأول مرة سنة ١٨٧٠م ومنالك تعرف على شاب ازهري هو الشيخ محمد عبدة وكان هذا اللقاء اثر حاسم في حياتهما ، اذ اصدر الاثنان بعد ذهابهما إلى باريس سنة ١٨٨4م ثمانية عشر مجلدا من مجلة عربية تدعى (العروة الوثقى) خصصت معظم صفحاتها لتحليل سياسة الدول العظمى ومواقفها من العالم الاسلامي . كما عالجت موضوع تخلف المسلمين انذاك . وكانت لغة المجلة من اختصاص محمد عبده ، اما التفكير والتحليل فكان من نصيب الافغاني ، وهكذا أصبحت ، بفضل لغتها وفكرها معا ، من اشد المجلات العربية تأثيرا على المثقفين انذاك .كما اسسا جمعية سرية من المسلمين المصممين على العمل من اجل وحدة الاسلام واصلاح شؤون المسلمين . لكن مدى انتشار هذه الجمعية ما يزال غامضا، مع انها كانت ذات فروع في تونس واقطار عربية أخرى .

كان الأفغاني يميل بطبعه إلى الرحلات ، واستطلاع اوضاع العالم الاسلامي . وقد صرف جزءا كبيرا من حياته في القاء المحاضرات التي كرسها لفضح اثر الاستعمار على الجوانب المختلفة لحياة الشعوب الإسلامية. وكان العلاج الذي يقترحه دائما هو تمسك المسلمين بإسلامهم ، وعلى وجه اخص الجهاد في سبيل الله، والقيام به لانه كان يرى ضرورة الثورة على الاستعمار الاوربي باعتباره مصدرا للفساد والضعف في حياة المسلمين في آسيا وافريقيا . ومن ثم كان برنامجه ، كما أورده في العروة الوثقى

(خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الوا.. انت الي كان التفريط فيها موجبة للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي كان يجب سلوكها تدارك مافات والاحتراس من غوائل ما هو آت ، و يستتبع ذلك البحث في اصول الأسباب ومنا شيء العلل التي ذهبت بهم، إلى جانب التفريط و البواعث التي دفعت بهم إلى مهام وعرة عميت فيها السبل واشتبهت فيها المضارب...وان الظهور في مظهر القوة الدفع الكوارث، انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم ... ودفع ما يرمي به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرة لهم بحالهم ، ولا وقوف على حقائق امورهم وابطال زعم الزاعمين أن ان المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على اصولهم التي فاز بها آباؤهم الاولون) . .

أثارت شخصية الافغاني وآراؤه ، في اثناء اقامته بباريس كثيرة من الاهتمام بين الأوربيين المعنيين بشؤون العالم : الإسلامي. وقد دخل في نقاش مع المستشرق ارنست رينان حول موقف الإسلام من العلم . كما استفاد من علاقته الشخصية بالفرد بلنت Blunt (وهو من السياسيين الانكليز ، زار مصر سنة ١٨٨٠م واستقر فيها برهة من الزمن)، لينقل وجهة نظره فيما يتعلق بمستقبل مصر والسودان السياسي . و كان بلنت الذي ألف كتابة ضمنه ملاحظاته وأفكاره نشر سنة ١٨٨٢ م باسم ((المستقبل الإسلام))، يعطف على الحركات القومية في الهند ومصر وقد قضى الأفغاني سنة 1885م بعض الوقت في لندن ، حيث حل ضيفا على بلنت، للبحث في مستقبل مصر مع السياسيين الانكليز . وقد أوفدت الحكومة البريطانية السر هنري درموند وولف إلى استانبول البحث في مستقبل مصر مع السلطان العثماني على أن يذهب الأفغاني لمساعدته في المفاوضات، غير أن هذه الخطة فشلت. وحين يئس الأفغاني من امكانية ايجاد حل القضية المصرية ذهب. الى ايران ليساهم في حركة المعارضة ضد امتياز التبوغ الذي كان الشاه .

ناصر الدين (١٨٣١ - ١٨٩6م) مصرة على منحه الى شركة بريطانية لذلك طرد الافغاني وحملة الجند الايرانيين ليلقوه مريضة على الحدود العراقية - الايرانية بالقرب من البصرة. وقد مكث في البصرة ريثما عادت اليه صحته وفي ١٨٩٢م، دعاه السلطان عبد الحميد إلى استانبول ، وهناك انهى الافغاني - بقية حياته اشبه بسجين في بلاط السلطان وان احيط بالإكرام حتى توفي اواخر سنة ١٨٩6م .

تعد حركة الافغاني ودعوته استمراراً الحركات الدينية الاصلاحية التي سبقتها ، وخاصة الوهابية والتي تشترك جميعها في الكفاح من اجلى الحفاظ على سلامة الفكر واهله من التعديات والتشويهات التي اصابته من الداخل والخارج. الا ان مايميز حركة الأفغاني عن غيرها من الحركات هي انها ، كما يقول الدكتور فاضل زكي محمد ، حركة سياسية اتخذت مناهج اسلامية حديثة . ويتمثل هذا المنهج الاسلامي الحديث في التمييز مابين الاسلام الأصيل الذي لايقف امام التطور والتقدم ويتماشى مع احدث اساليب الحكم وبين الاسلام المفترى عليه الذي التصقت به خصائص مصطنعة لا تمت اليه بصلة والتي أظهرته بصورة الدولة والنظام المتصلب والمنعزل ، وتعاون على اظهار صورته المصطنعة هذه مفكرون غربيون

اسموا انفسهم بالمستشرقين .

آن محور افكار الافغاني يدور حول بناء مجتمع اسلامي سليم متماسك موحد يأخذ بكل اساليب التقدم والحياة الحديثة التي لاتتعارض وروح الاسلام. فعلى الصعيد الداخلي، انتقد الافغاني الأوضاع السياسية في العديد من الأقطار الاسلامية ورأى أن وضع دستور يجدد العلاقة بين الحاكمين والمحكومين امر ضروري لتوفير حرية الشعب في القول والعمل. كما هاجم الافغاني الذهب المادي، شارحا اخطاره ومضاره على المجتمع الإسلامي ، لقد رأى أن الضعف الحقيقي للمسلمين بدأ بظهور المذاهب الطبيعية والدهرية والباطنية ووصف هذه المبادىء بانها هدامة تسعى لتفرقة المسلمين عن طريق التشكيك بعقيدتهم وبالتالي افسادها اما على الصعيد الخارجي فقد ربط الأفغاني بين الاستعمار. الاوربي والضعف الداخلي. لذلك فعلى المسلمين أن يعملوا على أن يكونوا سادة انفسهم في الداخل والخارج والسبيل إلى ذلك هو الالتفاف حول المباديء – الحقة للاسلام والتي توصلهم إلى تحقيق حريتهم وقوتهم ووحدتهم، ويقصد الأفغاني بالوحدة ، كل شعب اسلامي من الداخل واتحاد الشعوب الاسلامية مع بعضها في اهدافها وفي ظل وحدة اسلامية وبذلك فقط يستطيع المسلمون القضاء على التعصب المذهبي والسلبية والعنف وتسلط الأجنبي.

لم يدع الأفغاني، كما أشار جرجي زيدان وجارلس ادامز، إلى توحيد كلمة: الإسلام ولم شمل المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة يقودها الخليفة الأعظم الذي لا يشاركه في الحكم احد. وانما كان يدعو إلى ان اشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الآشوري و انتخاب نواب عن الامة هو البديل الاشكال الاستعباد الذي عرفه الشرق انذاك، فالقوة المطلقة تعني الاستبداد ولاحياة للدولة الا برجل قوى عادل يحكم الأمة باهلها (على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان).

حاول السلطان عبد الحميد الاستعانه باراء الافغاني المتعلقة بالوحدة في الدعوة إلى حركة الجامعة الاسلامية التي تبناها السلطان انذاك لتحقيق بعض المصالح السياسية على الصعيدين الداخلي

والخارجي . فعلى الصعيد الداخلي سعي السلطان عبد الحميد للظهور بمظهر التقي الورع، فطهر قصوره من الخمور والمجون واولى الشؤون الدينية عناية كبيرة. فعلى سبيل المثال. امر في سنة(1898م)بأن يتلى المولد النبوي الشريف في مدارس استانبول كافة واهتم بتشييد مساجد و تكايا كثيرة، كما كان من مظاهر تطبيق سياسة الجامعة الاسلامية تقريب العرب واستعمالتهم، اذ اسند عبد الحميد مناصب كبيرة إلى بعض العرب، فمثال ذلك عين عزت باشا العابد سكرتيرا ثانيا البلاط ونعوم باشا معاونا. لمستشار وزارة الخارجية، ونجيب ملحمة باشا رئيسا لجهاز الجاسوسية . كذالك زاد عدد الضباط العرب في الجيش العثماني، وفضلا عن ذلك شكل من الجنود العرب وحدات عسكرية وضمها إلى حرسه الخاص . كما دعا قسما من كبار رجال الدين العرب للاقامة في استانبول، واسس في استانبول مدرسة خاصة بأبناء رؤساء العشائر العربية وقيل انه فكر بجمل العربية لغة رسمية اللدولة العثمانية، ومن جهة أخرى، فقد استفاد عبد الحميد، من سياسة الجامعة الاسلامية لقبع الانتفاضات في أجزاء عديدة من دولته والتاويح بخار الاستعمار والتدخل الأجنبي، وكان هدفه من ذاك تخويف الدول الأوربية واشعارهم بتأييد المسلمين له في المستعمرات الواقعة تحت سيطرتهم لذلك فقد احيى لقب الخلافة وراح يؤكد مركزه كخليفة المسلمين.

رأي عبد الحميد أن الاعتماد على اوربا وتطبيق نظامها في الدولة العثمانية ، أدى إلى تقلص مساحة الدولة العثمانية وضياع الكثير من متلكانها، وان الانحطاط والتدهور الذي اصاب العالم الاسلامي عامة لم يكن مرده عوامل داخلية، بقدر ما كان بسبب التغلغل الاستعماري الأوربي، لذلك حاول عبد الحميد، استغلال حركة الجامعة الاسلامية ، على الصعيد الخارجي لتحرير الولايات التي وقعت نجت النير الاستعماري الاوربي. فأنشأ مدرسة في استانبول الاعداد دعاة لحركة الجامعة الاسلامية وارسل اعداد كبيرة من خريجيها للدعاية له إلى الهند وتركستان وايران والصين واقار المغرب العربي. كما سخر الصحافة كذاك في الدعاية لحركة الجامعة الاسلامية وطبع الاف من المصاحف الكريمة ووزعها في ارجاء عديدة، وقد كسب عبد الحميد تأييد الآلاف من الحجاج بفضل انشائه سكة حديد الحجاز التي كان من اهدافها تسهيل اتصال المسلمين ببعضهم. لقد عزا البعض من المؤرخين النجاح الذي حققته حركة الجامعة الاسلامية إلى مساندة جمال الدين الأفغاني لها. لكن هذا لم يمنع من أن يبدي بعض - الاحرار سواء في استانبول. او في الولايات العربية ارتيابهم من نوايا غيد الحميد واستبداده. حتى ان الافغاني نفسه كاشف عبد الحميد بما كان يعتقده ويراه،- وفي مقدمة ذلك ضرورة تعميم اللغة العربية في الدولة العثمانية وجعلها اللغة الرسمية، وتوحيد العرب والأتراك بجعلهم «امة عربية بكل مافي اللسان من معنى وفي الدين الاسلامي من عدل ، وفي سيرة افاضل العرب من اخلاق، وفي مكار مهم من عادات» لاان يعامل العرب ولغتهم بصورة تشجع على الفرقة والانقسام والانتفاض. لقد ادرك الأفغاني ان عبد الحميد لم يكن جادا فيما يدعو له بدليل استداده ورضوخه لمطالب الأوربيين مرات عديدة .

لذلك كان يحذر باستمرار من عدم السماح للمصالح السياسية لحكام المسلمين ان تحول دون الوحدة الحقيقية. واراء الافغاني هذه تلقي الضوء على حياة الافغاني المضطربة وتنقلاته المستمرة ومواقفه تجاه الحكام المسلمين ومن سيرة علاقاته العاصفة معهم،

الشيخ محمد عبده :

ولد الشيخ محمد عبده في قرية محاة نصر على ضفاف النيل سنة 1849م وادخله ابوه كتاب القرية ثم ارسله إلى الجامع الاحمدي بطنطا لتلقي العلوم الدينية وبعد ذلك بعثه إلى القاهرة ليدخل الجامع الأزهر . وهناك التقى، كما سبق أن قدمنا،باستاذه جمال الدين الأفغاني. لكن محمد عبده لم يبق طيلة حياته تلميذة الأفغاني ، كما لم تكن سنوات التعاون بينهما اخصب سني حياته . افتقد كتب له، كما يقول البروفسور البرت حوراني، أن يكون مفكرة نظامية اكثر من معلمه ، وان يحدث في الفكر العربي الاسلامي تأثيراً ابقي من تأثيره، وابعد مدى . لقد اوضح محمد عبده اراء استاذه ونظمها وسجلها وطورها في بعض المواضع. حتى ان الافغاني حين ترك مصر قال يوم وداعه لبعض (مودعيه وقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالم).

مكث محمد عبده في الأزهر بين سنتي ١٨٩٩ و ١٨٧٧م. وقد استهواه -بنوع خاص، شيخ . يدرس علم المنطق والفلسفة، وفي هذه الفترة كذلك نشر مجموعة من المقالات السياسية والاجتماعية في جريدة الاهرام. وبعد أن أنهي دراسته بنيل شهادة (العالمية) اصبح مؤهلا للعمل في التدريس. فدرس في الأزهر كما كان يلقي دروسا خاصة في داره، ثم انتقل بعد قليل إلى دار العلوم التي انشئت انذاك لتزويد طلاب الأزهر المعيدين للقضاء او التعليم في المدارس الحكومية ، بالعلوم الحديثة . وقد أسهم الشيخ محمد عبده في تحرير جريدة الوقائع المصرية واشترك في الثورة العرابية، ولما احتل الأنكليز مصر، القي القبض عليه وحكم بالنفي لانه افتي بعزل الخديوي توفيق وقد أختار بيروت للاقامة بها والتدريس في مدارسها. ثم التحق بالأفغاني في باريس، حيث مساعده في تنظيم جمعيته السرية واصدار مجلة العرب الوثقى. وتمكن الشيخ محمد عبده اثناء اقامته باريس من الاطلاع على جوانب من الحضارة الأوربية واتقن اللغة الفرنسية. وقد جذبته، بقوة مشاريع الافغاني السياسية، فزاز لندن في سنة ١٨٨4 لاطلاع الرأي العام البريطاني على اوضع بلاده، ثم سافر إلى تونس ومنها إلى مصر متنكرة على امل الالتحاق بالثورة المهدية. لكنه فشل في تحقيق طموحه فعاد إلى بيروت حيث بقي ثلاث سنوات يدرس في مدرسة حديثة أنشأتها جمعية اسلامية خيرية. وفي سنة ١٨٨٨م له الخديوي بالعودة إلى مصر، بعد أن توسط له بعض اصدقائه وهناك ان يستأنف التدريس ، الا ان الخديوي لم يكن مستعدا لتركه حيث التأثير مجددا في عقول الشباب، فعينه قاضية في المحاكم الأهلية فمفتيا) المصرية سنة ١٨٩٩ موظل كذلك حتى وفاته سنة ١٩٠5م.

لقد رأى محمد عبده، كما رأى استاذه الافغاني ، ان الطريق إلى العرب والمسلمين لايتم الا بعد تحرير المجتمع من الداخل والخارج الداخل يتطلب العمل محاربة كل انواع الاستبداد المخيمة على حياته من اجل حرية الانسان. كما يتطلب اعطاء وزن للشورى في حياة المجال خاصة الجانب السياسي، هذا فضلا عن التآخي بالاخوة الاسلامية مافهمت فهما صحيحا فانها ولاشك لاتعمل على وحدته العقلية فقط، وإنما على وحدته الكلية كذلك. وتحرير المجتمع لايتم الا تشريعات عادلة تعكس عادات وتقاليد واخلاف وعقيدة المجتمع.

هذا ان التحرير لا يقتصر على جانب واحد وانما يمتد ليشمل كل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، وبجانب هذه النظرة الشاملة للتحرير يحاول الشيخ محمد عبده ان يكشف علة الضعف الحقيقة، اذ رأى انها تكمن في القضاء على التعصب والانانية التي مردها أما (الجهل المطلق او بسبب سوء فهم الاسلام والحياة) .!

اما بشأن تحرير المجتمع من الخارج، فلقد اتفق الشيخ محمد عبده في رسائله مع استاذه الأفغاني على ضرورة السعي للتخلص من النفوذ الاستعماري الأجنبي الذي يعمل على توجيه حياة وفكر المجتمعات التي يسيطر عليها ، الوجهة التي تنسجم ومصالحه. ومن هنا يلتقي هدف تحرير المجتمع من الداخل مع هدف تحريره من الخارج. ففي كل منهما تظهر الحاجة إلى تماسك المسلمين لكي يسترجعوا قوتهم. وفي كل منهما تظهر الحاجة إلى العمل من اجل القضاء على الضعف والتخلف.

اصبح الشيخ محمد عبده بفضل كتاباته وخطبه من اوسع الناس شهرة وأحبهم إلى القلوب في مصر والتف حوله عدد كبير من التلاميذ والاتباع، ولكن هذا لم يمنع من أن يصبح له معارضين كثيرين لارائه ومعتقداته ، مثال بعض علماء الأزهر من المحافظين والخديوي عباس حلمي وغيرهم من الذين يرفضون التغيير الذي يدعو إليه الشيخ محمد عبده ويحبذون بقاء القديم على قدمه. كانت المهمة التي اضطلع بها الشيخ محمد عبده ذات شقين رئيسين: الأول تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه وتحديد ماهيته الحقيقية. والثاني تقريب المسلمين من مقتضيات التمدن الأوربي الحديث العلمية والسياسية والاقتصادية. وحين ، كان مفتين، استماع أن يضع بعض افكاره موضع التطبيق حين تشكلت لجنة برئاسته لوضع مقترحات لاصلاح الأزهر، وادخال العلوم الحديثة إلى مناهج الدراسية كما أصدر بعض الفتاوى المتعلقة بالفائدة ولبس القبعة وغير ذلك مما يسهل استفادة المسلمين من مقتنيات الحضارة الأوربية وانجاز التي لاتتناقض والاسلام الحقيقي الذي يفسح صدره للعلم ويدعو إليه، لأن العلم يكشف . أسرار الكون وذاك يفضي إلى معرفة الله و اجلاله . والشيخ محمد عباده : في تفسيره هذا ، كما يقول الدكتور أحمد، عبد الرحيم مصطفى ، يحاول التوفيق بين الاسلام نظريات المدنية الحديثة ، ويتبع طرقا من التأويل التوفيق بين الدين ونظريات العلم.

لقد بدت في بعض الأقطار العربية خلال الربع الأخيرة من القرن التاسع عشر افكارا شبيهة بتلك التي دعا اليها الأفغاني وبلورها الشيخ محمد عبده. اذ ظهرت نفس الاتجاهات الاصلاحية لدى بعض المفكرين العرب. وقد لايرجع ذالك وحده إلى تأثير كل من الافغاني ومحمد عبده، بل أن افكارهما لم تكن لتلقي النجاح الكبير الذي لقيته لولا وجود تيارات مشابهة الما عبر عنه. ففي تونس كان زملاء وتلاميذة المصلح خير الدين التونسية ومنهم محمد بيرم المتفقه في الدين الذي وضع عددا من المؤلفات عن أصلاح القانون وكتب تاريخا لعصره. وفي العراق ظهر محمود شكري الألوسي (١٨56- 1924م) الذي وضع تفسيرا مستفيضا بالقرآن، وممن عاصره الشيخ محمد عبده في سوريا واحتكوا به الشيخ طاهر الجزائري (1851-1920م) الذي سبق أن أشرنا اليه. حين تحدثنا عن دوره في تأسيس المدارس الحديثة في سوريا و انشاء المكتبه الظاهرية بدمشق. وقد أثر هذا الرعيل الرجال المصلحين في تلامذة عديدين لعل محمد رشيد رضا في سوري أبرزهم على الاطلاق.

محمد رشيد رضا :

ولد محمد رشيد رضا سنة 1865م في قرية القلمون في طرابلس من اسرة شبيهة باسرة الشيخ محمد عبده، من حيث انها فلاحية مكانة وارث من العلم والتقوى. بدأ دراسته على النهج التقليدي من انذاك. الا انه استعلاء وهو من الجيل اللاحق لجيل استاذه محمد : أن يستفيد من التعليم الحديث، إذ التحق بمدرسة رسمية في طرابلس، تعلم فيها العلوم الحديثة واللغة الفرنسية. وإلى جانب افادته

من الحركة الفكرية الجديدة التي شملت سوريا انذاك بتأثير كل من الشيخ طاهر الجزائري والشيخ حسين الجسر(1845- ١٩٠٩م) الذي ابدى في طرابلس، الاهتمام ذاته بالتوفيق بين الاسلام و العلم الحديث وتبني ما لا يهدم معتقدات الاسلام وقيمه من نزعات العالم الحديث، تأثر بكتاب احياء علوم الدين وللامام ابو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) وخاصة من حيث التوازن الذي بقيمة الغزالي بين الطاعة الخارجية للشريعة والتقوى الشخصية الداخلية التي كان محمد رشيد رضا يعلق عليها وعلى النوايا الحسنة اهمية كبرة ويعدها شرطة ضرورية لجعل الأفعال مقبولة. الا أن هذا التوازن قد اختل. لدى الأجيال اللاحقة، فتحولت التقوى الداخلية المنضبطة الى تمارين صوفية طليقة من قيود الشريعة اتخذت لنفسها طقوسة وعقائد خاصة بها. وقد تنبه رشيد رضا إلى هذا الأمر اثر انخراطه في الطريقة النقشبندية، لكنه سرعان ما اخذ يشعر بخطر الطرق الصوفية، فتركها بعد أن اطلع على افكار الافغاني وعبده من خلال قراءته لمجلة العروة الوثقى بين سنتي ١٨٨4 و1885م اى في اوائل عهد صدورها، وكذلك التقى، بمحمد عبده في طرابس سنة ١٨٩4م وغدا، منذ ذلك الوقت حتى وفاته تلميذه الامين وشارح افكاره ومؤرخ حياته. وفي سنة ١٨٩٧ م نزح الى القاهرة، وفي السنة اللاحقة، اصدر العدد الأول من مجلة (المنار التي اصبحت منبرا للدعوة إلى الإصلاح وفقا لمباديء محمد عبده .. ولكن بوثوقية اكبر ومنهجية اعظم : وقد استمر على اصدارها حتى وفاته سنة 1935م.

كانت جريدة المنار منذ تأسيسها بمثابة مدرسة ، فكرية. التف حولها عدد من الشباب المؤمن بالرابطة العثمانية والداعي إلى اقامة مجتمع اسلامي تحت راية الخليفة العثماني قاعدته مكة وله فروع في كل بلد اسلامي . واهدافه توحيد المسلمين واخضاعهم النظام قانوني مشترك وعقيدة واحدة ولغة مشتركه ومصادرة التعاليم الضارة ونشر الإسلام. وقد عدت (المنار) الخلافة جزءا لا يتجزأ من برنامجها الإصلاحي وحمل رشيد رضا العلماء ورجال الدين كثيرة من مسؤولية سيادة عدم الشرعية والخطا طيلة ثلاثة عشر قرنا.. فهم الذين جعلوا مساوىء السلطة تلبس ثوب الشرعية بدلا من محاربتهم لها . كان محمد رشيد رضا يقاوم الفكرة التي ظهرت آنذاك والرامية إلى الاستعاضة عن الخلافة العثمانية بخلافة جديدة، معدة هذه الفكرة وحيا اجنبيا من شأنه أن يخدم المصالح الأجنبية، وكان من الممكن في رأيه القبول بالخلافة العثمانية على انها (بخلافة بالضرورة)، مع انها لم تكن خلافة اصيلة، اذ كان العثمانيون يفتقرون إلى أحد الشروط الجوهرية اللاجتهاد، وهو معرفة اللغة العربية. وقد شن حملة شعراء ضد الاستبداد

وكان يردد بان سبب تخلف البلدان الاسلامية في كل ناحية من نواحي الحياة يرجع إلى أن المسلمين قد فرطوا بحقيقة دينهم بتشجيع من حكام سياسيين فاسدين. فالإسلام الحقيقي ينطوي على أمرين : القول بالتوحيد، والشورى في شؤون الدولة وقد حاول الحكام المستبدون حمل المسلمين على تناسي الأمر الثاني بتشجيعهم على التخلي عن الأول. ويعتقد محمد رشيد رضا ان بامكان المسلمين اللحاق باوربا المتقدمة اذا ما اكتسبوا المهارة التقني والحيوية التي اتصفت بها أوربا. فالسعي، كما يقول محمد رشيد رضا هو العامل المشترك بين الاسلام والمدنية الحديثة. والجهد الايجابي هو جوهر الإسلام، وهذا هو معنى كلمة الجهاد في مفهومها الاعم، والأوربيون يتصفون بهذه الحيوية اكثر من سواهم في العالم الحديث ، ولهذا تمكنوا من اكتساح العالم، فهم مستعدون لبذل حياتهم ومالهم في سبيل امتهم، والمسلمين كانوا هكذا، ويمكنهم العودة إلى ما كانوا عليه وهذا لايعني تقليد الغرب تقليدا أعمى فرشيد رضا لم يكن معجبا باوربا، الا أنه كان يرى أن مصلحة المسلمين اقتباس الجوانب النافعة من الحضارة الأوربية، ورغم اتخاذ موقفا معادية في أوربا المسيحية الاستعمارية، الا أنه

أدرك تحديات العصر الحديث ورأى أن من واجب المسلمين أن يتجهوا إلى الحضارة الحديثة طالما أنها لازمة لاستعادة قوة الاسلام.

٢ ـ الاتجاه الديني ـ القومي

ويدعو هذا الأتجاه إلى الرابطة الإسلامية والخلافة العربية وابرز من يمثله عبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٨– ١٩٠٢م) في كتابيه (طبائع الاستبداد ومصادر الأستعباد) ، و (ام القرى) .

ولد الكواكبي في حلب سنة 1848م وفيها تلقى العلم ودروس العلوم القضائية والرياضية والتاريخية . ثم عمل في الصحافة وبدأ يكتب في جريدة الفرات الأسبوعية الرسمية التي صدرت في حلب سنة ١٨٩٧م وأسس في حلب جريدة الشهباء التي صدر عددها الأول في 10 أيار سنة ١٨٧٧م. كما أصدر جريدة الأعتدال في ٢٠ تموز ١٨٧٩م وبسبب افكاره التي كان يضمنها مقالاته التي كان ينشرها في هاتين الجريدتين. فقد لاقى كثيرا من العنف والأضطهاد من السلطة العثمانية التي أدركت حقيقة اهداف الكواكي فعملت على تعطيلها واحدة تلو الأخرى. اتجه الكواكي للعمل في التجارة ، واخذ يتصل بالتجار والمثقفين والسياح الذين كانوا يؤمون حلب ، كما شرع يتصل بالشعب ويفتح العيون. وقد شعرت السلطة العثمانية بخطره فحاولت أن تشتريه» و «تقطع لسانه فعينته في ٩ آذار سنة ١٨٧٩ م عضوا فخريا في لجنتي المعارف والمالية بولاية حلب . وتقلب بعد ذلك في وظائف حكومية عديدة . فعين في ديوان المعارف فكتابة العدل فمديرية التنفيذ ، فمديرية مطبعة الولاية ، فرئاسة بلدية حلب، فرئاسة كتابة المحكمة الشرعية ، فمفتشية حصر التبغ، نرئاسة غرفة التجارة فرئاسة المصرف الزراعي في حلب .

كان الكواكبي معروفة بالصراحة والنزاهة ، لذلك فقد أخذ الكثير من المسؤولين الأتراك يثيرون، له المتاعب. وانهم مع مجموعة من وجهاء حلب بالتآمر على سلامة الدولة العثمانية والعمل على قلب نظام الحكم. ولكن المحكمة برأته من هذه التهمة. وفي سنة 1886م ، استقال الكواكبي من وظائفه الحكومية، ومارس مهنة المحاماة وكتابه (العرضحالات) و (الظلامات). وكان يعطف على الفقراء، ويدافع عن قضاياهم مجانا، وتحول مكتبه إلى ندوة للنقد والتجريح. فانزعج والي حلب (جميل باشا) منه وتآمر عليه منهما اياه بالسعي إلى تسليم حلب إلى دولة اجنبية، ولكن المحكمة في بيروت برأته كذلك. وبعد هذا توفي الوالي، وخلفه وال آخر هو عارف باشا فأسند إلى الكواكبي منصب نقيب الاشراف، ولكن الشيخ ابو الهدى الصيادي(١٨٤٩ ـ ١٩٠٩م) وهو من رجال الدين السوريين المقربين من السلطان

عبد الحميد تآمر عليه وعمل على انتزاع نقابة اشراف حلب منه، فأضطر عندئذ إلى التوجه سرا إلى القاهرة فوصلها في منتصف تشرين الثاني سنة ١٨٩٨م وفي القاهرة، قوبل الكواكبي بالترحاب، من احد تلاميذه وهو عبد المسيح الأنطاكي الذي سبقه اليها وعمل صحفية وداعيا للحرب ضد الأتراك. وقد دأب الكواكبي على التأليف ونشر المقالات الفكرية والسياسية التي كان يوقعها باسم مستعار هو الرحالة كاف). وقد جمعها بعد ذلك في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد). ثم إلف كتابه (ام القرى) بعد رحلة واسعة شملت جزيرة العرب ومصر والسودان والهند. وقد توفي الكواكبي في 14 حزيران سنة ١٩٠٢م بعد أن احتسى فنجانا من القهوة في مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية في القاهرة، شعر بعدها بآلام في معدته. وقيل انه مات مسموما بأمر من السلطان عبد الحميد، لكن هذا القول تعوزه الادلة

الكثيرة .

لقد عد الكواكبي في كتاباته، التي اشرنا اليها، العرب الامة الجديرة بحفظ الاسلام من الفساد. ودعا إلى خلافة عربية وإلى نقل ميزان القوة من الديار العثمانية إلى الجزيرة العربية. ووجه فكرة الاصلاح الديني بشكل يتفق مع الفكرة العربية القومية، وكان اساس هذه النزعة يعتمد على الصلة الداخلية (الرحمية) بين العروبة والاسلام. فالاسلام تجربة ثورية روحية واجتماعية جسد حقيقة الأمة العربية. كما أن العروبة من جهة اخرى تشكل في نظر الكواكبي الضمانة للمحافظة على جوهر الإسلام .

أن الدعوة إلى اقامة خلافة عربية تقوم مقام الخلافة العثمانية التي ظهرت بأجلى مظاهرها في كتاب (ام القرى) الذي صدر في مصر باللغة العربية سنة1900م. ولم يخرج الكتاب باسمه مباشرة، بل باسم مستعار هو السيد الفراتي. ويشير الكواكبي إلى أنه الف هذا الكتاب بدافع البحث والتنقيب عن افضل الوسائل للنهضة الإسلامية، وقد تصور في هذا الكتاب جماعة من اشراف المسلمين حضروا مؤتمرا في مكة انعقد باسم النهضة الاسلامية لمناقشة اسباب انحطاط العالم الاسلامي و كيفية معالجة ذلك. وقد عقدوا عشرة اجتماعات ناقشوا فيها ذلك ووقفوا عند اسباب التخلف وابرزها تطرق الشرك إلى عقائد العامة، وفساد التعليم، والاستغراق في الجهل. وتفرق الأمة إلى عصبيات، وحرمانها من حرية القول والعمل، وحماقة الحكام، وتقريبهم الدجالين والانتهازيين وحصر واجبات الدولة بجباية الضرائب وامور الجندية والتمسك باصول الادارة المركزية مع بعض اطراف العاصمة وعدم وقوف المسؤولين على احوال تلك المناطق المتباعدة وخصائص سكانها، والتزام تولية بعض المناصب الغير مستحقيها والتمييز الفاحش بين الرعية، والتساهل في اختبار الولاة والمواطنين وتفضيل الوظائف على الصنائع وفساد النظام المالي للدولة بحيث صارت مدينة للبنوك والمؤسسات الاجنبية واهمال طلب الحقوق وعدم توزيع الاعمال والحقوق بين الناس بالعدل واستمرار الحكام في الاستبداد وانغماسهم في الترف وسقوط الهمة واستيلاء اليأس على النفوس واهمال تعليم المرأة وترك السعي والاعتزال في الحياة والتواكل والزهد. وقد اورد الكواكبي الشروط التي يجب أن تقوم عليها الخلافة العربية ومنها أن يكون الخليفة قريشيا وله سلطة دينية فقط. وكان يريد أن يصل إلى الإصلاح السياسي عن طريق الإصلاح الديني، وهذا جعل بعض المؤرخين ومنهم الدكتور منير مشابك موسى، يتهمونه بالطوباوية، بيد أن مؤرخين اخرين،

وجدوا فيه رائدة من رواد الحركة العربية القومية، لانه دعا إلى اعادة نقل الخلافة إلى العرب وهذه الدعوة، هي دعوة إلى نهضة العرب، وإلى وحدهم وتبوؤهم مركزا قياديا قبل كل شي ، ويختلف الكواكبي عما سبقه من المفكرين من أمثال الأفغاني خاصة، بايمانه أن العرب مكانة خاصة بين الشعوب، وان الأمة العربية صاحبة رسالة ليست دينية وانما هي رسالة مثل وفضائل تقوم على التسامح والاخوة .

شن الكواكبي في مقالاته وكتبه وخاصة في كتابه طبائع الاستبداد، حملة على الفساد والظلم والاضطهاد ودعا إلى مقاومة الاستبداد، وكان يعتقد أن التعليم وليس الثورة، هو الوسيلة المهمة للقضاء على الاستبداد وتعميق الوعي لدى الانسان العربي ويقول ان المستبد يخاف من العلوم الي توسع العقول وتعرف الانسان انسانيته وحقوقه. ويرى الكواكبي ((ان بين الاستبداد والعلم حربة دائمة وطرادة مستمرة : يسعى العلماء في نشر العلم، ويجتهد المستبد في أطفاء ثورة والطرفان يتجاذبان العوام، ولكن من العوام؟ ((هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا، واذا خافوا استسلموا، وهم

الذين مني عملوا قالوا، ومتى قالوا فعلوا))، ويؤكد الكواكبي أن (العوام هم قوت المستبد، وقوته بهم عليهم بصول، وبهم على غيرهم يطوله)، ويعالج علاقة الاستبداد بالمال، فيقول : (ولو كان الاستبداد رجلا واراد ان يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر، وابي الظلم، وامي الإساءة، واخي الغدر، واختي المسكنة، وعمي الضر، وخالي الذل، وابني الفقر وبنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة). ويشير الكواكبي إلى التفاوت الطبقي ويقول أن رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة، لأن رجال السياسية والدين ومن يلتحق بهم، وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة، ينفقونه في الرقه والاسراف ثم اهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون . وأمثالهم، ويقدرون كذلك. بواحد في المائة. يعيش احدهم بمثل ما يعيش به الحشرات او المئات او الالوف .من الصناع والزراع (وهذه القسمة المتفاوتة بين ذرية آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباعدة، وهي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي). والمستبد السياسي ديدنه اتخاذ صفة قدسية فن صفات الله، ويتخذ بطانة من رجال الدين يعينونه في ظلم الناس بأسم الله، وكل هذا مناف بجوهر الإسلام الحقيق القائم على الحرية السياسية، الا ان زحف عليه الفساد ما زحف على كل من الأديان فما فرق المسلمين وجعلهم شيعة وأحزابا وحول نظام الحكم من الشورى إلى الاستبداد .

٣- الاتجاه القومي – التاريخي

وقد انعكست ملامح هذا الاتجاه في كتابات الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠– ١٧٨١م) وبطرس البستاني (١٨83-19١٨م) الذين استنهضا همم العرب عن طريق التذكير بماضيهم الحضاري وبعلمتهم الماضية ، واشادا بالعزة القومية واعتزازهما بالحضارة العربية، وعملا على احياء وعي العرب لتأريخهم ولأهمية اراءهما ومواقفهما نورد شيئا عن حياتهما و دورهما الفكري .

الشيخ ناصيف اليازجي :

ولد ناصيف اليازجي سنة ١٨٠٠م في قرية كفر شيما من قرى ساحل بيروت. تلقى تعليمه في البداية على أحد القسس. وكان والده طبيبا يحب الأدب ويميل إلى قول الشعر، لذلك نشأ على الميل إلى الأدب والشعر واقبل على الدرس والمطالعة معتمدة على نفسه. ولما لم تكن الكتب انذاك ميسورة لقلة المطبوع منها، اذ لم يكن في لبنان الا مطابع نادرة قلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية، كان جل معتمده على مخطوطات بعض الأديرة القديمة فمنها ما يقرأها ومنها ما ينسخها بخطه المزخرف وبهذه الطريقة الشاقة استطاع ، بفضل ما اوتي من نباهة وطاقة على العمل، الكشف عن افضل مصادر الادب العربي. وقد تملكتة رغبة جامحة في احياء امجاد التاريخ والادب العربين، لذلك وقف حياته كلها على خدمة اللغة العربية وآدابها. وحين قارب نهاية العقد الثالث من عمره عمل كاتبا في ديوان الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان قرابة اثنتي عشرة سنة. وبعد سنة 1840م وهي السنة التي اضطر فيها الأمير إلى مغادرة لبنان، انتقل اليازجي إلى بيروت فاقام بها وتفرغ المطالعة والتأليف والتدريس ونظم الشعر والاتصال بالأدباء والشعراء المعروفين في الشام والعراق ومصر آنذاك لذلك ذاعت شهرته وصار علما من أعلام اللغة العربية. وقد استخدمه المبشرون الأمير كان مصححا في مطبعتهم لبعض الكتب المدرسية في الرياضيات والطبيعيات التي استعملت في المدارس التي اسسها الأميركان ومنها الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأمريكية حاليا). كما عمل مدرسا للغة العربية في الكلية نفسها .

اصدر ناصيف اليازجي، بعد أن شعر بقلة الكتب المدرسية التعليمية باللغة العربية لنذاك، كتبا في اللغة والنحو والصرف والمنطق والبلاغة، ذاع انتشارها بين المدرسين والطلبة. ومن هذه الكتب، كتاب «عقد الجمان» وهو في البلاغة العربية وكتاب مجمع البحرين، وهو مجموعة من المقامات جمع فيها اخبار وامثالا وحكما عربية قلد فيها مقامات الحريري من حيث الأسلوب والسجع. اما ابرز كتبه فهو «فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب » وهو كتاب في الصرف والنحو الفه الشيخ ناصيف ، وسلمه للطبع في مطبعة الأميركان صيف سنة 1845م. ولعله أراد تسهيل مهمة المعلمين في مدارس الاميركان فيضع لهم كتابا اسهل من الالفية وايسر من الكتاب الذي كان عندئذ مستعملا في مختلف المدارس المسيحية وهو كتاب (بحث المطالب وحث الطالب)للمطران جبريل فرحان الحلبي المطبوع في مالطة سنة1836م. وفي سنة١٨٤٧م الف المبشرون الاميركان لجنة برئاسة ايلي سمث Smith للبدء بترجمة التوراة ترجمة جديدة إلى اللغة العربية، وقد استعانوا ببطرس البستاني وناصيف اليازجي وكان تعاون الثلاثة في ترجمة التوراة يقوم على تقديم البستاني مسودة للترجمة يراجعها مع سمث، ثم يحققها هذا مع اليازجي، الذي يشذ بها ويحررها من الكلمات و العبارات التي لايقبلها الذوق العربي السليم. ودامت مدة استخدام الشيخ اليازجي عند المبشرين الأميركان نحو عشر سنوات، انتهت بموت سمت في سنة١٨٥٧م. اذ اعتمد فانديك الذي خلف سمث في ترجمة التوراة على نفسه، وكان يتقن العربية. وبذلك استقل اليازجي عن الاميركان وعمل مدرسة للغة العربية في المدرسة الوطنية التي اسسها بطرس البستاني، وانصرف كذلك إلى تأليف المزيد من الكتب المدرسية واللغوية وظل كذلك حتى اصيب بغالج عطله عن العمل والحركة في السنتين الأخيرتين من حياته، قبل أن وافاه الأجل في شباط سنة ١٨٧١م.

و لم يقتصر اثر اليازجي على انتشار كتبه المطبوعة فقد اصبح بيته في بيروت، بمثابة ندوة يتردد عليها عدد من الشباب المهتم باحياء التراث العربي . وكانوا، على عادة العرب القديمة في جميع بقاعهم، يتحلقون حول اليازجي ويستمعون اليه وهو يحدثهم عن مواطن الجمال في اللغة العربية. ولم يكل قط عن دعوته إلى إحياء الادب العربي حتى نجح في اقناع عدد كبير من طلابه بان ذلك هو السبيل الوحيد للخلاص. وكانت طرافة دعوته وجدتها تثير ان انتباه الناس، لانه كان يتجه بها إلى العرب على اختلاف أديانهم : المسلمين والمسيحيين جميعا، وكان يهيب بهم، في زمن برزت فيه الطائفية في لبنان بابشع صورها بحيث ادت ، كما سبق أن قدمنا إلى مذابح سنة 1860م، أن يذكروا تراثهم المشترك وان يشيدوا اسسه مستقبلا يجمعهم اخوانا متآلفين. ونشأ أولاده الاثني عشر ، بنين وبنات، على هذه الأراء : حتى بلغ من تأثر احدهم بتعاليم ابيه، وهو ابراهيم اليازجي ان اصبح فيما بعد من ابرز دعاة الحركة العربية القومية كما سنرى.

بطرس البستاني :

ولد سنة 1819م في قرية الدبية القريبة من صيدا في اقليم الخروب بقضاء الشرف في جبل لبنان من عائلة عرفت بحب العلم والسعي من اجله. وقد تلقى علومه الاولى على يد الخوري ميخائيل البستاني. وقد استتقدمه المطران عبدالله البستاني، مطرزة صور صيدا، إلى بيت الدين. حين يقيم لما وجد فيه من الذكاء والفطنة والاجتهاد وبعث به إلى مدرسة عين ورقة بلبنان فقضى فيها عشر سنوات حتى اتقن اللغة العربية وآدابها. كما اخذ دروسا في المنطق و التاريخ والحساب والجغرافية و اللغات السريانية واللاتينية والإيطالية والفلسفة واللاهوت. ثم اصبح بعد تخرجه مدرسة في

المدرسة نفسها. وفي سنة 1840م ذهب إلى بيروت وتعرف إلى المبشرين الأميركيين ايلي سمث وكورنليوس فانديك وقد اسهم مهما في تأسيس دار المعلمين في قرية عبيه، وقبل منصب مدرس اللغة العربية فيها. و أخذ بتأليف الكتب لتستعمل في المدارس التبشيرية الأميركية. وحين طلب اليه مساعدة ايلي سميث في ترجمة التوراة، إنهمك في تعلم اللغات العبرية والأرامية واليونانية القديمة. والف معجما ضخما اللغة العربية بعنوان «محيط المحيط» ، صدر في سنة ١٨٧٠م بمجلدين، وأصدر، بعد ذلك بقليل، مختصرة له بعنوان «قطر المحيط» .وبدأ بتأليف موسوعة عربية، اصدر منها قبل وفاته سنة ١٨٨٣م ستة أجزاء، وتابع ابناؤه وبعض افراد اسرته عمله هذا باسم «دائرة المعارف» ، فاصدروها في أحد عشر جزءا

أتجه البستاني إلى الصحافة ، وسيلة للدعوة إلى الأتحاد والتعاون والتوفيق بين الطوائف والفئات المتصارعة في لبنان، فاصدر سنة1860م جريدة أسبوعية باسم (نفير سوريا)التي يعدها مؤرخوا الصحافة العربية أول جريدة عربية سياسية غير رسمية صدرت في الوطن العربي . وقد وقفت هذه الجريدة معظم جهدها لمحاربة الحقد الطائفي ونشر الثقافة ، لأن الثقافة تؤدي , كما كان يرى البستاني إلى الاستنارة العقلية ، والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التصلب ، وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الطوائف المتعددة والمتغيرة والمتنابذة ، وربما بدا لنا هذا الكلام الان تافهة لا جديد فيه كما يقول المؤرخ جورج انطونيوس ، ولكن بلاد الشام لم تكن قد سمعت بمثله من قبل . وكان يشتمل في طياته على نواة الفكرة القومية . وقد سار : البستاني خطوات اخرى في هذا السبيل لتحقيق فكرته، فانشأ في سنة1863م مدرسة، غاب في بيروت باسم (المدرسة الوطنية) كان هدفها ان يتلقى فيها التلاميذ ، على اختلاف طوائفهم واديانهم ، تعليما اساسه التسامح الديني والمثل العليا الوطنية . وقد ساعده في عمله التربوي هذا ناصيف اليازجي . وقد تقاطر عليها التلاميذ من سائر أنحاء الشام ومصر والعراق وذاع صيتها حتى ان السلطان العثماني انعم عليه بوسام عالي تقديرة لخدماته وتشجيعها له . وقد تولى ولده سليم البستاني ادارة المدرسة بالنيابة عن والده وكان متضلما في العلوم الحديثة ويدرس اللغة الأنكليزية والتاريخ والطبيعيات . وكان البستاني يلقي على تلامذة المدرسة المحاضرات مرتين في الأسبوع . وقد كرس تلك المحاضرات للاشادة بالثقافة العربية ، وبدور العرب في بناء الحضارة الأنسانية .

كما أصدر البستاني سنة ١٨٧٠م مجلة علمية أدبية سياسية نصف شهرية سماها (الجنان) وجعل شعارها. (حب الوطن من الإيمان) ، وهو شعار لم يكن شائعة في الوطن العربي انذاك . وكانت الغاية من هذه المجلة محاربة التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن ، وقد شارك في تحريرها . عدد من كتاب بلاد الشام والعراق. وفي اواسط سنة ١٨٧٠م استعان بابنه سليم في اصدار جريدة سياسية باسم (الجنة) ، وهي من أقدم الصحف العربية في بلاد الشام . ثم أصدر (الجنينة) وتولى تحريرها ابن عمه سليمان البستاني الذي اشتهر فيما بعد كأحد دعاة الدستور، وتكمن قيمة هذه الصحف والمجلات في انها كانت تعنى عناية خاصة بعرض الآراء التي كان يدعو اليها مؤسسها ، وانها كانت حافزا قويا وجه الأفكار إلى التسامح الديني والنظرة الواسعة إلى الأمور والوقوف ضد التعصب والدعوة إلى الوطنية . وقد حرص. البستاني على صدور هذه الصحف والمجلات في أوقاتها المقررة صدورا يكاد يكون منتظما خلال المدة التي بقيت من عمره. وقد حرص البستاني في افتتاحيات الصحف التي أصدرها على التلويح بامجاد العرب الماضية وضرورة بعثها ، ومن ذلك افتتاحية العدد الأول من مجلة الجنان التي جاء فيها ان الشرق كان مزدهرة ومتمدنا في الماضي، ثم

فقد مدينته وازدهاره بسبب الحكم الفاسد، وانه ليس من علاج لذلك الا الحكم الصالح، الذي لايمكن ان يقوم الا بفضل اشتراك الجميع فيه، وفصل الدين عن الدولة. ونصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ،وفرض ضرائب نظامية، واجراء اشغال عامة ومفيدة، وجعل التعليم اجباريا ، واقامة العدل الاتحاد بين ابناء الأديان المختلفة، وتقوية الشعور الوطني الموحد بين جميع المواطنين العثمانيين. وكان البستاني يلح على تعليم المرأة وهو اول من القي محاضرة في هذا الشأن من المثقفين العرب في العصر الحديث.

بالرغم من أن دعوة البستاني كانت دعوة قومية علمانية، وكان يعتز بانتماءه إلى العرب ، لكنه بعد سنة ١٨٧٧م، اي بعد صدور الدستور العثماني ، و انعقاد اول برلمان عثماني، قال في مقال نشرته مجلة الجنان : ان الامبراطورية العثمانية هي وطننا، ولكن بلادنا في سوريا، كما نقلت مجلة الجنان وقائع ومناقشات البرلمان الأولى ونشرت خبرة ينبئ عن ظهور حزب معارض، لكن لم يمض وقت طويل حتى اختفت الأخبار عن صفحات المجلة، ولم يكن ذلك عرضا، بل كان دلالة مبكرة على أن السلطان عبد الحميد الثاني قد استعاد القبض على زمام الحكم وقمع نشاط المعارضة، وعلق الدستور واوقف البرلمان، مما أنهي حياة المجلة نفسها في سنة ١٨٧٧م. عندئذ. انتقل مركز الصحافة اللبنانية من بيروت إلى القاهرة، وبرز صحفيون عرب. احرار اصدروا صحفة، مثل الاهرام والمتعلم ، نددت بالاستبداد، وهاجمت السلطان ودعت إلى انتشار المفاهيم والافكار الدستورية . ولعل من أبرز او ثاك الصحفيين مؤسس مجلة الهلال سنة(١٨٩٢م) جرجى زيدان (1861-1914م) الذي كان من اكثر الذين عملوا على احياء وعي العرب لماضيهم، سواء بتواريخه (تاريخ العرب قبل الاسلام وغيره) او بسلسلة رواياته التاريخية (فتاة غبنان وغيرها) التي تنهج فيها نهج الكاتب الإنكليزي وولتر سكوت، ورسم، على غراره كذلك، لوحة رومانتيكية عن الماضي.

لم يقتصر اثر البستاني على سعة انتشار كتبه المطبوعة، بل يرجع كذلك إلى ان احاديثه وخطبه ومحاضراته وحياته نفسها، كانت نموذجا حيا لما يدعو اليه. فقد كان يسير في ذلك، في ثبات عجيب كأنه لايتكلف له جهدا وفي طمأنينة المقتنع الذي لاتميل به الأهواء، فمع انه كان يرى بان الشرق لا ينهض الا بالاطلاع على فكر اوربا الحديثة واكتشافاتها، الا انه لم يرض بالتقليد الأعمى الذي لايميز بين الصالح والطالح. فالقبول بالعادات الأجنبية المجرد كونها اجنبية كان لايقل في نظره حماقة عن رفضها لمجرد كونها اجنبية ، وهو ما كان يلمسة انذاك فالواجب هو أن تقبل هذه العادات اوترفض حسب قيمتها. وقد وجد، في ضوء هذه النظرة، كثيرا مما ينتقد في العادات الأوربية، ومنها حرية الرجال الزائدة في تصرفهم مع النساء مثلا . لكنة وجد فيها كذلك كثيرة مما هو جدير بالقبول والاقتباس ومن ذلك أهمية الوحدة الوطنية. فلكي تزدهر سوريا من جديد كما كانت ايام العرب الأولى، على ابنائها أن يحبوها وان يكونوا على علاقات ودية بعضهم مع بعض. وفي هذا يغطي البستاني الحرية الدينية والمساواة والاحترام المتبادل بين ابناء الاديان المختلفة اهتماما اكبر من اهتمام رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي. وقد يرجع ذلك إلى ظروف الواقع الذي كان يعيشه انذاك في بلاد الشام وكان، بعد اخذه الظروف المحلية بعين الاعتبار ، يشارك دعاة الاصلاح العثماني نظرتهم. فاذا كان على سوريا أن تتمدن، فعلى حكامها أن يقوموا بأمرين: الأول اصدار قوانين عادلة متساوية، تتفق مع روح العصر، وتقوم - على الفصل بين حقلي الدين والدنيا، والثاني : انشاء تعليم وطني باللغة العربية. اما غرض هذا التعليم فيجب أن يكون فهم العلوم الحديثة و مايكمن وراءها من طريقة عقلية دقيقة للفكر والعمل وعند هذه القضية ملتقى جانبا نشاط . البستاني في هدف موحد: تغيير

عقول الناطقين بالضاد وقرائها وجعلهم مواطنيين صالحين في عصر العلم والاختراعات الحديثة وذلك بجمل اللغة العربية اداة صالحة للتعبير عن المفاهيم الحديثة. وهو في هذا السبيل وضع موسوعته الكبرى آنفة الذكر والي استملت على ابحاث تعلق بالعلوم الحديثة وبمفاهيم الحرية السائدة آنذاك في اوربا. ومن هذا نتبين، كما يقول البرت حوراني ، مدى الشوط المتطور الذي قطعه الفكر العربي الحديث، منذ أن وطأت أقدام رفاعة الطهطاوي ارض فرنسا موفدا من قبل محمد على باشا للدراسة والاطلاع سنة 1826م. اتفق ناصيف اليازجي وبطرس البستاني خلال السنوات الأولى من نشاطهما العلمي والتربوي على انشاء جمعية علمية في بيروت باسم (جمعية الآداب والعلوم) تعد من اقدم الجمعيات العلمية في الوطن العربي كله خلال العصر الحديث. وقد افتتحت الجمعية ابوابها في كانون الثاني سنة 1847م وانظم اليها عدد من الشبان المسيحيين كما انتسب اليها بعض المبشرين الاميركان مهم ايلي سمث وفانديك . ولم يمضى عامان على تأسيسها حتى بلغ أعضائها خمسين عضوا. وكان نجتمع مرة كل اسبوعين يلقى فيها أحد أعضائها بحث علمية أو سياسية أو دينية أو اجتماعية واستمرت في العمل خمس سنوات. واصدرت في سنتها الاخيرة كتابا عن اعمالها حرره البستاني، الذي كان سكرتيرة للجمعية. لقد كان الطابع الطائفي الذي ميز تلك الجمعية واقتصارها على الاعضاء المسيحين وحدهم ، ووجود بعض المبشرين فيها سببا في ضعف انتشارها وتوسعها ، ولم يمر وقت طويل على انشائها حتى انفرط عقدها عندئذ تنادي اليازجي والبستاني ، ومعها عدد من المثقفين المسلمين لتشكيل جمعية عربية ، لا يكون المبشرين فيها أي أثر . وهكذا انشئت (الجمعة العلمية السورية في سنة1857م وبلغ اعضاؤها (150) عضوا . واشتراك فيها العرب من مختلف الأديان والطوائف . وكان من أعضاء مجلس ادارتها الأمير محمد ارسلان الذي بقي عدة سنوات رئيسا لها . وحسين بينه وابراهيم اليازجي . وكانت غاياتها ووسائلها ونظامها الداخلي تشبه غاب ووسائل و نظام جمعية الاداب والعلوم ، وكان من الطبيعي أن تعوق اخذ ان سنة1860م جهودها . فانحلت واعيد تأليفها بعد تلك الأحداث بوق قصير على أسس أوسع من أسسها السابقة ، ونالت اعتراف الحكومة العثمانية بها في سنة1868م و افسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت اشخاصة بارزين كانوا يقطنون خارج بلاد الشام ، وخاصة استانبول ومصر. وكان نشاط الجمعية منصبة منذ ذلك الحين على الاهتمام بتقديم البلاد على اساس الوحدة الوطنية ، والاعتزاز بالتراث العربي .

اتخذه الجمعية العلمية السورية ، بعد ذلك طابعا عربيا واضحا ، واصبحت مظهرا من مظاهر الوعي القومي العربي الجماعي . وترجع قيمتها التاريخية ، كما يرى جورج انطونيوس ، في انها كانت من بواكير الحركات السياسية العربية التي دعت إلى الاستقلال والتخلص من الحكم العثماني الاستبدادي . وقد ارتفع فيها أول صوت ظهر : لحركة العرب القومية ، وكان ذلك في اجتماع سري عقدته الجمعية وحضرته ثمانية من اعضائها البارزين كرس لسماع قصيدة نظمها ابراهيم ناصيف اليازجي اتخذت فيما بعد صورة النشيد القومي. والقصيدة في جوهرها تحريض للعرب على الثورة . اذ تغنت بامجادهم وبمفاخر ادبهم وتراثهم وبالمستقبل الذي يستطيعون أن يضعوه لأنفسهم بأستلهام ماضيهم ،. ونددت بفساد الحكم ، وبالمفاهيم الطائفية . وقد ذاعت القصيدة ذيوعة واسعة ، وكان الناس لا يأمنون على أنفسهم من أن يتهموا بالخيانة بسببها ، ولذلك لم يدونوها الا في ذاكرتهم وكان لها أثر بالغ في تغذية الحركة القومية وهي في بداياتها . وترجع اسباب شهرتها وانتشارها

إلى سهولة بحرها وسلامة قوافيها ، وإلى سبب اخر أهم ، هو أنها استطاعت ايقاظ العاطفة العميقة في الشعب الذي كانت تخاطبه . ومما جاء فيها :

تنبــهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمي الخطب حتى غاصت الركب الله اكبر. ما هذ
ا المنـــام فقد شكــاكم المهد واشتاقتكم الترب فشمروا وأنهضوا للامر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنت بها الحقب كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبو فلا
يبدو لكم غضب اقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين ايدي الترك مغتصب
قيالقومي، وما قومي سوى عرب ولن يضيع فيهم ذلك النسب صبرة هيا، أمة
الترك التي ظلمت دهرة فعما قريب ترفع الحجب لنطلبن بحد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه ارب ونثر كن علوج الترك تندب ما قد قدمته اياديها
وتنتخب ومن يعش پر الأيـــام مقبـــلة يلوح للمرء في احداثها العجب

- الاتجاه الاجتماعي - التقدمي

وقد تمثل هذا الاتجاه في كتابات رواد فكرة التقدم في الوطن العربي امثال شبلي الشميل (1850 – ١٩١٧م.) وقاسم امين (1865- ١٩٠٨م) واديب اسحق (1856- ١٨٨4م) ويدعو هذا الاتجاه إلى حكم ديمقراطي يتساوى فيه الجميع ويعطي لكل حسب كفاءاته وجهده، لاحسب دينه. ويفصل فيه الدين عن السياسة ويقوم على العلم الحديث، وإلى الوطنية والقومية. وقد أولى هذا الاتجاه، عناية كبيرة للمسألة الاجتماعية والتقدم الاجتماعي. ولاهمية هذا الاتجاه، تتحدث عن أبرز رواده، وهم شبلي شميل وقاسم امين واديب اسحق .

شبلي شميل :

ولد شبلي الشميل في قرية كفر شيما بلبنان سنة1850م، وتخرج من المعهد الطبي للكلية البروتستنتية السورية ببيروت سنة ١٨٧٠ م ثم تابع دراسته في باريس فاتصل بملامح الفكر. التقدمي الاوربي مباشرة، ثم مارس المحاماة في مصر حيث اصبح على اتصال مباشر باحداث المجتمع اليومية مراقبة متغيرات الحياة والقوى المؤثرة فيها بفكر ثاقب . وقد اطلع منذ مرحلة مبكرة من حياته، على نظرية تشارلس داروين المتعلقة بالتطور وأصل الأنواع. وتأثر بلودفيك بوخنر، الطبيب والفيلسوف الألماني الذي حاول المزج بين المادية والداروينية وبناء نوع من النظرية الاشتراكية على اساس الداروينية. لذلك ترجم سنة1885م كتابه (ست محاضرات حول نظرية داروين) الى اللغة العربية وباسلوب موفق بعنوان (فلسفة النشوء والارتقاء ونقل كثيرا عن كتابه (الداروينية والاشتراكية) فاليه يعود الفضل في نقل اصعب المسائل الداروينية في التطور إلى اللغة العربية اصدر شبلي الشميل في القاهرة مجلة طبية سماها (الشفاء) لكنها لم تدم طويلا، اذ تعطلت لأسباب مالية. لكنه اتجه إلى كتابة المقالات العلمية في عدة صحف ومجلات مصرية ولبنانية، منها مصر الفتاة، وسركيس، والمقطم، والمقتطف، والمؤيد، والبصير، والمشير، والأخبار، والوطن، والهلال، والجريدة. وقد اثارت كتاباته عن فلسفة النشوء والارتقاء ردود فعل عنيفة في المحافل المثقفة الاسلامية والمسيحية على السواء، وكان على الشميل ان يرد على جميع هؤلاء ويدافع عن نفسيه ،

لانه انهم بالكفر والإلحاد ومحاولة تهديم الدين. كان يقول بأن هدفه هو «ايقاظ الأفكار من نومها العميق» لانه يؤمن بان والحركة مهما(كانت خير من السكون)، وهو لايريد، كما قال في مقدمة كتابة اكثر من خلق «هزة تصل فينا الى اعماقنا»، بعد أن «تقادم علينا الممات حتى بتنا في رتبة في صف الاحياء لا هي بالميتة فتدفن ، جثة هامدة ، ولاهي بالحية فتبعث بشرا سويا» ، . وكان يرى العمل والجد محكا اساسية التقويم الانسان فان «اليوم ، الذي ينصرف فيه الانسان فيه من تنميق الكلام إلى اتقان العمل ، هو اليوم الذي تقوم فيه طباعة فتقل سخافاته ، ويكثر جاده ، ويقل رياوه وينشط من الذل ويرتقي ارتقاء حقيقيا ويحق له حينئذ ان يعد نفسه انسانا ».

كتب الدكتور شبلي الشحيل عن الاشتراكية ، مقالات عديدة،' لذا عد من روادها الأوائل في الوطن العربي . وقد اهتم بتبسيط المفاهيم : الاشتراكية ونشرها بين الناس . فهو يقول في مقال له يحمل عنوان الاشتراكية نشر في مجلة المقطم المصرية سنة ١٩٠٨م مانصه

«ما قولك في نظام اجتماعي يهتم بشؤون الأفراد وينشى، ادارات تهتم بوجود اعمال لكل العمال كل حسب طاقته ، وهذا ليس من الاحلام ، ويقيم المستشفيات على نسبة السكان ويوفر وجود الماء للجميع على حد سواء ويقدم الصابون والكساء الأول البسيط اكل معوز ... تيسيرا للنظافة التي هي اول دعائم الصحة'. فهل افراد الاجتماع الذين يتكلمون بذلك كل حسب طاقته يغينون من عمم هذا ؟ افلا تربو ارباحهم عموما على خسارتهم ماديا وصحية وادبية من توفير وسائل العمل للعمال . الا يزيد مناوءهم في صحتهم وصفاوءهم في راحتهم ؟ الا يقل التذمر ... وهذا ليس الا في رؤوس الذين تستثقل طباعهم الخروج عن المألوف ، وهذا النظام ولا ريب نظام ... المستقبل» .

لم يبق شميل في توجهاته الاشتراكية وحيدا في الميدان، بل سرعان ماظهر في مصر اشتراكيون آخرون كانت اراوءهم ، كاراءه خليطا من أفكار الاشتراكية العلمية والفابية، والطوباوية . ومن الذين تأثروا به وبكتاباته سلامة موسى (1887-1958م)واحمد لطفي السيد(1872-1963م)وغيرهما من أعترفوا في مؤلفاتهم بذلك التأثير صراحة .

عالج شبلي الشميل في. مقالاته قضايا اجتماعية كثيرة، ومن ذلك عنايته بالتعليم والتربية الحديثة وهو في ذلك ، كما في غيره من الأمور واقعي في تقويمه فيضع من المقترحات والمعالجات ماكان جديدة في بابه انذاك فقد أراد من المعلمين أن يكونوا(من الذين تربوا جيدا وبرعوا في علم الأخلاق حتي يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملونه بحسب طبيعته. وينبغي أن يكونوا كذلك من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابليته العقلية ليردعوه عن الفاسد وينشطوه في الاستعداد الحسي ، والأكثرون لايفهمون مقدار الضرر الناشيء عن عدم مراعاة ذلك ، فان عقولا كثيرة من اذكى العقول ينطفىء نورها كل سنة في المدارس في سوء المعاملة ومقاومة اميال العقل)، وقد دعا الدكتور شميل ، إلى نشر التعليم الالزامي وطالب بفتح المدارس في كل مكان ليعلم. فيها الأطفال مبادى العلوم البسيطة . كما عالج شميل وضع المرأة في المجتمع العربي ودعا إلى اصلاح السجون لم يقدم الشنيل مذهبا سياسيا متسقة ، بل بث بعض افكاره الاساسية في مقالاته وكتاباته ، وقد وقع بسبب نقله عن مؤلفين مختلفي الاتجاهات في التناقض حينا والتطرف حينا اخرى ، ومن ذلك انه كان داروينيا اكثر من داروين نفسه ، اذ تمسك بتلابيب تلك النظرية واراد تطبيقها على معظم ماعالج من امور فهو يقول مثلا أن الحرب ضرورة لابد منها وناموس تنازع البقاء في الطبيعة هو قاعدة ناموس النشوء في المجتمع . وقد اوقعه التناقض والارتباك في خط التأييد للاحتلال البريطاني لمصر التي اصبحت حياتها

منذ وقوع الاحتلال ، كما يقول ذات قيمة . ويبدو أن وهج الحضارة العربية مع المعاناة من التخلف العثماني قد حجب عنه وضوح الرويا السياسية . كما انه اثار المرأة المثقفة في مصر حين القى محاضرة في جمعية الاعتدال بالقاهرة سنة1886م، قال فيها أن ظروف المرأة الخاصة عليها دون مستوى الرجل، وهناك نقطة ضعف اخرى في افكار الشميل وهي انه يهاجم العلوم الانسانية ويعدها اشبه بهذيان ومماحكات لاطائل تحتها ، لذا دعا الى الغاء مدرسة الحقوق واقامة مدرسة الكيمياء بدلها ورأى شميل في العلم والعدل والحرية أمورا مهمة في تحديث الدولة . لهذاقدم برنامجا مهما لتحديث الدولة العثمانية إلى السلطان عبد الحميد سنة1896م بعنوان (شكوى وامل لخص فيه افكاره حول ما كانت تعانيه الدولة العثمانية وعد العلم شيئا اساسيا في تطورها . و رغم بعض المآخذ على شميل ، فانه كان رائدا من رواد حركة النهضة العربية ..

قاسم أمين :

ولد قاسم أمين سنة1865م. وكان ينتسب إلى اسرة كردية من مدينة السليمانية بالعراق، اخذ ابوه امين بك بن احد الأمراء الأكراد رهينة إلى استانبول اثر بعض الحركات الكردية التي نشبت انذاك ، ثم جاء إلى مصر وانتظم في عهد الخديوي اسماعيل في الجيش المصري . ورقي إلى رتبة اميرلاي وتزوج امرأة مصرية ولدت له اولادا كان قاسم اكبرهم . وقد ادخل قاسم أمين المدارس الرسمية، ولما اكمل دوره، ارسلته الحكومة في بعثة علمية إلى فرنسا الدرامية القانون. وعاد إلى مصر صيف سنة1885م فتعين وكيلا للنائب العام ثم مستشارة في محكمة الاستئناف حتى توفي في ٢١ نيسان سنة 1908م وعمره لم يتجاوز الثالثة والأربعين .

أطلع قاسم أمين اثناء اقامته في فرنسا على اتجاهات الفكر الاوربي الحديث وخاصة المتعلقة منها بفكرة الحرية السياسية التي اتت بها الثورة الفرنسية اواخر القرن الثامن عشر وتطورها إلى اديولوجية جديدة يعتنقها المجتمع ، فاصبحت حرية اجتماعية، حرية في الصحافة، وحقوقة للعامل، والغاء للرق وانطلاقة المرأة. وقد استقر رأي المفكرين والفلاسفة الأوربيين على تأكيد مبدأ الفردية و كانت محاولة الاشتركين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تهدف إلى إدراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب المساواة السياسية التي اعترف بها القانون. وحين عاد قاسم أمين إلى مصر وجد أن ميدان الاصلاح الاجتماعي لم يجد ما يستحقه من اهتمام رواد النهضة العربية فبدأ يكتب سلسلة مقاولات نشرت متتابعة في جريدة المؤيد حتى سنة ١٨٩٨م بعنوان (اسباب ونتائج واخلاق ومواعظ). وقد تضمنت هذه السلسلة تسعة عشر مقالا" تدور حول ثلاثة عناصر: اولها حول المال وثانيهما حول اسس التربية السليمة. أما العنصر الثالث فيدور حول الاصلاح الاداري. وقد عرضن قاسم امين في مقالاته الأولى لفكرة انصراف المصريين عن حب المغامرة، في حين أن الحياة مجال تنافس حر من اجل حياة افضل ، فليس حب المال هو الدافي الصراع ولكنه حب الحياة الكريمة، والبقاء. للاصلح دائما ، والأمر لا يقتصر على النتيجة الحتمية للتكاسل عن جلب الرزق، وهي الفقر. ولكن الأهم اننا قد أصبحنا، كما يقول قاسم امين. مجال صراع الدول الأوربية من اجل السيطرة علينا، ونحن تحول وجوهنا بعيدا عن الميادين الصراع، كاننا أبناء كوكب اخر حضرنا إلى هذه الدنيا النزهة والتسل بالنظر الى اهلها اياما ثم العودة إلى أوطاننا بصد ذلك بسلام. ويتعمق قاسم أمين في جذور المشكلة الاجتماعية فيجدها ترتد إلى عاملين: اوليا سوء معاملة الحكومات السابقة ، فانها بغدرها

وظلمها افقدننا ملكة الأقدام على العمل ثم بعد ذلك سوء التعليم.ويرى قاسم أمين أن التربية الحديثة تقوم على ثلاثة اسس: هي الأساس الديني وتنمية المشاعر الوطنية ومراقبة الوازع النفسي او تنمية الضمير ،ثم يقتنع قاسم امين بدور المرأة في تحقيق الانقلاب الاجتماعي المنشود، حتي ارتبط اسمه بعد ذلك باصلاح المرأة أو تحريرها الف قاسم أمين في هذا الصدد كتابين الأول بعنوان (تحريرالمرأة)والثاني بعنوان (المرأة الجديدة)وقد أدرك قاسم امين مايعبر مشروعه من العقبات وماسيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام ، ولذلك كتب في الصفحات الأولى من كتاب تحرير المرأة يقول : (سيقول قوم إن ما انشره اليوم بدعة ، فاقول نعم اتيت بيدعة ولكنها ليست في الاسلام) ، بل في العادات والتقاليد السائدة ويرى أن هناك تلازما بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة ويتساءل عن اسباب انحطاط المرأة ويجيب أنه ليس للاسلام دخل في ذلك ، لان الاسلام سبق كل الشرائع في تقرير مساواة المرأة الرجل ، فاعلن حريتها واعتبر لها كفاءة شرعية يوم كانت في حضيض الانحطاط عند الأمم الأوربية . ويضيف أن الحكومات الاستبدادية سببا في استمرار تلك التقاليد القاسية فالحاكم يستند بالمحكوم ، والرجل يستند بالمرأة ودائرة الاستبداد تحيط المجتمع كله وتفسد كل جانب، فيه، وهكذا بقيت حالة المرأة وبقي حال الرجل معها (اله الحرية.، ولها الرق، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والقضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهي ، ولما الطاعة والصبر له لكل شي في الوجود وهي بعض ذلك كل اللي استوى عليه) . وفي الكتاب الثاني المرأة الجديدة رجع إلى الموضوع وزادة شرح وتعليقة . فقد تكلم فيه عند (المرأة في حكم التاريخ) ، و (الواجب على المرأة لنفسها) ، و(الواجب على المرأة لعائلتها)، و (التربية والحجاب) وقد اتسم كتابه الجديد بالجرأة ، فبعد أن كان بطلب للمرأة تعليما محدودة، أصبح يطلب لها ثقافة اوسع في كل مراحل التعليم ، وبعد أن كان يطلب من الرجل السماح لنسائه بالحجاب الشرعي ، اذبه يطلب من المرأة نفسها تمزيق الحجاب بيديها محو اثاره . وبعد أن كان يتحفظ في حديثه عن عمل المرأة عند الضرورة ، يحاول أن يلفت نظر المرأة إلى الوظائف التي يمكن اذا ما تعلمتها أن تحسنها ومنها التدريس والطلب والتجارة والادب . "

اثارت كتابات قاسم امين ، ضجة كبيرة ليس في مصر وحدها بل في اقطار اخرى من الوطن العربي ففي مصر اتهمه البعض بالمروق من الدين، وبتحريض النساء على الفساد ، وبلغ السفه باحدهم حد الايذاء ، فقد ذهب إلى بيته وطلب أن يجتمع بزوجة قاسم على انفراد تطبيقية لدعوته ، فكلمته من وراء ستار ، وافهمته ان قاسما لم يدع الى السفور ولا إلى الخلوة باجنبي وشنت جريدة اللواء على قاسم امين حملة شعواء شهورا طويلة، وقالت في احدي مقالاتها أن الحرية قد أفسدت على المرأة الاوربية آدابها ، ومحت كثيرة من الأخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك. إما جريدة المؤيد فقد أفسحت صفحاتها للمعارضين والمؤيدين معا، وتصل الصحف المصرية إلى العراق والشام فينقسم هنا بين مؤيد لدعوة قاسم أمين ومعارض لها كما حدث في مصر ولم يكف دعاة الحجاب مقالاتهم بل ألفوا الكتب التي تهاجم دعوة قاسم امين ، ومن تلك الكتب «نظرات في السفور والحجاب، لمصطفى الغلايني والتربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب وقولي في المرأة المصطفى صبري . ولم بعدم قاسم أمين من بعض المجددين الذين لاقوا دعوته بالاعجاب ونصروه . ولعل من أبرز هؤلاء ابراهيم رمزي الذي اصدر مجلة في القاهرة سماها المرأة في الإسلام) كرمها للدفاع عن حرية المرأة لكنها احتجبت بعد صدورها بسنة واحدة . اما في العراق ، فقد كان الشاعر جميل صدقي الزهاوي من اشد انصار دعوة قاسم لكنه واجه مثل قاسم عنت المتدينين والمحافظين الذين اتهموه بالتعامل على

الإسلام ، وما شجعهم على هذا مطالبته المرأة بالثورة على الرجال ، ورجمهم أن لاموها شعورها ورغبتها . وفيما يلي بعض ابيات قصيدة " مشهورة للزهاوي يقول فيها

اسفري فالحجاب يا ابنة فهر هوداء في الاجتماع وخيم كل شيء إلى التجدد ماض فلماذا يقر هذا القديم انزعية ومزقبة فقد انكسر ه العصر ناهضا والحلوم وارجمي من يلومك فيه ان شيطان اللائمين رجيـــم لم يقل بالحجاب في شكله هذا نبي ولا " ارتضاه حكيم لايقي عفة الفتاة حجاب بل يقيها تثقيفها والعلوم

ولم يندفع المؤيدون في الشام يمثل اندفاع الزهاوي ، وانما هاجموا من رجال الدين من جهلوا يسره وسماحته ، فاثقلوا كاهل المرأة بهذه الحجب وحرموا ما حلله الله :

ظلموك ياحواء جهلا مطبقا . والمرء مظلوم اذا لم يظلم غلبوا نواميس الحياة فاثقلوا عطفيك في عبأ الحجاب المؤلم هم حرموا للناس كل محلل هم حللوا الناس كل محرم ومهما يكن من امر ، فإن بذور دعوة قاسم أمين سرعان مانيتت في اماكن مختلفة من الوطن العربي، حين ظهر اهتمام الناس شيئا فشيئا بتعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية .

اديب اسحق : :

ولد اديب اسحق في دمشق سنة1856م وتلقى علومه في مدرسة الاباء العازرين فيها، وقد ابدى منذ حداثته اهتماما كبيرا بالشعر ، وقيل انه اخذ ينظمه وعمره لم يتجاوز العاشرة. وقد اضطر إلى العمل وهو في الحادية عشرة، اذ اصبح كاتبا في الجمارك براتب يسير. ولم يكن ذلك ليصرفها عن القراءة والكتابة ومراسلة المجلات. ثم انتقل إلى بيروت سنة ١٨٧١م. وعمل في الصحافة. وقد اكسبته مقالاته التي كان ينشرها في جريدة التقدم شهرة واسعة ، فبدأ الناس يتحدثون عن قوة عبارته وطلاوة اسلوبه. وانكب في هذه الفترة على الكتابة والترجمة وتولى تحرير جريدة (ثمرات الفنون) .. وقد انتسب إلى جمعية (زهرة الاداب) ثم تولى رئاستها، وكان يلقي فيها الخطب والمحاضرات والقصائد. وقد ساعده ذات على تنمية مواهبة الخطابية اوقدرته على الحوار والجدل. وابتدأ منذ سنة1875م يتجه نحو التاليف ، فألف كتاب «نزهة الأحداق في مصارع العشاق» كما انه ترجم لصاحب جريدة التقدم كتابين احدهما في العادات والأخلاق. وثانيهما في الصحة، وقد طبعا دون ذكر اسمه. وشارك سليم الخوري في تأليف كتاب (واثار الادهار)، وتلبية الطلب القنصل الفرنسي في بيروت، ترجم رواية مسرحية اندروماك للشاعر الفرنسي راسين.. وقد جاء اديب اسحق إلى القاهرة سنة1876م مدفوعا بدعوة صديقه سليم النقاش في تقديم برامج مسرحية. ولم بليت ان انخرط في حلقة جمال الدين الأفغاني في مقهى متاتيا. ويقول شبلي الشميل انه هو الذي غرف اديب اسحق بجمال الدين الأفغاني. وكان جمال الدين (يشجع و بعض الموهوبين على احتراف الصحافة وتكريس الجهود لها). وذلك لمساعدته في نشر افكاره، وعلى التعبئة ضد التخلف والعلم والعدوان لذلك أصدر أديب اسحق جريدة مصر اوائل تموز ١٨٧٧ م التي اقبل الناس على مطالعتها ثم اصدر سنة ١٨٧٨ م جريدة يومية اخرى هي التجارة ، وحول مصر الى جريدة اسبوعية. وقد ساهمت جريدتا مصر والتجارة في الحركه الثقافية والسياسية وعبرنا عن خط افغاني ، وايدنا الشورى ضد الاستبداد ، وهاجمتا السياسة البريطانية، ونقلتا افكار الثورة الفرنسية. ولم تتحمل السلطات ـ المصرية هجوم

الصحفيين على الأجانب، والرقيبين الانكليزي والفرنسي في وزارة رياض باشا التي تشكلت في الحادي عشر من أيلول سنة ١٨٧٩م. لذلك الغت الصحيفتين بعد ان انذرتهما مرات عديدة. وقد اضطر اديب اسحق إلى مغادرة مصر والسفر إلى باريس سنة ١٨٨٠م، وهناك اصدر اول عدد من صحيفته مصر القاهرة في ٢٤ كانون الأول سنة ١٨٧٩م . وقد جاء في ترويستها انها تطبع في باريس تحت سماء الحرية ما يعود بالنفع على على البلاد العربية ..... حرية مساواة . اخاء (واللهم أبد بنا أمر الحق و كلمة الصادقين ، وانصرنا على القوم الظالمين برحمتك يا ارحم الراحمين) . ولكن صحته اعتلت واصيب بمرض السل بعد تسعة أشهر قضاها في باريس، ذلك عاد إلى بيروت ليعمل في جريدة التقدم. وفي أواخر سنة ١٨٨٠م ذهب الى القاهرة وعين ناظرا لقلم الانشاء والترجمة بديوان المصارف ورخصت له الحكومة باستئناف نشر جريدته (مصر) وحين اشتد عليه المرض، نصحه الأطباء بالعودة إلى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوما حتى توفي في ١٢ حزيران سنة 1884م ولم يتم التاسعة والعشرين من عمره. .

كان اديب اسحق معجبا بالثقافة الفرنسية ويعرف منها في كل مقالاته و خطبه العديدة ويستند بشكل مستمر بأدباء ومفكري فرنسا المشهورين أمثال راسين رهوكو وروسو ومونتسكيو وغيرهم .. و كان معجبا بالثورة الفرنسية ومبادئها ، وقد عالج في كتاباته كثيرا من الافكار السياسية ، ومنها نقد الاستبداد وفساد الإدارة العثمانية والدفاع عن الحرية والمساواة بين الرجل وللمرأة والتعليم الالزامي. كما بحث في مفاهيم الأمة والوطن . وقد نقل الكواكبي عنه كثيرامين ارائه. كان اديب اسحق مصلحا اكثر منه ثوريا . لقد كان يعبىء للاصلاح، لا للثورة. لهذا فقد طرح افكارا حول اصلاح المجتمع كله وسماه الإصلاح المطلق او الشامل ويتشعب هذا - الاصلاح إلى ثلاثة أوجه هي: السياسة والمدنية والاقتصاد الاجتماعي، وينقسم الوجه الأول إلى مالية وادارة وقضاء، والثاني إلى معارف ومساواة وحرية والثالث إلى أمن ووقاية وتوزيع اشغال. لايتم الإبثلاث أولها : أن يتم بالتدرج وثانيهما أن يكون ضمن حدود الممكن وثالثها أن يجيء منسجما مع حاجات الزمان والمكان والناس فاحسن القوانين كما يقول ما كان مع متلائما مع احوال البلاد. وهذا الإصلاح بعد ذلك له اساسان لاثالث لهما وهما مشاركة الأمة، والعدل والعلم. و كان اديب اسحق يبشر بالإصلاح، ولم يكن غريبا أن تحتفل جريدته (مصر) بوصول مدحت باشا واليا على سوريا، والاصلاح السياسي الذي ينشده يقوم على اساس اقامة حياة دستورية. وتنطلق هذه الدعوة من انه لاقوة للحكومة والا (بالأمة ولا ثبات الا بالشورى، ولا سطوة الا بالحرية ولا سلطة الا بالمساواة). ولكن هذه الحياة الدستورية لابد أن تتحقق عبر الانتخابات، وينتقد اديب اسحق الحياة البرلمانية العثمانية ويصف مجلس المبعوثان على (انه معدوم بصورة موجوده)ويشير الى السبب ويقول ان ذلك يرجع إلى خلل الانتخاب ورهبة النواب. وفي مقالاته التي تدور حول المسألة الطبقية يبدو اديب اسحق طوباويا ، لكنن دعوته الاصلاحية تجعله في عداء المفكرين العرب الذين دعوا إلى التغيير السياسي والاجتماعي. وقد وقف اديب اسحق مع الاستقلال وهاجم التدخل الأجنبي في بلاده. ويركز هجماته على بريطانيا، ولم يسكت على غزو الفرنسيين للجزائر وانما هاجمهم مرات عديدة في مقالاته . و كان مثل الأفغاني مع الوحدة ضد الأنقسام ، ولقد أشرنا الى أن الأفغاني فشل الذهاب إلى استانبول او العيش في سجن ذهبي، داعيا إلى التمسك بالوحدة العثمانية خشية أن تتمزق الدولة وتفترسها الدول الأجنبية. كذلك كان اديب اسحق عثمانيا، من حيث انتماؤه الأساسي فهو مع بقاء الدولة العثمانية متحدة، ومع درء الاخطار الخارجية عنها. ويتجلى ذلك في كتاباته كلها. واديب اسحق الحريص على الدولة العثمانية المدافع عن وحدتها

المؤيد للاصلاح فيها لايستطيع أن يكتم اسفه أحيانا ... (على الدولة تأخذ بما يضر وتنبذ ماينفع ... وينذرها بالهبوط والسقوط ولكن ايى من يسمع) ... لذلك فان اديب اسحق، كما يقول المؤرخ الفلسطيني ناجي علوش، هو من اوائل المفكرين العرب الذين دعوا إلى الاتحاد العربي. وقد جاءت دعوته هذه في مقالة له عن الشرق تحدث فيها عن دولة العرب القديمة، وبعد أن الأرض قارن عظمة الماضي ببؤوس الحاضر قال مخاطبا العرب في زمنه: (ألستم في ارض التي أقلتهم، وتحت السماء التي أظلتهم، أو أليس مأوكم هو الذي وردوه، وهواكم الذي انتشقره، فما بكم تعجزون عما استطاعوه)؟ ثم يمضي في التساؤل (والا فما للحجاز محجوز الانوار، وما للشام مشروم الأحوال، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العز بانفاق، وما لحلب متوالية النوب، وما اليمن فاقد اليمن، وما لتونس عديمة الأنس ، وما للمغرب مهمل العرب؟) ويضيف بعد ذلك ، وهنا بيت القصيد: (الم يكن في كل هذه الأقطار نفر من أولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية، على مع الكلمة العربية ...) ويدعو بعد ذلك الى مؤتمر لزعماء الأمة : (يتذاكرون فيه ويتحاورون)، ثم ينادون باصوات متفقة المقاصد، كأنها من فم واحد ... نهلم شد الضالة، ونطلب المنهوب، ولا نقوم في ذلك بأمر فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب ملى ذهب ..فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان).. وهكذا قضية العرب، كانت واضحة لدى اديب اسحق، وقد أخطأ من عده مفكرا عثمانيا صرف لكن هذا لا يمنع من القول أن قضية اغرب هذه احتلت مكانة متقدمة من اهتماماته.

5- الاتجاه القومي الصرف

ويتمثل في هذه المرحلة في اراء نجيب عازورى (1881-1916م)صاحب كتاب يقظة الأمة العربية في اسيا التركية Le Reveil de Nation arabe dans Asie Turque الذي صدر باريس سنة1905م وترجم الى اللغة العربية قبل الدكتور احمد ابو ملحم ونشر بيروت سنة ١٩٧٨م ، فهو المفكر العربي الوحيد الذي دعا بوضوح إلى بناء دولة عربية قومية عثمانية تمند، من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى البحر العربي. ويكون اسلوب الحكم فيها دستوريا مبنيا على المساواة لكل المواطنين امام القانون. وقد تخطى الكواكبي كثيرا . فمن هو عازورى وما افكاره الرئيسية: ؟

نجيب عازوري :

ليس ثمة معلومات تفصيلية عن حياة عازوري ، الا أن معظم مصادر الفكر العربي تشير إلى انه مسيحي من جبل لبنان ، ولد ببيروت في25 كانون الأول ١٨٨١م، وتولى منصب وكالة متصرفية القدس ، ثم عزل من وظيفته وسافر إلى باريس حيث عمل ضد الدولة العثمانية وسعى من اجل الاستقلال العربي. وقد بدأ حملته حين اسس سنة 1904م جمعية او حركة سياسية بأسم (جامعة الوطن العربي Ligue del patrie Arabe) انظم اليها بعض العرب الاحرار المثقفين في باريس وكان هدفها الذي اعلنته ، تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة " العثمانية. وقد وجهت الجمعية عدة نداءات إلى الرأي العام الأوربي ، ابانت فيها مطالب العرب وجاء في اول بيان لها : أن العرب الذين لا يستبد بهم الأتراك الا بفضل سياستهم القائمة على ابقائهم منقسمين بأسباب . واهية من

المذهب او الدين قد وعوا وحدتعم القومية والتاريخية والجنسية . وانهم عقدوا العزم على الانفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولة مستقلة بهم . اصدر عازوري سنة1905م كتابه آنف الذكر وقد ساعده عمله كموظف في الدولة العثمانية ، الاطلاع على أوضاعها بوجه عام ويلم بشؤون الولايات العربية ، لذلك فقد دعا في كتابه إلى توحيد الكنائس العربية الكاثوليكية باسم (الكنيسة الكاثوليكية العربية) وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على أن يكون الحجاز مقرا لخلافة اسلامية عربية وان تكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية. وفي سنة ١٩٠٧م استمال : بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين وكسب تعاونهم معه ، في اصدار مجلة شهرية باللغة الفرنسية بعنوان (الاستقلال العربي l ' Independance Arabe) ظهر العدد الأول منها نيسان الغربي وكان شعارها (ارض العرب للعرب) وهدفها نشر المعلومات عن الاقطار العربية ، واثارة الاهتمام بتخليصها من الحكم العثماني . وقد توقفت عن الصدور في تموز سنة 1908م بعد اعلان الدستور العثماني على يد الاتحاديين . وصدر منها(15)عددا من نيسان ١٩٠٧م و حتى حزيران ١٩٠٨م ورجل عازوري بعد ذلك إلى القاهرة ، وعمل سكرتيرة الحزب مصر الفتاة الذي كان يدعو إلى حكم تمثيلي تدريجي بالتعاون مع الانكليز . وفي1916م اصدر الأتراك بحقه حكما غيابيا بالاعدام، لكنه توفي في القاهرة في العام نفسه . دعا عازوري في كتاباته إلى أمة عربية واحدة تضم المسلمين والمسيحين على السواء . وقال بان المشاكل الدينية (من تعصب وفتن ومذابح) التي تنشأ بين اديان مختلفة او بين ابناء الدين الواحد انما : هي في الحقيقة مشاكل سياسية تثيرها قوي اجنبية خارجية لمصلحتها الخاصة واضاف بان المسيحيين لإيقلون عروبة عن اخوانهم المسلمين ، وبان من الضروري أن تقوم كنيسة عربية قومية ، تحل محل الطوائف المتعددة التي تمارس العبادة والتفكير باللغة العربية. وكما يظهر من عنوان كتابه : (يقظة الأمة العربية في اسيا التركية)، فان عازوري يرى أن حدود الامة العربية تشمل جميع البلدان الناطقة بالضاد في اسيا، دون بلدان مصر وشمالي افريقيا التي كانت واقعة خارج نطاق اهتمامه انذاك ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أن هذه الأقطار وقعت تحت الاستعمار الاوربي ، لذلك فان طبيعية النضال فيها نختلف عما كانت عليه في أقطار المشرق العربي ، حيث يتوجه النضال ضد العثمانيين ، ويكتسب طابعها قومية وليس دينية . فعازورى يعتقد أن على الأمة العربية أن تستقل عن الاتراك . وقد برزت النغمة المعادية للاتراك في كتاباته بشكل اوضح من بروزها في كتابات من سبقه. فالاتراك في نظره هم سبب خراب الأقطار العربية ، ولولاه لكان العرب في عداد اكثر الأمم تمدنا في العالم : وكان يردد بان هناك بضعة مئات من الموظفين الاتراك يضطهدون اثني عشر مليونا من العرب إلا انها شدت انظار بعض الصهيونيين ، ودفعت احدهم إلى كتابة مقال بالعبرية بعنوان الحركة العربية واغراضها ، اشار فيه إلى هذه الحركة التي بدأت تبرز إلى الضوء ، وقد تهدد الصهيونية بالخطر ، الا ان الرأي الغالب الم يعرف تلك الكتابات اهتماما كبيرة ، ولم تكن في نار هم سوى عداوة جديدة للسامية عزوها إلى العرب المسيحيين .

نشأة الحركة العربية القومية

كانت جمعية بيروت السرية سنة(1876م)أول جهد منظم في الحركة السياسية العربية .فقد بدأت بلصق المنشورات التي تندد بمساوىء الحكم العثماني وتدعو إلى الثورة ووضعت اول بيان محدد عن منهاج العرب السياسي ، لكنها توقفت بسبب حملات القمع الحكومية : بين سنتي ١٨٨٢م و ١٨٨٣م. وانتقل ابرز مؤسيسها : فارس نمر ، وشاهين مكاريوس ويعقوب صرف ، إلى القاهرةسنة(1885م) ليؤسسوا هناك جريدة سياسية يومية هي جريدة المقطم ومجلة فكرية باسم

(المقتطف) ، وليتابعوا من خلالها الدعوة إلى محاربة الظلم والاستبداد التركيين والعمل على تأليف جبهة عربية موحدة من(المسلمين والمسيحيين) تقوم على فكرة العروبة ونستطيع الوقوف في وجه الأتراك . كما تكونة في دمشق حلقة سياسية سرية باسم حلقة دمشق الصغيرة في دار الشيخ طاهر الجزائري(1852-1920م) ذلك بسنة ١٩٠٣م. وكان لولب هذه الحلقة محب الدين الخطيب ، ومن اعضائها البارزين عارف الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمي. ان الطروحات السرية لهذه الحلقة تسجل خطوة مهمة على طريق توسيع اهتمام الشيخ طاهر الجزائري الثقافية لتأخذ طابعة سياسية وذلك باتجاه الدعوة المنهاج سياسي يقضي بمطالبة الدولة العثمانية باتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنح العرب حقوقهم المشروعة . وقد حققت الحلقة بعض الاتصالات مع شباب بيروت ، ومنهم عارف النكدي وعبد الغني العريسى ومحمد المحمصاني والأمير عادل ارسلان وغيرهم ممن متبرز اسمائهم أعضاء في الجمعيات العربية والقومية التي تشكلت قبل الحرب العالمية الأولى . وفي سنة(ه ١٩٠م) انتقل معظم أعضاء حلقة دمشق إلى استانبول للدراسة فألفوا هناك جمعية النهضة العربية التي قامت بدور كبير في بث الوعي القومي .وتوقفت عن العمل قبل اعلان الدستور ، وبعده تطورت الاتجاهات الفكرية وقويت بشكل خاص ونما الوعي القومي من مجرد مشاعر واحاسيس تجيش في صدور الأحرار من العرب إلى الحركة منظمة لها انصارها ومناهجها السياسية وما زاد في بلورة النواحي التنظيمية في الحركة العربية ، التطورات التي حدثت في الدولة العثمانية وكان من ابرزها الانقلاب العثماني لسنة 1908م .

ان الانقلاب العثماني الذي تم في ٢٣ تموز سنة 1908م قامت به مجموعة من الضباط تنتمي إلى جمعية الاتحاد والترقي وعلى رأسها انور و نيازى . وقد تم خضت العملية الانقلابية عن تظاهر السلطان عبد الحميد باستجابة لمطالب الانقلابين باعادة دستور سنة 1876م المعطل منذ سنة ١٨٧٧م والسير بموجب شعارات الحرية والعدالة والمساواة. وسرت من جراء ذلك موجة من الفرح والابتهاج في معظم أرجاء الدولة العثمانية أملا في بداية عهد جديد تترجم فيه شعارات الاتحاديين إلى واقع ملموس . وقد نشط الاتحاديون في الدعاية لمبادئهم عن طريق التوعية السياسية وتمثلت هذه بمختلف فروع جمعية الاتحاد والترقي التي افتتحت في شتى ارجاء الدولة العثمانية . كما استعانت الجمعية بالصحف والمجلات لنشر اهدافها السياسية ، وعمدت كذلك إلى فتح النوادي والمدارس وعينت لها معلمين ودعاة من بين أعضائها يلقنون الطلاب اهداف ومبادىء الاتحاديين. نشرت جمعية الاتحاد والترقي برنامجها السياسي في اواخر ايلول سنة 1909م وقد نص على أن تدار الولايات على اصول توسيع المأذونية اي الصلاحيات التي نصت عليها المادة (١٠٨) من الدستور . مع مواصلة السعي في تقوية عرى الاتحاد والاخاء بين العناصر العثمانية ، على أن تبقى اللغة التركية هي اللغة الرسمية ، وتتبع الدولة سياسة تعليمية ترمي إلى تربية نشاء العثماني تربية موحدة والى فتح مدارسن تضم عناصر الدولة المختلفة في تعليم مشترك للوصول إلى التربية الموحدة . مال الاحرار من العرب وغيرهم في استانبول في تلك الفترة إلى تشكيل جمعيات تساند جمعية الاتحاد والترقي فظهرت في ٢ ايلول ١٩٠٨م جمعية الاخاء العربي ـ العثماني . وقد نصت المادة الأولى من المنهاج السياسي لهذه الجمعية على مساندة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على احكام الدستور وجمع كلمة العناصر العثمانية المختلفة . وكان رئيسها صادق باشا العظم ، ضابطا سابقة في الجيش العثماني ومن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، وقد عاش في المهجر مضطهدة من السلطان عبد الحميد ، وعاد إلى استانبول بعد الانقلاب .

بالرغم من الجهود التي بذلها الزعماء العرب المعروفون انذاك ، ومنهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، ورفيق العظم ، ورشدي الشمعة ، لكي يظهروا اخلاصهم وتعاونهم مع الاتحاديين الا ان بوادر . الخلاف سرعان ما بدأت تلوح في الأفق ، خاصة بعد أن ظهرت بعض المقالات في الصحف الموالية للاتحاديين ، تهاجم العرب وتتحامل ضدهم . وبدلا من أن يحقق الاتحاديين للعرب مطامحهم المشروعة في تحسين اوضاع الولايات العربية وتشجيع التعليم باللغة العربية ، فانهم اتجهوا نحو تطبيق مركزية شديدة ، واعتمدوا سياسة التتريك وتمجيد النعرة الطورانية واستخدموا لتحقيق ذللك الارهاب ، خاصة بعد أن قمعوا الثورة الرجعية التي حدثت في 13 نيسان سنة ١٩٠٩م، وخلع السلطان عبد الحميد على اثرها ونصب محله اخاه الأصغر محمد رشاد . وقد الغيت الجمعيات ، ومن ضمنها جمعية الاخاء العربي العثماني . : لجأ المثقفون الاحرار من العرب ، ازاء تلك السياسة القمعية إلى تأسيس النوادي والجمعيات التي ظاهرها ثقافي، وباطنها سياسي، ولعل من أبرز هذه النوادي (المنتدى الأدبي) باستانبول الذي اسسه جماعة من الموظفين والنواب والأدباء والطلاب في صيف سنة ١٩٠٩م ليكون مركز آ لالقاء المحاضرات والأبحاث العلمية وتقديم المسرحيات والروايات العربية والاستفادة من ريعها في تمشية امور المنتدى، وقد اصدر المنتدى مجلة ادبية باسم (لسان العرب) وسرعان ما أصبح المنتدى ملتقى للعرب بتناقشون فيه ويبحثوث في شتى المواضيع التي تهم مستقبل بلادهم ، وكان من مؤسيه عبد الكريم الخليل ، وعبد الحميد الزهراوي ، ورفيق رزق سلوم وصالح حيدر ، وجميل الحسني ، ويوسف مخيير ، وسيف الدين الخطيب وشفيق العظم ، ورفيق العظم ، ورشيد رضا ، ورضا الصلح ، وطالب النقيب ، وعزيز علي المصري ، وندرة المطران ، ونخلة المطران ، وعزة الجندي ، ورشدي الشمعة. وبلغ اعضائه الوفا ، كانوا باغلبيتهم من الطلاب ، وصارت له فروع عديدة في سوريا ولبنان والعراق . وظل المنتدى يعمل حتى سنة 1905م حين اغلقته السلطات الاتحادية . وقد تعرض عدد من أعضائه للاعدام في سنتي1915و1916م بسبب نشاطهم القومي. ومن هؤلاء عبد الحميد الزهراوي ، وشفيق العظم ، ورفيق رزق سلوم وعبد الكريم الخليل ، ورشدي الشمعة ، وصالح حيدر ، وسيف الدين الخطيب ، وعزة الجندي ، وندرة مطران :، ونخلة مطران . وقد يكون من المناسب الإشارة إلى أن شبان المنتدى الادبي ، رفعوا ، لأول مرة بين سنتي ١٩٠٩ - ١٩١١م، العلم العربي القومي الذي يتألف من مثلث احمر اللون تلتصق به ثلاثة الوان أفقية متوازية هي الأسود ويرمز لدولة العباسية من فوق ثم الأخضر ويرمز للدولة الفاطمية ثم الأبيض ويرمز ل دولة الأموية ، اما اللون الأحمر ، فهو رمز راية الاشراف في الحجاز . وهذا العلم بالذات هو الذي رفعه الشريف حسين ابان ثورته على الاتراك سنة1916م ويرفعه الفلسطينيون وحزب البعث العربي الاشتراكي اليوم .

لقد خابت آمال العرب وضعفت ثقتهم بالاتحادين. وقد دلت انتخابات اول مجلس للمبعوثان ، بعد اعلان الدستور سنة 1908م على سيطرة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، عليها بطريقة وتسمح لهم او لمؤيديهم . أن يشكلوا اكثرية برلمانية .. كما أن تمثيل العناصر غير التركية كان يقل كثيرة عن تمثيل العناصر التركية فالترك مثلا لم يكونوا اكثر الاجناس عددة في الدولة و كان العرب في الواقع يفوقونهم عددا بنسبة (3-2) وعلى هذا فقد كان مجموع اعضاء مجلس المبعوثان (245) مبعوثا ، مثل الأتراك (150) مبعوثا ومثل العرب (60) مبعوثا . اي كان الترك متفوقين بنسبة (5- ٢) على رأي جورج انطونيوس ، وكان ليبير (lybyer) يعتقد العكس من ذلك ، بان هناك تمثيلا عادلا لكل القوميات . فالمجلس مؤلف من (260) مبعوثا من بينهم حوالي (١٢٠)، تركي، و(٧٢) عربي و(٢٠)

كردي والبقية من عناصر الدولة العثمانية الأخرى. وثمة احصائية اخرى تذكر ان المجلس ضم (٢٨٨) مبعوثة منهم (147) مبعوثا يمثلون الأتراك و(60) مبعوثا يمثلون العرب.

ليس هنا مجال مناقشة هذه الاحصائيات المتضاربة وذلك لعدم توفر الاحصائيات الدقيقة لمجموع السكان في الدولة العثمانية في ذلك الحين . وثمة احصائية تقديرية لمجموع السكان في الدولة العثمانية ترجع إلى سنة ١٩٠٨م، وفيها أن المجموع لايتجاوز ال(٢٢) مليونا من بينهم (7,5) من الاتراك و(10,5)من العرب والبقية من العناصر الأخرى .

حاول بعض المبعوثين العرب تشكيل كتلة برلمانية باسم الحزب العربي ، ووسمت لهذا الحزب بضعة أهداف ابرزها : طلب المساواة الحقيقية مع سائر العناصر ، وجعل اللغة العربية ، لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ورعاية حقوق المواطنين في الولايات العربية وتعيين الموظفين في الأقطار العربية من الذين يتكلمون العربية وقد ساهم مبعوثا لواء الموصل داؤد يوسفاني ومحمد علي فاضل مع شفيق المؤيد مبعوث دمشق وعبد المهدي قاسم مبعوث كربلاء وشكري العسلي مبعوث دمشق وعبدالحميد الزهراوي مبعوث حماة وغيرهم من اجل العمل على اخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ . وقد عهد إلى عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي بوضع نظام داخلي لهذا الحزب التقديمه إلى رئاسة مجلس المبعوثان والحكومة على أن يباشر بافتتاح الفروع والأندية في العاصمة والولايات العربية بعد التصديق عليه مباشرة ولكن النواب العرب لم يستمروا في مساعيهم بعد ذلك وعدلوا فكرهم في اللحظات الأخيرة وفضلوا البقاء ضمن الحزب الحر المعتدل الذي تألف في ٢١ تشرين الثاني سنة 1909م. وقد اعلن الحزب المذكور بانه سيعمل على استصدار قانون الولايات باقرب وقت متطاع يكون من شأنه أن يؤمن تطبيق قاعدة «توسيع المأذونية و تفريق الوظائف» حسبما نص عليه الدستور . كما سيبذل جهده لكي يؤمن للمجلس الاداري لكل ولاية حتى الادارة والاشراف على الشؤون العامة للولاية . وكان من اعضاء هذا الحزب كل من داؤد يوسفاني مبعوث - الموصل الذي تولى إدارة جريدة الحزب «تنظيمات» سنة ١٩١١م ونافع الجابري مبعوث حلب ، وسليمان البستاني الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان ورضا الصلح مبعوث بيروت الذي أشرف على اصدار جريدة الحزب الاخرى «اصلاحات» . اما سبب عدول النواب العرب عن تشكيل الحزب العربي ، فيرجع إلى اعتقادهم بأن وجودهم داخل الحزب الحر المعتدل سيعمل على زيادة قوة المعارضة للإتحاديين و عدم بعثرتها . الا ان الحزب الحر المعتدل ، سرعان ماذبل واتحل بعد فترة قصيرة وذلك بعد تأسيس جمعية الحرية والائتلاف في 8 تشرين الثاني سنة ١٩١١م دون الاتيان بعمل يذكر.

حزب الحرية والائتلاف وانتخابات سنتي ١٩١٢و ١٩١٩م :

ادت الاندحارات العثمانية في طرابلس الغرب إلى ازدياد المعارضة في مجلس المبعوثان لوزارة حقي باشا فادت إلى اسقاطها . ولم تكتف المعارضة بذلك بل عمدت إلى تكوين حزب جديد عرف باسم (حزب الحرية) والائتلاف" في 8 تشرين الثاني ١٩١١م والذي ضم عناصر الحزب الحر المعتدل وجماعة من الاتحاديين المنشقين عن جمعية الاتحاد والترقي. وقد ساهم بعض المبعوثين العرب في تشكيل هذا الحزب الذي ضم عناصر مختلفة تجمعهم فكرة معارضة الاتحاد والترقي والايمان باللامركزية. وقد انشر الحزب منهاجه السياسي الذي نص على توسيع المأذنونية وتفريق الوظائف

باستثناء مسائل الدفاع الخارجي او مسائل المنافع المشتركة بين الولايات مع بقاء الرابطة العثمانية على ان تمنح الولايات استقلالا اداريا على اساس اللامركزية.

تفاقم الصراع بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان. اذ ازدادت حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي، مما اضطر الاتحادين الى استصدار ارادة سلطانية لحل مجلس المبعوثان في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩١٢م على ان تجري الانتخابات خلال ثلاثة اشهر من تاريخ حل المجلس ليجتمع مجلس المبعوثان الجديد

اختلفت الانتخابات التي بدأته اواخر كانون الثاني سنة ١٩١٢م عن سابقتها وذلك لان الصراع بين جمعية الاتحاد والترقي حزب الحرية والائتلاف كان على اشده. وبالرغم من نجاح الاتحاديين في ان تكون لهم أكثرية برلمانية الا إنهم سرعان ماواجهوا مشاكل معقدة. وقد كان للجمعية العسكرية التي تألفت منذ ايار- حزيران سنة ١٩١٢م والتي عرفت باسم ضباط الانقاذ او "خلاص كار ضابطان" دور كبير في احداث تلك المشاكل. ومعظم هؤلاء الضباط من الألبان. وقد اعلنوا تمردهم في الروم ايلي. وتركزت معارضتهم حول عدم شرعية الحكومة ومجلس المبعوثان الجديد الذي اقتحمت جمعية الاتحاد والترقي اعضائها فيه. فطالبوا بانتخابات حرة، ودعوا إلى عدم تدخل الجيش في السياسة واوعزوا الى محمود شوكت باشا وزير الحربية بالاستقالة فاستجاب لدعوتهم في ٢١ تموز سنة 1912م. وتألفت وزارة ائتلافية جديدة برئاسة احمد مختار باشا (ثم كامل باشا من بعده) وحل مجلس المبعوثان. واعلنت الحكومة الجديدة عن عزمها لتطبيق مبدأ اللامركزية

لم تتمكن وزارة ضباط الانقاذ من تنفيذ منهاجها اذ اطاح بها الاتحاديون بانقلابهم العسكري الثاني في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩١٣ م بقيادة انور باشا وحكم الاتحاديون منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى بشعاراتهم الثلاثة المعهودة الا وهي: المركزية والطورانية والتتريك . وتقوم الطورانية على تمجيد القومية التركية والتركيز على قرابة الأتراك العثمانيين مع اخوانهم الطورانيين في اسيا الوسطى. واستندت الحركة الطورانية إلى سياسة التتريك ، وكان لسياسة التتريك وللحركة الطورانية فلاسفتها منهم يوسف آق جوره أوغلي ومن ارائه في هذا الصدد: « ان الذين يرتبطون مع الاتراك بالدين فقط، وليس بالعرق، الا أنهم قد امتزجوا مع الاتراك إلى درجة معينة، يسهل صهرهم في المجتمع التركي. أما الذين لم يتولد لديهم شعور قومي فيمكن تتريكهم).

اجرى الاتحاديون انتخابات جديدة لمجلس إللمبعوثان، فاعلنت نتائجها في 4 كانون الثانى 1914م.. وقد مارس الاتحاديون فيها اساليب مختلفة من الضغط ليضمنوا اجراء الانتخابات لصالحهم. ولم يمنع هذا من فوز بعض النواب العرب الذين يحملون اتجاهات مغايرة لاتجاهات الاتحاديين وقد ساهم هؤلاء النواب وغيرهم في اثارة بعض القضايا المتعلقة بالامور الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية. ولكن انباء الحرب العالمية الأولى اخذت تطغى على اخبار مجلس المبعوثان، فاصدر السلطان محمد الخامس ارادة سلطانية في آب سنة 1914م تقضي بتعطيل المجلس نظرا لظروف الحرب.

لم تكن فروع جمعية الاتحاد والترقي في الولايات العربية في المجال الوحيد الذي برز فيه الاتجاه الطوراني وسياسة التتريك، وانما كانت هناك مجالات أخرى، ومنها سياستهم تجاه التعليم . لقد حرص الاتحاديون على أن يكون التعليم في المدارس باللغة التركية وحدها تطبيقا لسياسة التتريك الى تجهوا اليها، وكان من مظاهر الاتجاه القومي التركي المتطرف كذلك، هو اهتمام الاتحاديين بالمناطق التي يسكنها الأتراك، كما تشدد الاتحاديون في أن يكون التدريس باللغة التركية بما في ذلك تدريس قواعد

اللغة العربية واذا اضطر بعض المعلمين احيانا الى الشذوذ عن هذه القاعدة فانهم بمنعون من ذلك من قبل المسؤولين . وعلى أي حال لايتمكنون من استعمال أي كتاب مالم يكن تركيا. وكثيرا مايحدث أن المعلم للقواعد العربية كان يجهلها ومع هذا يلقي درسه باللغة التركية . وغالبا ما كان الطلاب العرب يرددون الأناشيد التركية دون أن يفقهوا كثيرة من معانيها .

أن سياسة الاتحاديين تجاه التعليم في الولايات العربية ، قادت إلى نفور قسم من الناس واعراضهم عن المدارس الحكومية حيث فضلوا ارسال ابنائهم إلى مدارس الارساليات التبشيرية أو إلى الكتاتيب او المدارس الدينية. ولهذا فقد كانت المدارس الرسمية مقتصرة على اولاد الموظفين والضباط وبعض الوجهاء الذين كانوا على صلة مستمرة مع دوائر الدولة .

سار الاتحاديون منذ سنة ١٩١٣ م وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى بسياسة مركزية أثارت حفيظة القوميات الاخرى في ارجاء الامبراطورية . وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال بردود الفعل القومي بين العرب عن طريق المؤسسات التي مارست نشاطا ملحوظا في التوعية القومية عن طريق المطالبة بالحكم المركزي . ومن ذلك نشاط حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة. أما بالنسبة للقومية العربية ، فقد تمثلت في التنظيمات الحزبية السرية وابرزها جمعيتي العهد العسكرية والعربية الفتاة . ولنقف عند هذه التنظيمات لنكشف طبيعتها وظروفها ومنهاجها ثم تحدد اهم السلبيات التي وقعت فيها الحركة القومية العربية عموما . ولنبدأ اولا بحزب اللامركزية الإدارية العثماني .

حزب اللامركزية الإدارية العثماني :

تأسس اواخر سنة ١٩١٢ م في القاهرة. وهدفه السعي لتطوير اسلوب الحكم في أقطار الدولة العثمانية على اساس اللامركزية . وبعبارة أخرى منح كل ولاية قسطا كبيرا من الاستقلال الأداري حتى تستطيع تنفيذ ـ الاصلاحات الضرورية ومقاومة اي غزو اجنبي في حالة تعذر مساعدة الحكومة المركزية لها خشية أن يتكرر ماحدث في ليبيا وغيرها من أقطار المغرب العربي . وقد كان من أهداف هذا الحزب كذلك أن تكون في كل ولاية لغتان رسميتان : اللغة التركية و اللغة المحلية . وان يؤدي شبان كسل ولاية الخدمة العسكرية داخل ولايتهم في زمن السلم . وان تخصص واردات الولاية لسد احتياجاتها الفعلية ، وأن توسع صلاحيات مجالس الولايات ، وان يستعان قدر الإمكان بخبراء اجانب لاعادة تنظيم قوى الشرطة ودوائر العدل والمالية . وقد أكد الحزب على انتهاج الوسائل العلمية والسلمية لتحقيق أهدافه .

كما ظهرت في بيروت اواخر سنة .١٩١٢م، بعد تأسيس حزب اللامركزية جمعية اصلاحية باسم (لجنة الاصلاح)، تألفت من ستة وثمانين عضوا من جميع الأديان ، وكانت خلتها تهدف إلى التطبيق العملي للمبادئ التي نادى بها دعاة اللامركزية ، وقد أعلنت لجنة الإصلاح منهجها في أواسط شباط سنة 1913م ونشرته على نطاق واسع في الشام والعراق . فعمدت السلطات المحلية الى مطاردة بعض أعضائها . غير انها اضطرت ، تحت ضغط المظاهرات التي عمت بلاد الشام أن تطلق سراح القادة المعتقلين وتعلن عزم الحكومة على القيام بالاصلاحات على اساس اللامركزية .

أصدر الاتحاديون فيه آيار سنة ١٩١٣م قانونا جديدا للولايات . جاء على النقيض تماما مما هدفت اليه مناهج بلجنة الاصلاح و حزب اللامركزية الادارية العثماني . وقد عده الكثيرون خطوة مقنعة نحو المزيد من المركزية وزيادة وطأة استانبول على الولايات العربية وتقوية قبضتها على الحرية

واجه القانون الجديد ، بعد نشرة مقاومة شديدة في الولايات العربية . فأخذت الصحف تندد به . وكتبت جريدة صدى بابل البغدادية في عددها الصادر في ٢٠ آيار سنة 1913م تقول : (أي قارة تقدر على افهام اخواننا الأتراك، أن العرب في الدولة هم اخلص العناصر واصدقها واشدهم تمسكا بالجامعة العثمانية . ان اخواننا يعلمون ذلك ولكنهم لايريدون أن يعترفوا ، يريدون أن يتجاهلوا الأسباب) . وقد عقدت الاجتماعات في الولايات العربية ، وتقرر فيها الاحتجاج على القانون المجحف بحقوق الوطن والمواطن. وابرق عدد من المثقفين في الولايات العربية إلى استانبول يطالبون عدم تطبيق القانون باعتباره غير كاف لاصلاح ولاياتهم .

لقد ارتبطت الحركة الإصلاحية ، بصورة خاصة ، بحزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة ، وكان من مؤسسيه رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا و اسكندر عمون ، وعبد الحميد الزهراوي وداود بركات . وقد ذكر عبد الغني العريسي احد القوميين العرب الدين أعدمتهم السلطات العثمانية فيما بعد ، في اعترافاته أمام المجلس العرفي العثماني في عاليه بلبنان : أن رئيس الائتلافيين صادق بك كان يتردد على رفيق العظم وجرى بينهما شبه اتفاق بحيث يكون الحزبان عونا على ازاحة الإتحاديين من الحكم.

اسست جمعيات اصلاحية مماثلة لجمعية الإصلاح في بيروت، في الموصل وحلب ودمشق والبصرة .. كان قسم منها فرعا لحزب اللامركزية الادارية العثماني .. أما القسم الآخر فكان جمعيات مستقلة نسقت نشاطاتها مع الحزب المذكور.

كانت حركة الوعي القومي في سوريا اقدم عهدا ، واقوى تنظيما واكثر انصارا بالقياس إلى الأقطار العربية الأخرى. ولقد سبقت ، كما رأينا . حركة الوعي هذه نهضة فكرية ، ولما كان لكل حركة أن تضمن لنفسها واقعة تعمل من خلاله ، فقد أثمرت تلك النهضة وبدأ صداها يترك اثره على الأوضاع السياسية . واذا كانت حركة الوعي القومي قد اتخذت في سوريا شكلا منظما جلب انتباه المورخين ، فليس معنى هذا أنه لم تكن . هناك في الولايات العربية الاخرى عوامل تعمل عملها في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية تفاعلت مع بعضها وأدت إلى ظهور الوعي القومي .

أن الاتحاديين بدلا من أن يحققوا العرب مطامحهم القومية ، اتجهوا منذ سنة 1913م وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى إلى انتهاج سياسة مركزية متطرفة اثارت حفيظة القوميات الأخرى ومنهم العرب ، هذا فضلا عن اتباعهم سياسة تفضيل الأتراك على غيرهم من عناصر الدولة وقد استخدموا الارهاب في فرض سياستهم . كما الغيت الجمعيات العربية العلنية ، وكان الفشل الإتحاديين في الدفاع عن الأقطار العربية ضد الغزو الأوربي الاستعماري اثر في احساس العرب بضرورة بعث كيانهم الخاص المتميز ، فبدأوا يجهرون برفضهم للسيطرة العثمانية . ثم لجأوا إلى تنظيم انفسهم في جمعيات و احزاب سياسة سرية لمواجهة الأخطار الجديدة. ولعل من أبرز تلك الجمعيات جمعيتي العهد العسكرية ، والعربية الفتاة.

جمعية العهد العسكرية :

اضطر الاحرار العرب إلى العملي السري بعد أن ازداد اضطهاد الأتراك لهم ولعل من أبرز الجمعيات السرية التي تأسست خلال المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . جمعية العهد العسكرية . تشكلت في استانبول بزعامة عزيز علي المصري وهو ضابط عربي في الجيش العثماني وبعض

الضباط المتحمسين للقضية القومية العربية امثال سليم الجزائري وطه الهاشمي ونوري السعيد وجميل المدفعي وغيرهم . ولايوجد تاريخ دقيق لنشأتها. فقد ذكر عزيز على المصري بانه في سنة ١٩١٢م اسس جمعية العهد العسكرية. بينما جدد جورج انطونيوس بداية سنة 1914م تاريخا النشأتها : أما أمين سعيد فقد وضع اليوم الثامن والعشرين من تشرين الأول ١٩١٣م تاريخا لتأسيس هذه الجمعية

سميت الجمعية بهذا الاسم ، لان انتماء اي عضو اليها يعد بمثابة «عهد» بينه وبين الله على خدمة الوطن، وكان هدف الجمعية الحصول على الاستقلال الداخلي للأقطار العربية ، ويقول نوري السعيد: : (بان هدف الجمعية كان منحصرا في اصلاح الحال على اساس النظام الاتحادي (فيدراسيون)... ولم يفكر أحد منا في الانفصال عن الامبراطورية العثمانية، وانما كان تفكيرنا منصبا في الحصول على ادارة غربية محلية، ولغة عربية رسمية على أن نشترك والعنصر التركي في ادارة سياسة الدولة العامة...). كان منهاجها نفس منهاج الجمعية القحطانية التي كشفت السلطات الاتحادية امرها. والجمعية القحطانية اسست سنة ١٩٠٩م في استانبول بزعامة علي المصري ونص منهاجها على ان تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة تصبح جزءا من امبراطورية تركية عربية.

لقد حرص عزيز علي المصري على أن تقتصر جمعية العهد على العنصر العسكري وحده. لذلك لم يقبل فيها من المدنيين غير اثنين احدهما الأمير عادل ارسلان احد الأعضاء الأوائل في الجمعية السابقة. وقد يكون من المناسب الاشارة الى ان الضباط العراقيين احتلوا مكانة مهمة في مجالس جمعية العهد وقد أنشأوا بين أواخر سنة ١٩١٣ م وبداية سنة ١٩١٤ م فروعا للجمعية في الموصل وبغداد. ولربما يرجع ذلك إلى أن العراق شهد منذ أواخر القرن التاسع عشر، تأسيس العديد من المدارس العسكرية (الرشدية والاعدادية)

قررت السلطات العثمانية بعد ان اصبح الجمعية العهد نشاط كبير في استانبول وتسربت الأخبار عن نشوء فروع لها في بعض المدن العربية،وانها لقيت تأبيدة من الضباط العرب، أن تقاوم ذلك كله، وتعمل على تفريق رجال الحركة وتبعثرهم قبل أن يشتد ساعدهم. لهذا عقدت في يوم24كانون الثاني سنة 1914م اجتماعا خاصا في وزارة الحربية حضرة الصدر الاعظم سعيد حليم باشا ومحافظ استانبول السكري جمال باشا (قبل تعيينه وزيرا البحرية). ومدير الأمن العام عزمي بك. وقد درست في هذا الاجتماع التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية عامة ، وجمعية العهد خاصة واتخذت عدة قرارات اهمها: تولية القيادة في الولايات العربية إلى الضباط الأتراك، و اقصاء الضباط العرب، والاستغناء عن خدمات بعضهم ، قدر الامكان وعهد إلى جمال باشا تنفيذ ذلك. وإلى شيء من هذا القبيل اشار جمال باشا، في مذكراته حين اتهم الضباط العرب، العاملين ضمن الفرقة العربية المرابطة في شبه جزيرة غاليبولي، بانهم صرفوا اهتمامهم عندما كانت الحكومة العثمانية مشغولة بالحرب البلقانية سنة ١٩١٣م الى (تعضيد، وسائل الابتزاز السياسي التي قام بها (دعاة القومية من العرب) في استانبول بدلا من القيام بواجبهم العسكري). وقد يدل هذا على أن الاتحاديين علموا بوجود حركة عربية بين الضباط العرب، فقاموا في 9 شباط 1914م باعتقال الرائد عزيز علي المصري. ثم جاءت الحرب العالمية الأولى لتقلل من نشاط الجمعية، فكان من الطبيعي أن يتناثر أعضاؤها.

جمعية العربية الفتاة : :

وهي جمعية سرية. اسسها في باريس سنة ١٩١١م مجموعة من الشبان العرب الذين كانوا يدرسون هناك ، منهم عوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وتوفيق الناطور ورستم حيدر . وهدفها تحقيق استقلال الأقطار العربية وتحريرها من النير العثماني . وفي سنة ١٩١٣ نقل مركزها إلى بيروت ، ثم في السنة التالية نقل إلى دمشق حيث بلغ عدد أعضائها المائتين . وهي ابرز الجمعيات السياسية العربية على الإطلاق ، امتازت بوضوح أهدافها ، ووعي اعضائها واخلاصهم ودقة نظامها . وقد بقي سر هذه الجمعية مكتوما حتى النهاية ، ولم يعرف سرها الا بعد أن أعلنت الحكومة العربية في دمشق سنة ١٩١٨م . ومن آيات البطولة التي اتصف بها اعضاوها ان احدهم فضل الانتحار على الاعتراف، وفضل آخر المشنقة على افشاء سر الجمعية . وقد كان لهذه الجمعية، كما سنرى ؛ دور كبر في القضية العربية خلال الحرب العالمة الأولى . وتشير المؤرخة الفلسطينية الدكتورة خيرية قاسمية إلى أنها عثرت بين اوراق . محب الدين الخطيب على كراس تأسست يتضمن منهج الجمعية . وما جاء فيه أنها (من قبل فريق من النابتة العربية للقيام بما تفرضه عليهم الوطنية ليتعزز هم مركزها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي حسب ما تتطلبه طبيعة الوجود)، و كذلك على منشور سياسي للجمعية بعنوان الصرخة الاولى يطالب بالاصلاح والاستقلال الاداري و عليه ختم الجمعية . كما اطلعت على رسالة من عارف الشهابي في ١٨ آذار سنة 1914م إلى محب الدين الخطيب يعلمه بقرار الجمعية أن يكون شعارها الألوان الثلاثة التي تمثل التاريخ العربي : الأخضر والأبيض والاسود .وقد اقترح محمد المحمصاني في رسالة اخرى في25نيسان 1914 م بان . يعمل ختم للجمعية بجمع النخلة والصقر.

المؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣

زاد الاتحاديون من تعسفهم واضطهادهم للحركة القومية العربية ، الامر الذي دفع قادة هذه الحركة إلى نقل نشاطهم إلى خارج الدولة العثمانية انطلاقا من الحاجة في تعريف الرأي العام العالمي بمطالب العرب القومية ، ورغبة منهم في توحيد جهود الشباب العربي ونضالهم. لذلك انبثقت في ذهن فريق من المثقفين والطلاب العرب الذين يدرسون في باريس ، ومنهم عبد الغني العريسي وتوفيق فايد ، من بيروت وعوني عبد الهادي في نابلس ومحمد المحمصاني في بيروت وجميل مردم من دمشق وتوفيق السويدي من بغداد ، فكرة عقد مؤتمر في باريس لمحاولة توحيد كافة القوى القومية بغية ممارسة ضغط مشترك على الحكومة العثمانية والعمل على نشر اخبار القضية العربية خارج الولايات العربية . وقد تألفت لجنة تحضيرية للمؤتمر مؤلفة من الغني العريسي وعوني عبد الهادي ومحمد طبارة وجميل مردم و محمد المحمصاني وندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل المعلوف تأخذ على عاتقها الاتصال بالمنظمات القومية والشخصيات العربية البارزة.

لقد كانت أولى خطوات اللجنة التحضيرية اتصالها بحزب اللامركزية في القاهرة وعرضها عليه تبني المؤتمر ورئاسته لانه كان يضم رجالا بارزين في الحركة العربية القومية. كما أن الاصلاح الذي سيطالب به المؤتمر سيقوم على منهج الحزب ، وقد كانت دعوة حزب اللامركزية تتردد انذاك في كل ارجاء الوطن العربي ورأت اللجنة أن ذلك من عوامل نجاح المؤتمر والوصول به إلى نتائج ملموسة. استجاب كثير من قادة الحركة العربية للنداء وتوجهوا إلى باريس وحضروا المؤتمر ومن ابرز الذين حضروا المؤتمر عن اللجنة العليا الحزب اللامركزية : اسكندر عمون ، وعبد الحميد الزهراوي نائب

حماة في مجلس المبعوثان ، والشيخ احمد حسن طبارة صاحب جريدة الاصلاح اليومية في باريس ، والدكتور ايوب ثابت سكرتير الجمعية الاصلاحية في بيروت، وتوفيق السويدي طالب عراقي يدرس القانون في باريس وسليمان عنبر تاجر عراقي وجميل مردم، طالب سوري يدرس القانون في باريس.

أذاعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر بيانا إلى الأمة العربية. جاء فيه ان عقد . المؤتمر جاء نتيجة لما يجري في الأقطار العربية من احداث ولكي (نثبت للعالم اننا أمة متماسكة ذات وجود حي لاينحل ومقام. عزيز لايضام وخصائص قومية لاتنزع ومنزلة سياسية لاتقرع ... اننا نصارح الدولة العثمانية بان اللامركزية قاعدة حياتنا، وان حياتنا اقدس حق من حقوقنا، وان العرب شركاء في هذه المملكة. شركاء في الحرية). ثم وجه البيان نداءه إلى العرب قائلا : اننا ندعو كل من يخفق قلبه لامة العرب صغيرا او كبيرا أن يلبي داعى الوطن لاسيما ارباب الزعامات في مقاعد الجمعيات فعليهم نعتمد وإليهم نتجه) وقد حددت اللجنة الموضوعات التي سوف يبحثها المؤتمر ومن ابرزها : مناقشة حقوق العرب في الدولة العثمانية وضرورة اصلاح اوضاعهم. عقد المؤتمر اربع جلسات رسمية في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية بين ١٨-٢٣ حزيران سنة ١٩١٣م، وانتخب عبدالحميد الزهراوي رئيسا له . وقد حضر المؤتمر حوالي (٢٥٠) مندوبا يمثلون الأقطار العربية. وتلقى برقيات تأييد من شخصيات ومنظمات قومية عديدة في الوطن العربي. وقد اتخذ المؤتمر عددا من المقرارات، اكدت ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة ، وعلى أن يكون لهم دور في ادارة الدولة وان يفسح المجال الهم لتحقيق أمانيهم القومية، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وان تكون الخدمة العسكرية العربية محلية في الولايات العربية الأ الظروف الاستثنائية. كما اكدت ضرورة الدفاع عن الأقطار العربية من اي عدوان خارجي. وقد ناقش المؤتمرون قضية مستقبل الدولة العثمانية، واشتد الجدل حولها، ولكن المؤتمر اكد على وحدة الدولة، شرط الاعتراف بحقوق العرب الكاملة، كشركاء فيها، والحق بمقررات المؤتمر شروط نصت على ان الاعضاء المنتمين إلى الجمعيات العربية يمتنعون عن قبول أي منصب حكومي في الدولة العثمانية الا بموافقة جمعياتهم. كما أن مقررات المؤتمر ستكون بمثابة البرنامج السياسي العرب القوميين في تعاملهم مع السلطان العثمانية. وسوف لا يسمح لاي عربي يرشح نفسه للانتخابات الا اذا تعهد بتأييد هذا البرنامج والسعي لتنفيذه . در آن مقررات المؤتمر المتعلقة بالدعوة إلى الإصلاح والمساواة كان من القوة، بحيث أجبرت الحكومة العثمانية على اعلان قبولها لتلك المقرر او التظاهر بقبولها. فقد أرسلت جمعية الاتحاد والترقي سكرتيرها مدحت شكري بك إلى باريس للتفاوض مع رجال المؤتمر في مطالب وفتحت أبواب المفاوضات ووقع مدحت شكري بك اتفاقا مع عبدالحميد الزهراوي وافق فيه تقريبا على معظم مقررات المؤتمر ، وصادق السلطان محمد ارشاد في ٨ آب ١٩١٣م على الاتفاق و صدر مرسوم سلطانى بذلك. اتضح للعرب بما لا يقبل الشك أن الاتحاديين ما كانوا مخلصين في إذ سلطوا على المؤتمر اقلام انصارهم من ذوي النزعة العثمانية، وخاصة الشيخ اسعد الشقيري والدكتور حسن الأسير وشكيب ارسلان ومحمد حبيب العبيدي والشيخ عبد العزيز جاويش وغيرهم، فهاجموا المؤتمر ، واتهموا أعضائه بالخيانة، وقالوا أن غاية اولئك تسليم البلاد الى الاجانب والقضاء على الدولة والاسلام، وطالبوا بابقاء الحال في الولايات العربية على ما هي عليه، ولم يكتف الاتحاديون بذلك، بل اتخذوا جملة من المقررات السرية في كانون الثاني سنة 1914م منها: مقاومة دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية والغاء الجمعيات العربية كلها ومراقبة نشاطاتها وابعاد الضباط العرب عن استانبول وعددهم انذاك يصل إلى (٥٠٠) وتولية القيادة في الولايات العربية الى الضباط الأتراك

والاسراع في تنفيذ سياسة التتريك وتعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في الأقطار العربية ومطاردة العرب الذين يعملون ضد الاتحاديين دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في 4 تشرين الثاني سنة 1914م بجانب دول الحلف المركزي وذلك تنفيذا للمعاهدة السرية المعقودة بينها وبين المانيا في ٢ آب سنة ١٩14م. هذا مع العلم أن الاستعدادت العسكرية العثمانية قد بدأت قبل اربعة اشهر تقريبا من دخولها الحزب رسميا. اذ شرعت باعلان النفير العام في ٣ آب سنة 1914م. وقد خلقت حادثة ضرب الوانيء الروسية في البحر الأسود من قبل القطعات الحربية العثمانية في ٢٩ تشرين الأول سنة 1914م الموقف الذي ادى الى دخول الدولة العثمانية الحرب. فقد أعلنت روسيا الحرب عليها في 4 تشرين الثاني وتلا ذلك اعلان حرب مشابهة من جانب بريطانيا وفرنسا بعد يوم واحد. أرسلت السلطات الأتحادية بعد دخولها الحرب مباشرة ، جمال باشا وزير البحرية إلى سوريا وكلفته بمهمة عسكرية ، على رأس الجيش الرابع تستهدف القيام بهجوم على القوات البريطانية في قناة السويس والقضاء على تحركات العناصر العربية القومية هناك. وقد كان الهزيمة الجيش التركي وخسائره الثقيلة في حملته على قناة السويس ، أثر كبير في ازدياد قلق جمال باشا وحذره وخوفه من ازدياد نشاط القوميين العرب ، لذلك شكل في تموز ١٩١5م الديوان العرفي في عاليه بلبنان لمحاكمة الدفعة الأولى من القوميين العرب . بعد أن وجهت اليهم تهمة العمل ضد الدولة العثمانية بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا . ومما ساعده على ذلك عثوره في القنصلية ، الفرنسية ببيروت على وثائق تدين بعض الشخصيات العربية بالتآمر على الدولة . وفي ٢١ آب سنة ١٩١5م نفد حكم الإعدام في ساحة البرج بيروت بهؤلاء وهم عبدالكريم الخليل ومحمود المحمصاني ومحمد المحمصاني وعبدالقادر الخرساء ونور الدين القاضي وسليم أحمد عبدالهادي ومحمود نجا عجم ومحمد مسلم عابدين ونايف تلالو وصالح حيلر وعلى الأرمنازي وقد اتهم معظمهم بالانتساب إلى حزب اللامركزية ، وبعضهم بالعمل على الانفصال التام عن الدولة العثمانية . وفي : أيار سنة1916م قدم جمال باشا (وقد سمي بالسفاح منذ ذلك الوقت) القافلة الثانية من القوميين العرب إلى الاعدام في ساحة المرجة بدمشق وساحة البرج بيروت . فالذين أعدموا في دمشق هم شفيق المؤيد العظم ، وعبد الحميد الزهراوي ، وعبدالقادر الجزائري ، وشكري العسلي ، وعبدالوهاب الانكليزي ، ورفيق رزق سلوم. ورشدي الشمعة . أما الذين أعدموا في بيروت فهم جرجي حداد ،سعيد عقل، عمر حمد ، عبدالغني العريسي الأمير عارف الشهابي ، الشيخ أحمد: طبارة ، محمد الشنطي اليافي ، توفيق البساط سيف الدين الخطيب ، علي الحاج عمر النشاشيبي ، محمود جلال سليمان النجاري . سليم الجزائري ، أمين لطفي الحافظ ، هذا وقد أصدر الديوان العرفي حكم الأعدام الغيابي بحق اكثر من (٩٠) شخصية من اعضاء الجمعيات العربية منهم رفيق العظم ، حقي العظم ، شبلي شميل ، رشيد رضا ، نجيب عازوري، يوسف البستاني ، داود بركات ، محمد ارسلان. ، كان السياسة القمع والأرهاب التي اتبعها الأتحاديون في اثر كبير ابتعاد العرب عن الدولة العثمانية ، وانصراف تفكيرهم إلى التخلص من الحكم العثماني ، هذا فضلا عن سياسة الأتحاديين الأقتصادية والتي تمثلت بمصادرة المحاصيل وفرض الاعانات للجيش باسم التكاليف الحربية ونقل الكتائب العسكرية العربية إلى مناطق بعيدة في جبهات القتال ، وزاد الأمر سوءا انتشار الأمراض والمجاعات في ولايات غربية عديدة .

الثورة العربية الكبرى1916م :

قرر قادة الجمعيات العربية القومية ، اعلان الثورة . وتحققت في دمشق اتصالات عديدة بين جمعيتي العربية الفتاة والعهد وتم التوقيع في ربيع سنة ١٩١5م على ما يسمى ب (ميثاق دمشق)

وكان الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة ، طرفا في ذلك الميثاق نائبا عن والده الذي رشحه القوميون العرب زعيما للثورة المنتظرة . ولو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف السياسية ـ والاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي انذاك مع دراسة الشخصيات المرشحة للزعامة ، لوجدنا ، كما تقول الدكتورة خيرية قاسمية ، أن الحسين يتمتع بميزات كثيرة : فنسبه للرسول الكريم(محمد صلى الله عليه وسلم)، وموقع الحجاز الستراتيجي البعيد عن مراكز احتشاد الجيوش وطرق المواصلات ـ ومركزه شريفا لمكة ، وما له من قيمة كبرى في حماية الأماكن المقدسة مع اتصالاته عن طريق ابنائة بالمراكز المدنية جعله أفضل مرشح لقيادة الثورة العربية في تلك الفترة التي لم تتمكن فيها من التخلص من التقاليد السائدة ـ التي تسيطر عليها الزعامات القبلية والدينية . ومنذ أن أصبح شريفا لمكة سنة ١٩٠٨م ، فانه أخذ يسعى إلى التأكيد على مركز الحجاز الممتاز ، فاصطدم بذلك مع الوالي العثماني وهيب باشا المعروف بصراحته وتحمسه لمباديء جمعية الأتحاد ـ والترقي و عزمه على تنفيذ قانون الولايات الجديد في الحجاز ، واضعاف ما للشريف من نفوذ ، والقبض عليه اذا استوجب الأمر ، وقد ازداد الموقف حرجا بنشوب الحرب وتلكؤ الشريف حسين في تأييد الدولة العثمانية بدعوتها إلى الجهاد المقدس وارسال المتطوعين . وهكذا تطلع الحسين إلى بريطانيا من أجل ضمان مركزه ازاء أي اجراء عثماني محتمل فكان يفاوضها باسم العرب ويماطل الأتراك من أجل كسب الوقت ، ويتخذ الترتيبات والأحتياطات العسكرية والاقتصادية لتقليل أثار الحرب في الحجاز . وقد برر الملك عبدالله فيما بعد موقف والده من الدولة العثمانية بالاضطرار والخوف مما قد يصيب الكيان الأسلامي من آثار الحرب . و كانت الأتصالات الأولى بين الهاشميين والانكليز قد بدأت في شباط سنة1914م في القاهرة . وكان الأمير عبدالله ، الذي كان في طريقه إلى استانبول ، مثلا الشريف حسين . أما مثل البريطانيين فكان اللورد كتشنر المعتمد السامي البريطاني . وفي تموز سنة ١٩١٥م اختتمت المفاوضات وتم الأتفاق النهائي لمباشرة العمل المشترك ضد الدولة العثمانية . ومما زاد في قناعة الحسين لمواصلة خطواته التفاوضية مع الأنكليز ، التقارب الذي تم مع ممثلي الحركة العربية القومية في دمشق . وكما أشرنا من قبل فان الجمعيات العربية، بحكم ظروفها الصعبة وامكاناتها القليلة ، لجأت إلى التعاون مع الشريف حسين للوقوف في وجه الأتحاديين وتحقيق الأهداف التي رسمتها . وقد أطلع القادة العرب على رأي الشريف حسين حول عدم ترجيحه لفكرة الثورة دون اسناد بريطانيا. فوافقوا على ذلك ، بشرط أن يكون اعتراف بريطانيا ببنود ميثاق دمشق الذي حملة، فيصل إلى والده في ٢٠ حزيران سنة 1915م ثمنا لدخول العرب الحرب، بجانب بريطانيا . وقد بني الميثاق على بضعة أسس يهمنا منها ما يلي (اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية : شمالا: خط مرسين ـ اطنة الموازي لخط العرض ٣٧ درجة شمالا، ثم على امتداد حدود فارس إلى الخليج العربي ، جنوبا المحيط الهندي (باستثناء عدن الي تظل على ما هي عليه في الوقت الحاضر) وغربا على امتداد البحر الاحمر ثم البحر المتوسط حتي مرسين . اعطاء بريطانيا العظمى الافضلية على غيرها من الدول في المشاريع الاقتصادية)..

اعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى في 10 حزيران سنة1916م ، حينما اطلق الرصاصة الأولى من شرفة داره بمكة ايذانا ببدء العمليات العسكرية ضد القوات العثمانية، واعلن استقلال الحجاز ، وتكوين جيش عربي، واستمرت الثورة سنتين، اكتسحت فيها القوات العربية ، تدعمها مساعدات بريطانية، معظم مواقع الجيش العثماني في الحجاز. واسهمت بشكل فعال إلى جانب قوات

الحلفاء في تحرير الشام ودخول دمشق في الفاتح من تشرين الأول ١٩١٨م واعلان الحكومة العربية فيها برئاسة الأمير فيصل بن الحسين

اما العراق، فقد تعرض لغزو القوات البريطانية التي استفادت من اعلان الدولة العثمانية الحرب عليها في ٢٩ تشرين الأول سنة 1914م لتوسيع سيطرتها على المناطق التي كانت تتطلع اليها منذ وقت بعيد. ويعتقد الكاتب البريطاني ريدربولارد Bullard ان موقف الدولة العثمانية هذا أثار قلق بريطانيا على مصالحها الاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط خاصة بعد ان اظهر الاتحاديون ميلا شديدا نحو المانيا. لهذا أقدمت على تسيير حملة عسكرية احتلت البصرة في ٢٢ تشرين الثاني سنة 1914م وبغداد في ١١ آذار سنة 1917م والموصل في 11 تشرين الثاني سنة. ١٩١٨.

لقد وجدت بريطانيا منذ بدء الحرب ، آن مطامعها في الأقطار العربية لابد وان تصطدم بمطامع فرنسا ، خاصة وان هذه الأقطار لاتمثل درعا واقيا المستعمراتها في الهند فحسب، بل هي مقرا لحقول النفط الغنية. لذا بدأت بريطانيا مفاوضاتها، مع فرنسا في الوقت الذي كانت تتفاوض فيه مع الشريف حسين. وكانت تهدف من وراء ذلك الى امرين اثنين، اولهما محاولة تكوين دولة عربية او اتحاد عربي، وثانيهما تحديد المنافع الإقليمية التي يمكن أن تحصل عليها فرنسا وبريطانيا اذا ما انتهت الحرب بنجاح إلى جانب الحلفاء. ولاحاجة بنا إلى الدخول في تفاصيل المفاوضات ولكن يكفي القول بان الطرفين وقعا في26 نيسان سنة1916م اتفاقية سايكس- پيكو (نسبة إلى السر مارك سايكس، الذي كان نائبا في البرلمان البريطاني والمسيوجورج بيكو القنصل الفرنسي العام في بيروت). وندرج ادناه أهم بنود الاتفاقية :

(ان فرنسا وبريطانيا مستعدتان أن تعترفا (وتعاضدا) دولة عربية مستقلة او اتحادا من دول عربية تحت رئاسة زعيم عربي في المنطقتين (أ) و(ب) المبيتين في الخريطة المرفقة على أن يكون لفرنسا في منطقة (أ) حتى الافضلية في المشاريع والقروض المالية، وفي منطقة (ب) يكون البريطانيا حق الأفضلية نفسه، ويكون لفرنسا في المنطقة (أ) والبريطانيا في المنطقة (ب) وحدهما الحق بتزويد الدولة او الاتحاد العربي المشار اليه بالمستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب منها او منه».

ومن فحص الخريطة المرفقة يتضح لنا بان المنطقة (أ) تمتد من دمشق حتى الموصل وتضم مناطق الموصل واربيل وخلب وحماه ودمشق. اما منطقة (ب) فتمتد من خليج العقبة حتى كركوك والسليمانية وتكريت وهيت وسامراء وشرق الأردن والنقب والعقبة.

تعد اتفاقية سايكس – بيكو ابشع صفقة استعمارية في التاريخ الحديث. وذلك باجماع معظم المؤرخين المنصفين، اذ جزأت المشرق العربي إلى اقطار متعددة، هذا فضلا عن أنها تتعارض مع وعود بريطانيا للشريف حسين. لكنها من جهة اخرى تنسجم مع الأهداف الستراتيجية والمصالح الاقتصادية لكل من فرنسا وبريطانيا.

هذا وقد أتاحت ظروف الحرب كذلك. للصهيونية الاعتراف باهدافها السياسية الاستعمارية. اذ اثار اشتراك الدولة العثمانية في الحرب الأطماع الصهيونية في الحصول على وطن قومي لليهود في فلسطين. وبدأت في شباط ١٩١٧م مفاوضات بين الحكومة البريطانية والزعماء الصهيونيين، وبدعم من الولايات المتحدة الأميركية، حصل الصهاينة.. من بريطانيا على تصريح بلفور (وبلفور هذا وزير الخارجية بريطانيا آنذاك) في 2تشرين الثاني سنة ١٩١٧م والذي يتضمن دعم المشروع الصهيوني

بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. ونسب التصريح إلى ظروف كثيرة فقيل انه اعلن . لكسب عطف اليهود في العالم نحو قضية الحلفاء ، او لاثارة المتاعب أمام المانيا اولضمان تأييد العناصر اليهودية في الولايات المتحدة. ولكن مهما كانت قوة الدوافع من مالية أو سياسية أو دينية، كما يذكر البعض فان ضرورات االستراتيجية البريطانية هي التي اقتضت العمل لصالح الحركة الصهيونية خاصة وان اهمية فلسطين ، كقاعدة وطيدة تحمي قناة السويس من ناحية الشرق، اخذت تزداد مع تطور الحرب.

ان المتتبع لما قدمناه في هذا الفصل، يرى أن الفكر القومي العربي كان لايزال طوال هذه الفترة في الطور الجنيني . ولم يكن المحرك الأساس الا في التنظيمات السرية التي أشرنا إلى بعضها. وقد وجدت تلك التنظيمات نفسها بحاجة إلى حماية المراتب الاجتماعية المتنفذة، مما اضعف من حرية تحركها. كما عرقل اعلان الحرب العالمية الأولى النمو الطبيعي الاتجاه القومي، وذلك بتحمله مسؤوليات لم يكن مهيئا لها الأمر الذي اضطره كما يقول الدكتور غسان عطية إلى الدخول في مساومات مع قيادات علنية محافظة تقليدية معادية للاتراك كالشريف بن علي .

ونتيجة لضعف قيادة التنظيمات المشار اليها، ولقصر نفسها، ولتغليبها مصلحتها الخاصة، فانها سقطت في خطأ التحالف مع الانكليز الذين سرعان ـ ماتنكروا لتلك القيادات وعملوا لاقتسام الأقطار العربية في المشرق مع الفرنسيين وفي الوقت ذاته، وضعوا الاسس لضياع فلسطين واقامة الوطن القوامي اليهودي فيها

ولم تمتلك تلك التنظيمات نظرية ثورية متبلورة كما اقتصرت عملها على المثقفين دون أن تنزل إلى الجماهير ولم يكن لديها برنامج للتغيير الاجتماعي والاقتصادي وذلك بسبب طبيعة قياداتها البرجوازية التي تعمل من اجل مصالحها الاقتصادية بالدرجة الأولى. كما أن الطبقة العاملة كانت آنذاك في مرحلة التكوين، ولم تكن منظمة، وبالتالي لم يكن لها أي دور مهم في حياة المجتمع العربي.

لقد تحولت بعض قيادات الحركة العربية، من صفوف الثوار والمناضلين من اجل الاستقلال إلى صفوف الطبقات التي استطاع المستعمرون كسبها إلى جانبهم. وقد حققت تلك النشاطات الطبقة البرجوازية النامية مجالات اكبر للنمو والتوسع، ورسخت في كثير من المواقع وجود طبقة اقطاعية ولكنها من جهة اخرى زرعت بذور الصراع الطبقي. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وحتى السنوات الأولى من العقد الخامس من هذا القرن واجهت الحركة العربية القومية مهام ذات طابع جديد وبذلك دخلت الحركة العربية في مرحلة جديدة حاسمة من مراحل تطورها .